

تفسير الفاسي
المسكت

مخازن التلاويك

تأليف علامه الشكام

محمد جمال الدين الفاسي

ونف على طبعه وتصحيحه ، ورقه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(تادم الكتاب والسنة)

بمجددنا عبد الباقا

كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِّمَدَّ بَرَوَاءِ آيَاتِهِ ۖ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير الفاسمي

المسكبي

محاسن التاويك

تأليف علامته الشكام

محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ ١٨٦٦ — ١٩١٤ م

أجزء الخامسة عشر

ويبتدى بتفسير : ٤٦ - سورة الأحقاف ، وينتهى بتفسير ٥٥ - سورة الرحمن

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

محمد بن عبد الباق

عيسى الباق الحلي وشركاه

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأئمة شبيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »

للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة

الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع

فهماً ترتاح إليه ضمائرهما ، وتنعقد عليه

خناصرها ، ألا تقدم شيئاً على قراءة

تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمى »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣ هـ

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد النار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيام ،

والمجدد لعلوم الإسلام ، محي السنة

بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب

والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال

بين هذى السلف ، والارتقاء المدنى

الذى يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »

للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء

مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جداً أن ترى كتاباً ، فى خزائنه

الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التمليلات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول

الخطية الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٦ - سورة الأحقاف

قال المهايي : سميت بها لأن مكانها من حيث قبوله سرعة تأثير ريح العذاب فيه ، كاللذليل على إنذاره . ففيه إشعار على أن إنذارات القرآن كاللذائل على أنفسهم . ثم في قصتهم اتساق الإنذار إلى صيرورة الرجوع خوفاً . ففيه إشعار بأن إنذارات القرآن مما يخاف منها صيرورة ما يرجوه الجهال خوفاً عليهم . وذلك من أعظم مقاصد القرآن . انتهى .

وهي مكية . واستثنى بعضهم منها (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ ...)^(١) الآيتين . وقوله^(٢) : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ...) الآية . (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ...)^(٣) الأربع الآيات . (فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ ...)^(٤) الآية ، فهي مدنية - كذا قيل . وتقدم في طليعة سورة الجاثية تحقيق ذلك . وآيها خمس وثلاثون .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١٧] .

(٢) [٤٦ / الأحقاف / ١٠] .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ١٥] .

(٤) [٤٦ / الأحقاف / ٣٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (حم)

[٢] (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

[٣] (مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ،

وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ)

« حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ » أى : الحكمة وإقامة العدل فى الخلق . « وَأَجَلٍ مُّسَمًّى »

أى : وبالتقدير أجل معين لكل منها ، يفنيه إذا هو بلغه ، وهو يوم القيامة . « وَالَّذِينَ

كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا » أى : من هول ذلك اليوم « مُّعْرِضُونَ » أى : لا يؤمنون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ

أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ، أُنْثَوْنِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَوْثَرَةٍ

مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى : من الأوثان التى تعبدونها . « أَرُونِي

مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ » أى أرونى ما تأثير ما تعبدونه

فى شىء أرضى بالاستقلال ، أو شىء سماوى بالشركة ، حتى تستحق العبادة . « أُنْثَوْنِي

بكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا » تبكىت لهم بتمجيزهم عن الإتيان بسند نقلى ، بمد تبكىتهم بالتمجيز

عن الإتيان بسند عقليّ . أي : اثبتوني بكتاب إلهيّ من قبل هذا القرآن الناطق بالتوحيد ، وإبطال الشرك ، دالّ على صحة دينكم . « أَوْ أَذْرَعةً مِّنْ عِلْمٍ » أي : أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين ، شاهدة باستحقاقهم للعبادة . « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أي : في دعواكم ، فإنها لا تكاد تصح ، ما لم يقم عليها برهان عقليّ ، أو سلطان نقليّ . وحيث لم يقم عليها شيء منهما ، وقد قامت على خلافها أدلة العقل والنقل ، تبين بطلانها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ)

« وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ » أي : دعاءه لعجزه عنها « إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ » أي : لأنهم إما جمادات ، وإما مسخرون مشغولون بأحوالهم . و (الغفلة) مجاز عن عدم الفائدة فيها . أو هو تغليب لمن يتصور منه الغفلة على غيره .

لطيفة :

قال الناصر : في قوله (إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) نكتة حسنة . وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة . ومن شأن الغاية انتهاء المعيا عندها ، لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية ، لأنهم في القيامة أيضا لا يستجيبون لهم . فالوجه - والله أعلم - أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها ، وإن وافق ما قبلها ، إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثاني ، حتى كأن الحالتين ، وإن كانتا نوعاً واحداً لتفاوت ما بينهما ، كالشيء وضده . وذلك أن الحالة الأولى التي جعلت غايتها القيامة ، لا تريد على عدم الاستجابة . والحالة الثانية التي في القيامة ، زادت على عدم الاستجابة بالعداوة بالسكفر بعبادتهم إياهم . فهو من وادى ما تقدم آنفاً

في سورة الزخرف في قوله^(١) (بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءَ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ) انتهى .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِذَا حُسِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ)

« وَإِذَا حُسِرَ النَّاسُ » أى : جمعوا يوم القيامة لموقف الحساب « كَانُوا » أى : آلهتهم
« لَهُمْ أَعْدَاءُ » أى : لتبئرتهم منهم . قال الشهاب : أعداء استعارة ، أو مجاز مرسل للضار .
« وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » قال ابن جرير^(٢) : أى وكانت آلهتهم التى يعبدونها فى الدنيا ،
بعبادتهم جاحدين ، لأنهم يقولون يوم القيامة : ما أمرناهم بعبادتنا ، ولا شعرنا بعبادتهم إيانا ،
تبرأنا إليك منهم ، ياربنا ! أى : فالتكذيب بلسان المقال ، قصداً إلى بيان أن معبودهم فى
الحقيقة الشياطين وأهواؤهم .

وقال القاشانى : كانوا أعداء ، لأن عبادة أهل الدنيا لسادتهم وخدمتهم إياهم ،
لا تكون إلا لغرض نفسانى . وكذا استعباد الموالى لخدمتهم . فإذا ارتفعت الأغراض ،
وزالت العلل والأسباب ، كانوا لهم أعداء ، وأنكروا عبادتهم . يقولون : ما خدمتمونا ،
ولكن خدمتم أنفسكم . كما قيل فى تفسير قوله^(٣) (الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ) . انتهى .

وقيل : الضمير فى (كَانُوا) فى الموضعين ، للعابدين ، لئلا يلزم التفكيك . وفيه نظر :
لأنه خلاف المتبادر من السياق ، إذ هو لبيان حال الآلهة معهم ، لا عكسه ، ولأن كفرهم

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٩ و ٣٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

حينئذ إنكار لعبادتهم . وتسميته كفرًا ، خلاف الظاهر أيضاً . وقد أوضح ذلك آية^(١)
(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ
وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِدًّا) . والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ
هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)

«وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ
مُبِينٌ» أى : بادھوه بالجحود أول ما سمعوه ، من غير إجابة فكر ، ولا إعمال روية . واللام
في (لِلْحَقِّ) لام الأجل ، متعلقة بـ (قَالَ) . وقيل : بمعنى الباء ، متعلقة بـ (كَفَرُوا) ،
وعدى الكفر باللام ، حملاً على نقيضه ، وهو الإيمان ، فإنه يمدى بها نحو^(٢) (أَنْتُمْ مِنْ لَكَ)
القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، هُوَ أَعْلَمُ
بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا يَبْنِي وَيَنْكُرُ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)
«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» أى : لا تقدر
أن تدفعوا عني سوءاً ، إن أصابني به . و (أم) - على ما قالوا - منقطعة مقدرة بـ (بل) الإضرابية
وهمة الاستفهام ، المتجاوز به عن الإنكار والتعجب . ووجه كون الافتراء أشنع من السحر ،
حتى أضرب عنه ، أن الكذب خصوصاً على الله متفق على قبحه ، حتى ترى كل أحد يشمئز
من نسبته إليه بخلاف السحر ، فإنه ، وإن قبح ، فليس بهذه المرتبة ، حتى تكاد تعد
معرفة من السمات المرغوبة .

(١) [١٩ / مريم / ٨١ و ٨٢] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١١١] .

وقال الناصر : هذا الإضراب في بابه مثل الغاية التي قدمتها آتقاً في بابها ، فإنه انتقال إلى موافق ، لكنه أزيد من الأول ، فنزل لزيادته عليه ، مع ما تقدمه مما ينقص عنه ، منزلة المتنافيين ، كالنفي والإثبات اللذين يضرب عن أحدهما للآخر . وذلك أن نسبتهم للآيات إلى أنها مفتريات ، أشد وأبعد من نسبتها إلى أنها سحر . فأضرب عن ذلك الأول إلى ذكر ما هو أغرب منه . انتهى .

« هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ » أى : تخوضون في حقه من أنه سحر أو إفك « كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » أى : يشهدلى بالصدق بما يؤيدنى به من آياته وصدق مواعيده « وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » أى : لمن راجع منكم الكفر وتاب وآمن .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ، إِنَّا أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ » أى : ما كنت أول رسل الله التى أرسلها إلى خلقه . قد كان من قبلى له رسل كثيرة أرسلت إلى أمم قبلكم ، فلم تستنكروا بعثتى ، وتستبعدون رسالتى ، كقوله ^(١) (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ) و (البدع) كالبديع ، بمعنى الجديد المبتدأ . قال ابن جرير ^(٢) : ومن البدع قول عدى بن زيد ^(٣) : فَلَا أَنَا بِدْعٍ مِّنْ حَوَادِثَ تَعْتَرَى رَجُلًا عَرَّتْ مِنْ بَعْدِ بُؤْسَى وَأَسْعُدِ

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) هذا هو البيت السابع عشر من المزمرة ومطلعها :

أَتَعْرِفُ رَسْمَ الدَّارِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدٍ نَعَمْ . وَرَمَاكَ الشُّوقُ قَبْلَ التَّجَلُّدِ

تَعْتَرَى : أى تعلق . عرت : أى علقت . بؤسى جمع بؤس . أسعد جمع سعد .

ومن البديع قول الأحوص ^(١) :

فَخَرَّتْ فَأَنْتَمَتْ فَقُلْتُ : ذَرِينِي لَيْسَ جَهْلٌ أُتَيْتِهِ بِبَدِيعِ
« وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعْلُ بِي وَلَا بِكُمْ » قال أبو السعود : أى : أى شئ يصيبنا فيما يستقبل
من الزمان ، من أفعاله تعالى ، وماذا يقدر لنا من قضاياه . وعن الحسن رضى الله عنه : ما أدري
ما يصير إليه أمرى ، وأمركم فى الدنيا . وقيل : يجوز أن يكون المنفى هو الدراية المفصلة .
والأظهر أن (ما) عبارة عما ليس علمه من وظائف النبوة من الحوادث والواقعات الدنيوية ،
دون ما سيقع فى الآخرة ، فإن العلم بذلك من وظائف النبوة ، وقد ورد به الوحي المناطق
بتفاصيل ما يفعل بالجانبين . انتهى .

وهذا الأظهر يقرب من قول الحسن . وهو ماعول عليه ابن جرير . قال ابن كثير : بل
لا يجوز غيره . كيف ؟ وهو عليه السلام جازم بأنه صائر إلى الجنة ، هو ومن اتبعه بإحسان . وأما فى
الدنيا ، فلم يدرك ما كان يؤول إليه أمره ، وأمر مشركى قريش ، أيؤمنون ، أم يكفرون فيعذبون
فيستأصلون بكفرهم . فأما الحديث الذى رواه الإمام ^(٢) أحمد عن أم الملاء ، وكانت بايعت

(١) كان الأحوص يوما عند سَكِينَةَ . فأذن مؤذن . فلما قال (أشهد أن لا إله إلا الله ،
أشهد أن محمداً رسول الله) نخرت سَكِينَةُ بما سمعت . فقال الأحوص :

نَخَرْتُ فَأَنْتَمْتُ

فَأَنَا ابْنُ الَّذِي حَمَتْ لَحْمَهُ الدَّبَّ رُ ، قَتِيلَ اللَّحْيَانِ يَوْمَ الرَّجِيعِ

غَسَلَتْ خَالِي الْمَلَائِكَةِ الْأَبْرَ رَارَ مِيتَا طُوبَى لَهُ مِنْ صَرِيعِ

قال أبو زيد : وقد ، لعمرى نخر بفخر ، لو على غير سَكِينَةَ ، نخر به ! وبأبي سَكِينَةَ عليه السلام ،
حمت أباه الدَّبَّ ، وغسلت خاله الملائكة .

(الأغاني ج ٤ ص ٢٣٤ ، طبعة الدار) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٣٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

النبي ﷺ ، قالت : (طار لنا في السكنى ، حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين ، عثمان ابن مظعون رضى الله عنه ، فاشتكى عثمان عندنا ، فرضنا . حتى إذا توفى أدرجناه في أتوابه ، فدخل علينا رسول الله ﷺ . فقلت : رحمة الله عليك ، أبا السائب ! شهادتى عليك لقد أكرمك الله عز وجل . فقال رسول الله ﷺ : أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإنى لأرجو له الخير . والله ! ما أدرى - وأنا رسول الله - ما يفعل بى ! قالت : فقلت : والله ! لأزكى أحداً بعده أبداً وأحزنى ذلك . فتمت ، فرأيت لعثمان رضى الله عنه عيماً تجرى ، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله ﷺ : ذاك عمله) فقد انفرد بإخراجه البخارى^(١) دون مسلم ، وفى لفظه : ما أدرى - وأنا رسول الله ﷺ - ما يفعل به . وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ ، بدليل قولها : فأحزنى ذلك . وفى هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة ، إلا الذى نص الشارع على تمييزهم ، كالعشرة وابن سلام والعميصاء وبلال وسرافقة وعبد الله بن عمرو بن حرام (والدجابر) والقراء السبعين الذين قتلوا بئر معونة وزيد بن حارثة وجعفر وابن رواحة ، وما أشبه هؤلاء رضى الله عنهم . انتهى كلام ابن كثير .

وقال المهايى : (وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ) أى : فيما لم يوح إلى . والوحى يبعث الأمور لا يستلزم العلم بالباقي . ولم يكن لى أن أضم إلى الوحى كذباً من عندى . « إِنْ أُتْبِعْ » أى : فى تقرير الأمور الغيبية « إِلَّا مَا يُوحَى إِلَىَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى : منذر عقاب الله على كفركم به ، أبان لكم إنذاره وأبان لكم دعاءه إلى ما فيه صلاحكم وسعادتكم . القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَّا مَنْ أَسْتَكْبَرْتُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(١) أخرجه فى : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٣ - باب الدخول على الميت بعد الموت إذا درج

فى كفنه ، حديث رقم ٦٦٦ .

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » أى : القرآن منزلاً من لدنه ، على . لا سحراً ولا مفترى كما تزعمون « وَكَفَرْتُمْ بِهِ » وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ « أى : من الواقفين على أسرار الوحي بما أوتوا من التوراة « عَلَىٰ مِثْلِهِ » أى مثل القرآن ، وهو ما فى التوراة من الأحكام المصدقة للقرآن من الإيمان بالله وحده ، وهو ما يتبعه ، كقوله تعالى ^(١) (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) وقوله ^(٢) (إِنْ هَذَا إِلَّا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ * صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ) أو على مثل ما ذكر من كونه من عند الله تعالى . أو على مثل شهادة القرآن ، فجعل شهادته على أنه من عند الله ، شهادة على مثل شهادة القرآن ، لأنه بإعجازه كأنه يشهد لنفسه بأنه من عند الله ، أو (المثل) صلة و (الفاء) فى قوله تعالى « فَتَأْمَنَ » للدلالة على أنه سارع إلى الإيمان بالقرآن ، لما علم أنه من جنس الوحي الناطق بالحق « وَأَسْتَكْبَرْتُمْ » أى : عن الإيمان به بعد هذه الشهادة .

وقوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » استئناف مشعر بأن كفرهم ، لضلالتهم المسبب عن ظلمهم . ودليل على الجواب المحذوف . مثل : (ألسم ظالمين) أو (فمن أضل منهم) وذلك عدم الهداية مما ينبىء عن الضلال قطعاً ، فيكون كقوله فى الآية الأخرى ^(٣) (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) . قال أبو السعود : ووصفهم بالظلم للإشعار بعملة الحكم ، فإن تركه تعالى لهدايتهم ، لظلمهم .

تنبيه :

روى أن الشاهد هو عبد الله بن سلام ، فتكون الآية مدنية مستثناة من السورة ، كما ذكره الكواشى ، لأن إسلامه كان بالمدينة . وأجيب : بأن لا حاجة للاستثناء ، وأن الآية من باب الإخبار قبل الوقوع ، كقوله ^(٤) (وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ) . ويرشحه أن (شَهِدَ) معطوف على الشرط الذى يصير به الماضى مستقبلاً ، فلا ضير فى شهادة الشاهد

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٩٦] . (٢) [٨٧ / الأعلى / ١٨ و ١٩] .

(٣) [٤١ / فصلت / ٥٢] . (٤) [٧ / الأعراف / ٤٨] .

بعد نزولها ، ويكون تفسيره به بياناً للواقع ، لا على أنه مراد بخصوصه منها. هذا ما حققوه .
ويقرب مما نذكره كثيراً من المراد من سبب النزول في مثل هذا، وأنه استشهاد على ما يتناوله
اللفظ الكريم .

ثم أشار إلى حكاية نوع من أباطيلهم في التنزيل والمؤمنين به ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ،
وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسِيْقُولُونَ هَذَا إِفْكَ قَدِيمٌ)

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ » أى : الإيمان، أو ما أتى به الرسول
« خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ » أى : لو كان من عند الله لكنا أولى به، كسائر الخيرات من المال والجاه .
قال ابن كثير: يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً رضى الله عنهم، وأشباههم وأضرابهم
من المستضعفين والعبيد والإماء . وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله
وجاهة ، وله بهم عناية . وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً ، وأخطأوا خطأً بيناً ، كما قال
تعالى ^(١) (وَكَذَلِكَ أَفْتَنَّا بَمَضِيَّتِهِمْ بِمِغْصِ لَيْقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا)
أى : يتمتعون كيف اهتدى هؤلاء دوننا، ولهذا قالوا ^(٢) (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ)
وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رضى الله عنهم :
هو بدعة . لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه ، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد
بادروا إليها. انتهى. «وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ» أى : بالقرآن «فَمَسِيْقُولُونَ هَذَا إِفْكَ قَدِيمٌ»
أى : كذب قديم، كما قالوا (أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ) . قال ابن كثير: فيتنقصون القرآن وأهله،
وهذا هو الكبر الذى قال ^(٣) رسول الله ﷺ : بطر الحق وغمط الناس .

(١) [٦ / الأنعام / ٥٣] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ١١] .

(٣) أخرجه الترمذى في : ٢٥ - كتاب البر والصلة ، ٦١ - باب ماجاء في الكبر =

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ، وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنَذَرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ)

«وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً» أى : قدوة يؤتم به فى دين الله وشرائعه ، ورحمة لمن آمن به ، وعمل بما فيه . «وَهَذَا» أى الذى يقولون فيه ما يقولون «كِتَابٌ مُصَدِّقٌ» أى : لكتاب موسى من غير تعلم من أنزل عليه إياه «لِسَانًا عَرَبِيًّا» أى : بيّناً واضحاً . وفى تقييد الكتاب بذلك ، مع أن عربيته أمر معلوم الدلالة ، على أن تصديقه لها باتحاد معناه معها ، وهى غير عربية . ومثله لا يكون ممن يعرف ذلك اللسان بغير وحى من الله تعالى . «لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ» .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[١٤] (أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ» أى : لا غيره . «ثُمَّ اسْتَقَمُوا» أى : على العمل الصالح . قال القاضى : أى جمعوا بين التوحيد الذى هو خلاصة العلم ، والاستقامة فى الأمور ، التى هى منتهى العمل . و (ثُمَّ) للدلالة على تأخير رتبة العمل ، وتوقف اعتباره على التوحيد «فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» أى : من هول يوم القيامة «وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» أى : لا يحزنهم الفزع الأكبر . «أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» .

= ونصه : عن عبد الله ، عن النبى ﷺ قال : لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر . ولا يدخل النار (يعنى من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان) .

قال ، فقال له رجل : إنه يعجبني أن يكون ثوبى حسناً ونعلى حسنة .

قال : إن الله يحب الجمال . ولكن الكبر من بَطَرِ الحقِّ وغمَصِ الناس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا » وقرئ (حُسْنًا) وهذا تمهيد لمن عقهما وعصاهما في الإيمان المذكور ، في قوله ^(١) تعالى (وَالَّذِي قَالَ لِيُوالِدَيْهِ ...) الآية .
 « حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا » أى : ذات كُرْه ، أو حملاً ذا كُرْهٍ ، وهو المشقة . « وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ » أى : حملة جنيناً في بطنها ، وفطامه من الرضاع « ثَلَاثُونَ شَهْرًا » أى : تمضى عليها بمعاينة المشاق ، ومقاساة الشدائد لأجله ، مما يوجب للأمم مزيد العناية ، وأكيد الرعاية . لا يقال : بقى ثلاثة أشهر ، لأن أمد الرضاع حولان ، لأننا نقول : إن الحولين أمدٌ من أراد تمام الأجل ، وإلا فأصله أقل منهما ، كما ينبىء عنه قوله ^(٢) تعالى (حَوْلَيْنِ كَمَا مَلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) ولئن سلم أنهما أمدها ، فيكون في الآية اكتفاء بالعقود ، وحذف الكسور ، جرياً على عرفهم في ذلك ، كما ذكره في حديث أنس في وفاته عليه السلام على رأس ستين سنة ، مع أن الصحيح أنه توفي عن ثلاث وستين ، كما بين في شرح الشمايل . قالوا : إن الراوى للأولى اقتصر فيها على العقود وترك الكسور ، وسرّ ذلك هو القصد إلى ذكر المهمل ، وما يكتفى به فيما سيق له الكلام ، لا ضبط الحساب ، وتدقيق الأعداد .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١٧] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٣] .

قال ابن كثير : وقد استدل على رضى الله عنه بهذه الآية مع التى فى لقمان^(١) (وَفِصْلُهُ وَفِي عَامَيْنِ) وقوله تبارك وتعالى^(٢) (وَالْوَلَدَاتُ بُرُضُنَّ أَوْ لَدَهْنٌ حَوْلَيْنِ كَأَمْلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قوى صحيح ، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم .

«حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ» أى : استحكم قوته وعقله «وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي» أى : ألهمنى «أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي» أى : بالهداية للتوحيد ، والعمل بطاعتك ، وغير ذلك . «وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي» أى : واجعل الصلاح سارياً فى ذريتي ، راسخاً فيهم «إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ» أى : من ذنوبى التى سلفت منى «وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» أى : المستسلمين لأمرك ونهيك ، المنقادين لحكمك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ، وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ)

«أُولَٰئِكَ» أى الموصوفون بالتوبة والاستقامة «الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا» أى : من الصالحات فنجازيهم عليها «وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ» أى : فلا نعاقبهم عليها لتوبتهم «فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ» أى : معدودين فى زميرهم ثواباً ومقاماً . قال الشهاب : والظاهر أنه من قبيل^(٣) (وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) ليدل على المبالغة بعلو منزلتهم فيها ، إذ قولك (فلان من العلماء) أبلغ من قولك (عالم) . ولم يبينوه ههنا ، ومن لم يتنبه لهذا قال (فِي) بمعنى (مع) . انتهى .

(١) [٣١ / لقمان / لقمان / ١٤] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٣] .

(٣) [١٢ / يوسف / ٢٠] .

« وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ » أى : وعدهم تعالى هذا الوعد ، وعد الحق في الدنيا ، وهو موفيه لهم في الآخرة ، كما قال ^(١) (وَمَا أَلْتَمَسْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) . ثم بين تعالى نعت من عصى ما وصى به من الإحسان لوالديه ، من كل ولد عاق كافر ، وما له في ماله ، بقوله سبحانه :

القول في تاويل قوله تعالى :

[١٧] (وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أُفٍّ لَكُمْ أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفْغِيَانِ اللَّهَ وَيُنَافِقُ إِيَّائِي إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

« وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ » أى حين دَعَوَاهُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالِاسْتِقَامَةِ « أُفٍّ لَكُمْ » أى : من هذه الدعوة « أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ » أى : أبعث من قبري بعد فناءى « وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي » أى : هلكت ولم يرجع أحد منهم « وَهُمَا يَسْتَفْغِيَانِ اللَّهَ » أى : يطلبان الغياث بالله منه . والمراد إنكار قوله ، واستمظامه ، كأنهما لجأ إلى الله في دفعه ، كما يقال (العياذ بالله) ! أو المعنى : يطلبان أن يغفر الله بالتوفيق ، حتى يرجع عما هو عليه « وَيُنَافِقُ إِيَّائِي » أى : صدق بوعد الله ، وأقر أنك مبعوث بعد موتك . و (وَيُنَافِقُ) فى الأصل معناه الدعاء بالهلاك ، فأقيم مقام الحث على فعل أو ترك ، للإيماء إلى أن مرتكبه حقيق بأن يطلب له الهلاك ، فإذا سمع ذلك ترك ما هو فيه ، وأخذ ما ينجمه « إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أى : إن وعده تعالى خلقه ، بأنه يبعثهم من قبورهم إلى موقف الحساب ، لمجازاتهم بأعمالهم ، حق لا شك فيه « فَيَقُولُ » أى : مجيباً لوالديه ، وراداً عليهما نصيحتهما ، وتكذيباً بوعد الله « مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أى : أباطيلهم التي كتبوها .

(١) [٥٢ / الطور / ٢١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنسِ، إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » أى : الإلهى ، وهو العذاب « فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنسِ » أى : الذين كذبوا رسل الله ، وعتوا عن أمره « إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ » أى : يبيهم الهدى بالضلال ، والباقي بالفانى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ عَمَلًا ، وَلِيُؤْفِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَلِكُلِّ » أى من الفريقين « دَرَجَةٍ عَمَلًا » أى : مراتب من جزاء ما عملوا من صالح وسيء « وَلِيُؤْفِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ » أى جزاءها « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى بنقص ثواب ، ولا زيادة عقاب .

تنبيه :

روى ابن جرير عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في ابنِ لأبي بكر الصديق . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّى قال : نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر ، قال لأبويه - وهما أبو بكر وأم رومان ، وكانا قد أسلما وأبى هو أن يسلم ، فكانا يأمرانه بالإسلام ، فكان يرد عليهما ويكذبهما ويقول : فأين فلان ، وأين فلان ؟ يعنى مشايخ قريش ممن قد مات . فأسلم بعد ، فحسن إسلامه - فنزلت توبته في هذه الآية (وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ عَمَلًا) .

قال الحافظ ابن حجر : لكن نفي عائشة أن تكون نزلت في عبد الرحمن وآل بيته ، أصح إسناداً وأولى بالقبول . وذلك ما رواه البخارى^(١) والإسماعيل والنسائى وأبو يعلى ؛ أن مروان

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤٦ - سورة الأحقاف ، ١ - باب والذى

قال لوالديه ، حديث رقم ٢٠٤٣ ، عن عائشة .

كان عاملاً على المدينة ، فأراد معاوية أن يستخلف يزيد ، فسكتب إلى مروان بذلك ، فجمع مروان الناس فخطبهم ، فذكر يزيد ، ودعا إلى بيعته وقال : إن الله أرى أمير المؤمنين في يزيد رايًا حسنًا ، وإن يستخلفه ، فقد استخلف أبو بكر وعمر . فقال عبد الرحمن : ما هي إلهارقلية ! فقال مروان : سنة أبي بكر وعمر . فقال عبد الرحمن : هرقلية ! إن أبا بكر ، والله ! ما جعلها في أحد من ولده ، ولا في أهل بيته ، وما جعلها معاوية إلا كرامة لولده ! فقال مروان : خذوه . فدخل بيت عائشة ، فلم يقدروا عليه . فقال مروان : إن هذا الذي أنزل الله فيه (وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا إِلَهُي أَفَ لَكُمَا أَتَعِدَا نَبِيَّ) فقالت عائشة من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذري . ولو شئت أن أسمى من نزلت فيه لسميته ، ولكن رسول الله لعن أبا مروان ، ومروان في صلبه .

ومما يؤيده أن (الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) هم المخلدون في النار في علم الله تعالى ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم . وحاول بعضهم عدم التنافي بأن يقع منه ذلك قبل إسلامه ، ثم يسلم بمد ذلك . ومعلوم أن الإسلام يجب ما قبله ، وأن معنى الوعيد في الآية إنما هو للمصرين عليه الذين لم يقاموا ، لكثرة ما ورد في العفو عن التائبين . وقد نزل من الوعيد الشديد في أول البعثة آيات لا تحصى ، وكلها تنعى على من كان مشركاً آنثذ ، ولم يقل أحد بشمولها لهم بعد إيمانهم ، أو أن فيها ما يحط من أقدارهم ، ويجعلها مغمراً لهم ، إلا أن مروان لم يجد لمقاومة ما ألقمه إلا الشغب ، وشغل الناس عن باطله بنغمة يطرب لها الجهلة ، وقاله يلو كها الراع ، وهم الذين يههم أمرهم . ويرحم الله عبد الرحمن ! فقد شفى الغلة ، وصدع بالحق ، في حين أن لاظهر له ولا نصير - والله أعلم - .

قال ابن قتيبة في (المعارف) : أربعة رأوا رسول الله ﷺ في نسق : أبو قحافة ، وابنه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر ، وابنه محمد بن عبد الرحمن . وقال أيضاً : قيل : كان عبد الرحمن من أفضل قريش ، ويكنى أبا محمد ، وله عقب بالمدينة ،

وليسوا بالكثير ، مات فجأة سنة ثلاث وخمسين بجبلٍ يقرب من مكة ، فأدخلته عائشة الحرم ودفنته وأعتقت عنه . انتهى .

وفي دمشق في مقبرة باب الفراديس ، المسماة بالدحداح ، مزار يقال إنه عبد الرحمن بن أبي بكر ، نسب إليه زوراً . وما أكثر المزورات في المزارات ، كما يعلمه من دقق في الوقفيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ)

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ » أى يقال لهم أذهبتم « طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » عطف تفسير لقوله (أَذْهَبْتُمْ) أى فاقبض لكم من اللذائذ شئ ، لاستيفائكم إياها « فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ » أى الهوان « بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » أى بغير ما أباح لكم وأذن « وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ » أى عن طاعته ، فأبعدكم عن كرامته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ » يعنى هوداً « إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ » جمع حقف ، وهو الرمل المستطيل المرتفع . قال قتادة : ذكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن ، أهل رمل ، مشرفين على البحر . « وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ » أى : وقد مضت الرسل بإنذار أممها قبله وبعده ، متفقين على « أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » أى لا تشركوا مع الله شيئاً

في عبادتكم إياه . وقال كل واحد منهم عليه السلام « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى من عبادة غير الله « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » أى بمقدار هتكهم ، عذاب الله بالشرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ إِلَهِتِنَا فَأَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ)

[٢٣] (قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبْلِغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

« قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ » أى لتصرفنا « عَنْ إِلَهِتِنَا فَأَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا » أى من العذاب على عبادتنا إياها « إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ » أى فى وعدك أنه آت لا محالة . « قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ » أى إنى وإن علمت إتيانه قطعاً ، فلا أعلم وقت مجيئه ، لأن العلم بوقته عنده تعالى ، فيأتيكم فى وقته الذى قدره له « وَأُبْلِغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ » وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ » . قال الطبرى^(١) : أى مواضع حظوظ أنفسكم ، فلا تعرفون ما عليها من المضرّة بعبادتكم غير الله ، وفى استعجال عذابه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ،

بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ، رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢٥] (تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ،

كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)

« فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ » أى فلما جاءهم عذاب الله الذى استعجلوه ،

(١) انظر الصفحة رقم ٢٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

فأوه عارضاً في ناحية من نواحي السماء، متجهاً نحو مزارعهم « قَالُوا هَذَا عَارِضٌ » أى سحاب عارض « مُمِطِرٌ نَا » أى بغيث نحيا به « بَلْ هُوَ » أى قال هود بل هو « مَا أَسْتَعْجِلْتُمْ بِهِ » أى من العذاب « رِيحٌ » أى هى ريح . أو بدل من (ما) ، « فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَذِمرٌ » أى تهلك « كُلُّ شَيْءٍ » أى من أموالهم وأنفسهم « بِأَمْرِ رَبِّهَا » أى إذنه الذى لا يعارض، فلم تدفع عنهم آلهتهم ، بل دمرتهم « فَأَصْبَحُوا لَا يَرُونَ إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ » أى بيوتهم . ثم أشار إلى أن هذا لا يقتصر على عاد ، بل ينتظر لمن كان على شا كلتهم من أهل مكة وغيرها ، بقوله « كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ » أى الكافرين إذا تمادوا في غيهم ، وطفوا على ربهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَقَدْ مَكَنَّا لَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) (وَلَقَدْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ) أى مكنا عاداً ، وآتيناهم من كثرة الأموال ، وقوة الأجسام ، فيما لم نمكفكم فيه من الدنيا . على أن (إِنْ) نافية ، أثرت على (ما) لثلاث توجب شبه التكرير الثقيل . وقيل (إِنْ) شرطية محذوفة الجواب . والتقدير : ولقد مكناهم فى الذى ، أو فى شىء ، إِنْ مكناكم فيه كان بغيكم أكثر . وقيل : هى صلة كما فى قوله ^(١) .

يَرْجَى الْمَرْءُ مَا إِنْ لَا يَرَاهُ وَيَعْرِضُ دُونَ أَذْنَاهُ الْخَطُوبُ

(١) البيت من شواهد الكشف ، قاله إياس بن الأرت . وقوله .

= فَإِنْ أُمْسِكَ فَإِنَّ الْعَيْشَ حُلُوٌّ إِلَى كَأَنَّهُ عَسَلٌ مَشُوبٌ

قال الزمخشري : والوجه هو الأول. ولقد جاء عليه في غير آية في القرآن ^(١) (هُمُ أَحْسَنُ
أَثَمًا وَرِيًّا) ^(٢) (كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا) وهو أبلغ في التوبيخ ،
وأدخل في الحث على الاعتبار .

قال الناصر : واختص بهذه الطائفة قوله تعالى ^(٣) (وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ
يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) وقوله ^(٤) (مَكَتَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ
نُمَكِّنْ لَكُمْ) أي : والأصل توافق المعاني في الآي الواردة في نبأ واحد، على مافيه أيضاً من
سلامة الحذف والزيادة .

« وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً » قال الطبري ^(٥) : أي جعلنا لهم سمعاً يسمعون
به مواعظ ربهم ، وأبصاراً يبصرون بها حجج الله ، وأفئدة يعقلون بها ما يضرهم وينفعهم ،
« فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ » أي لأنهم لم يستعملوها
فيما خلقت له ، بل في خلافه « إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » أي من العذاب .

قال الطبري ^(٦) : وهذا وعيد من الله عز وجل ثنائوه ، لقريش . يقول لهم : فاحذروا أن

= وبعده :

وما يدرى الحريصُ علامَ يلقي شرَّ شرِّه ، أخطئ أم يصيبُ
ومعنى البيت : أن الإنسان تمتد أطعاه إلى الأمور المنجية التي لا يراها ، ويعترض الموت
عندها ، أو يعترض دون أقربها عنده حصولاً ، الأمور الشديدة التي تقطع رجاءه ، فما ظنك
بأبعد الأشياء ؟ ! .

(١) [١٩ / مريم / ٧٤] . (٢) [٤٠ / غافر / ٨٢] .

(٣) [٤١ / فصلت / ١٥] . (٤) [٦ / الأنعام / ٦] .

(٥) انظر الصفحة رقم ٢٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٦) انظر الصفحة رقم ٢٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

يحل بكم من العذاب على كفركم بالله ، وتكذيبكم رسله ، ماحلّ بعاد ، وبأدروا بالتوبة قبل النقمة .
لطيفة :

قال الشهاب : أفرد السمع في النظم ، وجمع غيره ، لاتحاد المدرك به ، وهو الأصوات ، وتعددت مدركات غيره ، ولأنه في الأصل مصدر ، وأيضاً مسموعهم من الرسل متحد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ » أى ما حول قريبتكم يا أهل مكة « مِّنَ الْقُرَىٰ » أى كحجر ثمود ، وأرض سدوم ومأرب ونحوها ، فأندرنا أهلها بالمثلات ، وخربنا ديارها ، فجعلناها خاوية على عروشها « وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ » أى وعظناهم بأنواع العظات ، وبيّنا لهم ضرورياً من الحجج « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى عن الكفر بالله ورسله . قال الطبري : وفى الكلام متروك ، ترك ذكره استغناء بدلالة الكلام عليه ، وهو : فأبوا إلا الإقامة على كفرهم ، والتماذى على غيرهم ، فأهلكناهم ، فلم ينصروهم منا ناصر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ، بَلَى ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً » أى : فهلا نصر هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم الخالية قبلهم ، أو ثأنهم التى اتخذوا عبادتها قرباناً يتقربون بها ، فيما زعموا ، إلى ربهم إذ جاءهم بأسنا ، فتمنقذهم من عذابنا ، إن كانت تشفع لهم عند ربهم ، كما قالوا^(١) (هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ) .

(١) [١٠ / يونس / ١٨] .

« بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ » أى غابوا عن نصرهم ، وامتنع أن يستمدوا بهم ، امتناع الاستمداد بالضالّ فى (ضلُّوا) استعارة بعمية « وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ » أى ضياع آلهتهم عنهم ، وامتناع نصرهم إثر إفكهم الذى هو اتخاذهم إياها آلهة . « وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ » أى وإثر افتراءهم فى أنها شفعاؤهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ)

[٣٠] (قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا

بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[٣١] (يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ

وَيُخْرِجَكُم مِّن عَذَابٍ أَلِيمٍ)

[٣٢] (وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن

دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ » أى أملناهم إليك ، وأقبلنا بهم نحوك

« يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا » أى ليتم التدبر والتفكير « فَلَمَّا قُضِيَ »

أى فرغ من قراءته ، كمل تأثرهم به ، فأرادوا التأثير به ، لذلك « وَلَّوْا » أى رجعوا « إِلَىٰ

قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ » أى عما هم فيه من الضلال . « قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ

مِّن بَعْدِ مُوسَىٰ » أى المتفق على تعظيم كتابه . أى وقد علمنا صدقه لكونه « مُصَدِّقًا لِّمَا

بَيْنَ يَدَيْهِ » أى من هذه الكتب كلها ، وقد فضل عليها إذ « يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ » أى

معرفة الحقائق « وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ » أى لا عوج فيه ، وهو الإسلام .

قال ابن كثير: أى يهـدى إلى الحق فى الاعتقاد والأخبار، وإلى طريق مستقيم فى الأعمال. فإن القرآن مشتمل على شيئين : خبر وطلب . نخبره صدق ، وطلبه عدل ، كما قال تعالى (١) «وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا» وقال تعالى (٢) «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ» فالهدى هو العلم النافع ، ودين الحق هو العمل الصالح . وهكذا قالت الجن : يهـدى إلى الحق فى الاعتقادات ، وإلى طريق مستقيم ، أى فى العمليات .

«يَقْوَمَنَّ أَحْيَاوُا دَاعِيَ اللَّهِ» أى رسول الله محمدًا إلى ما يدعوك إليه من طاعة الله، «وَمَنَّا بِغَفْرِ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيَجْزِيكُم مِّن عَذَابِ أَلِيمٍ * وَمَن لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ» أى بمعجزه ربه، بهربه إذا أراد تعالى عقوبته، لأنه فى قبضته وسلطانه، أتى اتجه . «وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ» أى نصراء ينصرونه من الله إذا عاقبه . «أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» أى أخذ على غير استقامة .

تنبيهات :

الأول - روى الإمام مسلم (٣) عن علقمة قال : سألت ابن مسعود رضى الله عنه : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكننا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه ، فالتمسناه فى الأودية والشعاب ، فقليل : استطير ، اغتيل ! قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء . قال : فقلنا : يا رسول الله ! فقدناك فطميناك فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فقال : أتانى داعى الجن ، فذهبت معهم ، فقرأت عليهم القرآن . قال ، فانطلق بنا ، فأرانا آثارهم .

وروى الإمام أحمد (٤) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان الجن يستمعون الوحى ،

(١) [٦ / الأنعام / ١١٥] . (٢) [٩ / التوبة / ٣٣] .

(٣) أخرجه فى : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٥٠ (طبعنا) .

(٤) أخرجه بالصفحة رقم ٢٧٤ فى الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٤٨٢ (طبعة المعارف) .

فيسمعون الكلمة ، فيزيدون فيها عشرًا . فيكون ما سمعوا حقًا ، وما زادوا باطلاً . وكانت النجوم لا يرى بها قبل ذلك . فلما بُعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رُمى بشهاب يحرق ما أصاب ، فشكوا ذلك إلى إبليس ، فقال : ما هذا إلا من أمر قد حدث . فبث جنوده ، فإذا بالنبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة ، فأتوه فأخبروه ، فقال : هذا الحدث الذي حدث في الأرض . ورواه الترمذی^(١) والنسائي في كتابي التفسير من سننهما . وهكذا قال الحسن البصري : إنه ﷺ ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بنجرهم . وذكر محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قصة خروج النبي ﷺ إلى الطائف ، ودعائه إياهم إلى الله عز وجل ، وإبائهم عليه ، فذكر القصة بطولها ، ثم قال : فلما انصرف عنهم ، بات بنخلة ، فقرأ تلك الليلة من القرآن ، فاستمعتة الجن من أهل نصيبين . قال ابن كثير : وهذا صحيح ، ولكن قوله (إن الجن كان استماعهم تلك الليلة) فيه نظر . فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء ، كما دلّ عليه حديث ابن عباس رضي الله عنهما المذكور . وخروجه ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه ، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين ، كما قرره ابن إسحاق وغيره .

وروى ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن يبطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا ، فأنزل الله عز وجل عليه^(٢) (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنَّةِ . . .) الآية . قال ابن كثير : فهذا مع الأول من رواية ابن عباس رضي الله عنهما ، يقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة ، وإنما استمعوا قراءته ، ثم رجعوا إلى قومهم ، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً : قومًا بعد قوم ، وفوجًا بعد فوج .

(١) أخرجه الترمذی في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٧٢ ، سورة الجن .

(٢) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] .

فأما ما رواه البخاريّ ومسلم^(١) جميعاً عن معن بن عبد الرحمن قال : سمعت أبي يقول : سألت مسروقاً : من آذن النبي ﷺ ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدثني أبوك - يعني ابن مسعود رضي الله عنه - أنه آذنته بهم شجرة ، فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى ، ويكون إثباتاً مقدماً على نفي ابن عباس رضي الله عنهما ، ويحتمل أن يكون في الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة ، أي أعلمته باجتماعهم ، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات والله أعلم .

قال الحافظ البيهقي : وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ ، وعلمت حاله ، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ، ولم يرمهم . ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن ، فقرأ ، عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله عز وجل - كما رواه ابن مسعود رضي الله عنه - .

ثم قال ابن كثير : وأما ابن مسعود رضي الله عنه ، فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ، ودعائه إياهم ، وإنما كان بعيداً منه ، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه ، ومع هذا ، لم يشهد حال المخاطبة . هذه طريقة البيهقي . وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم ، لم يكن معه ﷺ ابن مسعود ولا غيره ، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام مسلم . ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى - والله أعلم - كما روى ابن أبي حاتم في تفسيره (قل أوحى إلي) من حديث ابن جريج قال : قال عبد العزيز بن عمر : أما الجن الذين لقوه بنخلة فجنّ نينوى ، وأما الجن الذين لقوه بمكة ، فجنّ نصيبين . وتأول البيهقي قوله (فبتنا بشر ليلة) على غير ابن مسعود ، ممن لم يعلم بخروجه ﷺ إلى الجن ، وهو محتمل ، على بُعد

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار ، ٣٢ - باب ذكر الجن

وقول الله تعالى : قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ، الحديث رقم ١٨١٠ .

وأخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة حديث رقم ١٥٣ (طبعتنا) .

وبالجملة ، فقد روى ما يدل على تكرار ذلك . وقد روى عن ابن عباس غير ما روى عنه أولاً من وجه جيد عند ابن جرير^(١) في هذه الآية ، قال : كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم ، فهذا يدل على أنه قد روى القصتين . وذكر أبو حمزة الثمالي أن هذا الحى من الجن كانوا أكثر الجن عدداً ، وأشرفهم نسباً . وعن ابن مسعود أنهم كانوا تسعة . ويروى أنهم كانوا خمسة عشر ، وروى ستين ، وروى ثلاثمائة . وعن عكرمة أنهم كانوا اثني عشر ألفاً . قال ابن كثير : فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرر وفادتهم عليه ﷺ . ومما يدل على ذلك ما رواه البخاري^(٢) في صحيحه أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : ما سمعت عمر رضى الله عنه لشيء قط يقول : إني لأظنه هكذا ، إلا كان كما يظن . بينما عمر بن الخطاب جالس ، إذ مرّ به رجل جميل فقال : لقد أخطأ ظني ، أو إن هذا على دينه في الجاهلية ، أو لقد كان كاهنهم . على الرجل . فدعى له ، فقال له ذلك ، فقال : ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم . قال : فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتنى ! قال كنت كاهنهم في الجاهلية . قال : فما أعجب ما جاءتك به جنيتك ؟ قال : بينما أنا يوماً في السوق ، جاءتنى أعرف فيها الفرع ، فقالت : ألم تر الجن وإبلاسها ويأسها من بعد إنكاسها ، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها ؟ قال عمر : صدق ! بينما أنا نائم عند آلهتهم ، إذ جاء رجل بمجل فذبحه ، فصرخ به صارخ ، لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه ، يقول : يا جليح ! أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله . قال ، فوثب القوم . فقلت : لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا . ثم نادى : يا جليح ! أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله . ففقت ، فما نشبنا أن قيل : هذا نبى - هذا سياق البخاري - وقد رواه البيهقي من حديث ابن وهب بنحوه . ثم قال : وظاهر هذه الرواية يؤهم أن عمر رضى الله عنه بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل

(١) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه في ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار ، ٣٥ - باب إسلام عمر بن الخطاب

رضى الله عنه ، حديث ١٨١٣ .

الذى ذبح . وكذلك هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر رضى الله عنه . وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذى أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه - والله أعلم - .

وهذا الرجل هو سواد بن قارب . قال البيهقي : وسواد بن قارب يشبه أن يكون هو الكاهن الذى لم يذكر اسمه في الحديث الصحيح . ثم روى بسنده عن البراء قال : بينما عمر ابن الخطاب يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ إذ قال : أيها الناس ! أفيكم سواد بن قارب ؟ قال ، فلم يجبه أحد تلك السنة . فلما كانت السنة المقبلة قال : أيها الناس ! أفيكم سواد بن قارب ؟ قال ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! وما سواد بن قارب ؟ قال ، فقال له عمر : إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئاً عجيباً ! قال : فبينما نحن كذلك ، إذ طلع سواد بن قارب . قال ، فقال له عمر : يا سواد ! حدثنا ببدا إسلامك كيف كان . قال سواد : فإني كنت نازلاً بالهند ، وكان لى ربي من الجن . قال ، فبينما أنا ذات ليلة نائم إذا جاءني في منامى ذلك ، قال : قم فافهم ، واعقل إن كنت تعقل ! قد بعث رسول من لؤي بن غالب ، ثم أنشأ يقول :

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتَحَسَّاسِهَا وَشَدَّهَا الْعَيْسَ بِأَخْلَاسِهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْغَى الْهُدَى مَا خَيْرُ الْجِنِّ كَأَنْجَاسِهَا
فَانْهَضْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ وَاسْمُ بَعِينِيكَ إِلَى رَاسِهَا

قال : ثم أنبهني فأفزعني وقال : يا سواد بن قارب ! إن الله عز وجل بعث نبياً ، فانهض إليه تهتد وترشد . فلما كان من الليلة الثانية ، أتاني فأنبهني ، ثم أنشأ يقول :

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتَطَلَّابِهَا وَشَدَّهَا الْعَيْسَ بِأَقْتَابِهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْغَى الْهُدَى وَلَيْسَ قُدُمَاهَا كَأَذْنَابِهَا
فَانْهَضْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ وَاسْمُ بَعِينِيكَ إِلَى قَابِهَا

فلما كان في الليلة الثالثة ، أتاني فأنبهني ، ثم قال :

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتَخْبَارِهَا وَشَدَّهَا الْعَيْسَ بِأَكْوَارِهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْغَى الْهُدَى لَيْسَ ذُؤُ الشَّرِّ كَأَخْيَارِهَا
فَانْهَضْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ مَا مُؤْمِنُو الْجِنِّ كَكُفَّارِهَا

قال : فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة ، وقع في قلبي حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ما شاء الله . قال : فانطلقت إلى رحلي ، فشددته على راحلتي ، فما حلت نسعة ، ولا عقدت أخرى ، حتى أتيت رسول الله ﷺ ، فإذا هو بالمدينة - يعني مكة - والناس عليه كعرف الفرس ، فلما رآني النبي ﷺ قال : مرحباً بك ياسود بن قارب ، قد علمنا ما جاء بك . قال : قلت : يا رسول الله ! قد قلت شعراً ، فاسمعه مني ! قال صلى الله عليه وسلم : قل ياسود ، فقلت :

| | |
|---|---|
| أَتَانِي رَيْبِي بِعَدَلٍ لَيْلٍ وَهَجَمَةٍ | ولم يكُ فيما قد بلوتُ بكاذِبٍ |
| ثَلَاثَ لَيَالٍ ، قَوْلُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ : | أَتَاكَ رَسُولٌ مِنْ لُؤَيٍّ بَنٍ غَالِبٍ |
| فَشَمَرْتُ عَنْ سَاقِي الْإِزَارِ وَوَسَّطْتُ | بِالدَّغْلِبِ الْوَجَنَاءِ بَيْنَ السَّبَاسِبِ |
| فَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ | وَأَنَّكَ مُأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائِبٍ |
| وَأَنَّكَ أَذْنَى الْمُرْسَلِينَ وَسَيْلَةٌ | إِلَى اللَّهِ ، يَا ابْنَ الْأَكْرَمِينَ الْأَطْيَابِ |
| فَرْنَا بِمَا يَأْتِيكَ يَا خَيْرَ مُرْسَلٍ | وَإِنْ كَانَ فِيمَا جَاءَ شَيْبُ الدَّوَائِبِ |
| وَكَنْ لِي شَفِيعاً يَوْمَ لَأَذُو شَفَاعَةٍ | سَوَاكَ بِمُغْنٍ عَنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبٍ |

قال : فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه ، وقال لي : أفلحت ياسود ! فقال له عمر رضي الله عنه : هل يأتيك رتيك الآن ؟ فقال : منذ قرأت القرآن لم يأتي ، ونعم العوض كتاب الله عز وجل من الجن . ثم أسنده البيهقي من وجهين آخرين . انتهى ^(١) كلام ابن كثير . وقد ساقه الإمام الماوردي في (أعلام النبوة) مع نظائر له ، في الباب السادس عشر ، في هتوف الجن ، ثم قال : ولئن كانت هذه الهتوف أخباراً آحاد ، عن لا يرى شخصه ، ولا يحج قوله ، ونخروجه عن العادة نذير ، وتأثيره في النفوس بشير ، وقد قبلها السامعون . وقبول الأخبار يؤكد صحتها ، ويؤيد حجتها . فإن قيل : إن كانت هتوف الجن من دلائل النبوة ،

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٧ من الجزء الرابع (طبعة ١٩٣٧) .

جاز أن تكون دليلاً على صحة الكهانة ، فعنه جوابان :

أحدهما : أن دلائل النبوة غيرها ، وإنما هي من البشائر بها ، وفرق بين الدلالة والبشارة إخباراً .

والثاني : أن الكهانة عن مغيب ، والبشارة عن معين ، فالعيان معلوم ، والغائب موهوم . انتهى .

التنبيه الثاني :

قال الماوردي : في صرف الجن المذكور في قوله تعالى ^(١) (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ أَهْوَاءَ) وجهان :

أحدهما - أنهم صرفوا عن استراق سمع السماء ، برجوم الشهب ، ولم يصرفوا عنه بعد عيسى إلا بعد بعث رسول الله ﷺ فقالوا : ما هذا الحادث في السماء ، إلا لحادث في الأرض ، وتخيلوا به تجديد النبوة ، فجابوا الأرض ، حتى وقفوا على رسول الله ﷺ يبطن مكة عامداً إلى عكاظ ، وهو يصلي الفجر ، فاستمعوا القرآن ، ورأوه كيف يصلي ويقعدى به أصحابه ، فعلموا أنه لهذا الحادث ، صرفوا عن استراق السمع برجوم الشهب . وهذا قول ابن عباس رضي الله تعالى عنه .

أقول : وعليه فتكون (إلى) في (إليك) بمعنى لام التعليل . وذكر في (المغنى) أنها تأتي مرادفة للام ، نحو ^(٢) (والأمر إليك) . وفيه تكلف وبُعْدٌ ، لنبوة عما يقتضيه سياق بقية الآية .

ثم قال الماوردي : وحكي عكرمة أن السورة التي كان يقرؤها ^(٣) (أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) .

أقول : سيأتي مرفوعاً عن جابر أنها سورة الرحمن .

ثم قال الماوردي :

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] . (٢) [٢٧ / النمل / ٣٣] . (٣) [٩٦ / العلق / ١] .

والوجه الثاني - أنهم صرفوا عن بلادهم بالتوفيق ، هداية من الله تعالى ، حتى أتوا نبي الله بيطن نخلة ، فنزل عليه جبريل بهذه الآية ، وأخبره بوفود الجن ، وأمره بالخروج إليهم ، فخرج ومعه ابن مسعود ، حتى جاء الحجبون . قال ابن مسعود : نخط على خطأ وقال : لا تجاوزه .

فملى الوجه الأول ، لم يعلم بهم حتى أتوه . وعلى الوجه الثاني ، أعلمه جبريل قبل إتيانهم . واختلف أهل العلم في رؤيته لهم ، وقراءته عليهم . فحكى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لم يره ، ولم يقرأ عليهم ، وإنما سمعوا قراءته حين مروا به مصلياً . وحكى ابن مسعود أنه رآهم ، وقرأ عليهم القرآن . أقول : تقدم لابن كثير ما فيه كفاية - .



ثم قال الماوردي : وفي قوله ^(١) (فَلَمَّا خَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا) وجهان : أحدهما - فلما حضروا قراءته القرآن قالوا : أنصتوا لسماعه .

والوجه الثاني : فلما حضروا رسول الله ﷺ قالوا : أنصتوا لسماعه . انتهى .

قال ابن كثير : وهذا - أي قولهم أنصتوا - أدب منهم . وقد روى البيهقي عن جابر قال : قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ، ثم قال : مالي أراكم سكوتاً ؟ ألمجنُّ كانوا أحسن منكم ردا . ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة (فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمْ أَنْ تُكْذِبَ) إلا قالوا : ولا بشيء من آلائك أو نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد . ورواه الترمذي ^(٢) وقال : غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير .

الثالث - دل قوله تعالى ^(٣) (يَتَقَوَّمَنَّا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ) على أن رسول الله ﷺ كان عالم الرسالة إلى الإنس والجن .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥٥ - سورة الرحمن ، باب حدثنا عبد الرحمن

ابن واقد . (٣) [٤٦ / الأحقاف / ٣١] .

قال ابن كثير : لأنه دعا الجن إلى الله تعالى ، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب
الفريقين ، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم ، وهي سورة الرحمن ، ولهذا قال (أَجِيبُوا دَاعِيَ
اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ) .

قال الماوردي : لم يختلف أهل العلم أنه يجوز أن يبعث إليهم رسولاً من الإنس ، واختلفوا
في جواز بعثة رسول منهم ، فجوزده قوم لقول الله تعالى ^(١) (يَمْعُشِرَ الْجِنَّةَ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ
رُسُلٌ مِّنكُمْ) ومنع آخرون منه . وهذا قول من جعلهم من ولد إبليس ، وحملوا قوله (أَلَمْ
يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) على الذين لما سمعوا القرآن ، ولّوا إلى قومهم منذرين . انتهى .
أقول : ونظيره تسمية رسل عيسى عليه السلام رسلاً في آية ^(٢) (إِذْ أَرْسَلْنَا
إِلَيْهِمْ أَنْتَيْنِ) .

الرابع - استدلل بقوله (يَغْفِرُ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِرُّكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) من ذهب
من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة ، وإنما جزاء صالحهم أن يجاروا من عذاب النار
يوم القيامة . إذ لو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا ، لأوشك أن يذكروه .
قال الماوردي : فأما كفارهم فيدخلون النار ، وأما مؤمنوهم ، فقد اختلفوا في دخولهم
الجنة ثواباً على إيمانهم . فقال الضحاك : ومن جوز أن يكون رسلهم منهم ، يدخلون الجنة .
وحكى سفيان عن إيث أنهم يثابون على الإيمان بأن يجازوا على النار خلاصاً منها ، ثم يقال
لهم : كونوا تراباً كالباہائم . انتهى .

والحق - كما قال ابن كثير - أن مؤمنهم كقوم الإنس ، يدخلون الجنة ، كما هو مذهب
جماعة من السلف . وقد استدلل بعضهم لهذا بقوله عز وجل ^(٣) (لَمْ يَطْمِئْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ
وَلَا جَانٌّ) وفي هذا الاستدلال نظر ، وأحسن منه قوله جل وعلا ^(٤) (وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٠] . (٢) [٣٦ / يس / ١٤] .

(٣) [٥٥ / الرحمن / ٧٤ و ٥٦] . (٤) [٥٥ / ٤٦ و ٤٧] .

رَبِّهِ جَنَّاتٍ * فَبَائِيَ الْآلَاءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ (فقد امتنَّ تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة . وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الإنس ، فقالوا : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد . فلم يكن تعالى ليمتنَّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم . وأيضاً ، فإنه إذا كان يجازى كافرهم بالنار ، وهو مقام عدل ، فَلَاَن يجازى مؤمنهم بالجنة ، وهو مقام فضل ، بطريق الأولى والأخرى . ومما يدل أيضاً على عموم ذلك قوله تعالى (١) « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا » وما أشبه ذلك من الآيات . وما ذكروه ههنا من الجزاء على الإيمان ، من تكفير الذنوب ، والإجارة من العذاب الأليم ، هو يستلزم دخول الجنة ، لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار . فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة ، ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع ، أن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة ، وإن أجيروا من النار ، ولو صح لقلنا به ، والله أعلم . وهذا نوح عليه الصلاة والسلام يقول لقومه (٢) « يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » ولا خلاف أن مؤمنى قومه في الجنة ، فكذلك هؤلاء . وقد حكى فيهم أقوال غريبة . فمن عمر بن العزيز أنهم لا يدخلون بمبوحة الجنة ، وإنما يكونون في ربضها وحولها وفي أرجائها . ومن الناس من زعم أنهم في الجنة يراهم بنو آدم ، ولا يرون بنى آدم بعكس ما كانوا عليه في الدار الدنيا . ومن الناس من قال : لا يأكلون في الجنة ولا يشربون ، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس ، عوضاً عن الطعام والشراب ، كالملائكة ، لأنهم من جنسهم . وكل هذه الأقوال فيها نظر ، ولا دليل عليها . انتهى .

الخامس - قيل : مر التبويض في قوله (مِّنْ ذُنُوبِكُمْ) أن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان ، كذنوب المظالم ، أى : حقوق العباد . وفيه نظر ، لأن الحربى لو نهب الأموال المصونة ، وسفك الدماء المحقونة ، ثم حسن إسلامه ، جبَّ الإسلام عنه إثم ما تقدم ، بلا إشكال .

(١) [١٨ / الكهف / ١٠٧] . (٢) [٧١ / نوح / ٤] .

ويقال : إنه ما وعدُ المغفرة للكافر على تقدير الإيمان في كتاب الله تعالى إلا مبعضة ، والسرفيه أن مقام الكافر قبض لا بسط ، فلذلك لم يبسط رجؤه كما في حق المؤمن - أفاده الناصر - .
السادس - قال ابن كثير : جمعوا في دعواهم قومهم بين الترغيب والترهيب ، ولهذا نجح في كثير منهم ، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً ، كما تقدم بيانه .

السابع - قال الماوردي : الجن من العالم الناطق المميز ، يأكلون ويتناسلون ويموتون ، وأشخاصهم محجوبة عن الأبصار ، وإن تميزوا بأفعال وآثار ، إلا أن الله يخص برؤيتهم من يشاء . وإنما عرفهم الإنس من الكتب الإلهية ، وما تخيلوه من آثارهم الخفية . وقال القاشاني : الجن نفوس أرضية تجسدت في أبدان لطيفة مركبة من لطائف العناصر ، سماها حكاء الفرس (الصور المعلقة) . ولكونها أرضية متجسدة في أبدان عنصرية ، ومشاركتها الإنس في ذلك ، سميا (ثقلين) . وكما أمكن الناس التهدي بالقرآن أمكنهم . وحكاياتهم من المحققين وغيرهم أكثر من أن يمكن رد الجميع ، وأوضح من أن يقبل التأويل . انتهى .
 القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَيِّجْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ، بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)
 « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَيِّجْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى » أي بإعادة الروح إلى الجسد ، بعد مفارقتها إياه ، وإخراجهم من قبورهم كما يأتهم قبل وفاتهم .

وفي ابن جرير ^(١) بحث نحوي في دخول الباء في (بِقَدِيرٍ) بديع . ويذكر في مباحث زيادة الباء ، في مطولات العربية .

« بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أي من إعادة المدوم ، ولو فني الجسد وغيره .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ، قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

[٣٥] (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ ، بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ)

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا » أى الإحياء إحياء « بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * فَاصْبِرْ » أى على تبليغ الرسالة وتكذيبهم وإيذائهم « كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » أى : أولو الثبات والجد منهم ، فإنك منهم . والعزم - فى اللغة - كالعزيمة ، ما عقدت قلبك عليه من أمر . والعزم أيضاً القوة على الشئ والصبر عليه . فالمراد به هنا المجتهدون ، المجدون ، أو الصابرون على أمر الله فيما عهده إليهم ، وقدره وقضاه عليهم . ومطلق الجد والجهد والصبر موجود فى جميع الرسل ، بل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكثير من الأولياء . فلذا ذهب جمهور المفسرين فى هذه الآية إلى أنهم جميع الرسل ، وأن (من) بيانية لاتبعيضية ، فكل رسول من أولى العزم . فإن أريد به معنى مخصوص ببعضهم ، فلا بد من بيانه ليظهر وجه التخصيص . ومنشأ الاختلاف فى عددهم إلى أقوال : أحدها - أنهم جميع الرسل . والثانى - أنهم أربعة : نوح وإبراهيم وموسى ومحمد . والثالث - أنهم خمسة بزيادة عيسى ، كما قيل :

أولى العزم نوح والخليل المجد وموسى وعيسى والنبي محمد
والرابع - أنهم ستة ، بزيادة هرون أو داود . والخامس - أنهم سبعة بزيادة آدم .
والسادس - أنهم تسعة ، بزيادة إسحاق ويعقوب ويوسف . وقد زاد وينقص .

وتوجيه التخصيص أن المراد بهم من له جد وجهد تام في دعوته إلى الحق ، وذبه عن حريم التوحيد ، وحى الشريعة ، بحيث يصبر على ما لا يطيقه سواه من عوارضه النفسية والبدنية ، وأموره الخارجية ، كمبارزة كل أهل عصره ، كما كان لنوح . أو ملك جبار في عصره ، وانتصاره عليه من غير عدة دنيوية ، كمنروذ إبراهيم ، وجالوت داود ، وفرعون موسى . ولكل موسى فرعون ، ولكل محمد أبو جهل . وكالاتلاء بأمور لا يصبر عليها البشر بدون قوة قدسية ، ونفس ربانية ، كما وقع لأيوب عليه الصلاة والسلام . ومن هنا كشف برقع الخفاء عن وجه التخصيص ، وهذا مما كشفت بركاتهم سره - أفاده الشهاب - .

« وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ » أى ولا تستعجل بمساءلتك ربك العذاب لهم ، فإن ذلك نازل بهم لا محالة ، وإن اشتد عليك الأمر من جهتهم . « كَانَهُمْ يَوْمَ بَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ » أى من عذاب الله ونسكاله وخزيه الذى ينزل بهم فى الدنيا أوفى الآخرة « لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً » مِنْ نَهَارِهِمْ » أى لأنه ينسبهم شدة ما ينزل بهم من عذابه ، قدر ما كانوا فى الدنيا لبثوا ، ومبلغ ما فيها مكثوا .

وقوله تعالى « بَلَّغْ » قال ابن جرير^(١) : فيه وجهان :

أحدهما - أن يكون معناه : لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، ذلك لبث بلاغ ، بمعنى : ذلك بلاغ لهم فى الدنيا إلى أجلهم ، ثم حذف (ذلك لبث) ، وهى مرادة فى الكلام اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام عليها .

والآخر - أن يكون معناه : هذا القرآن والتذكير بلاغ لهم وكفاية ، إن فكروا واعتبروا ، فتذكروا . انتهى .

وأشار المهايى إلى معنى آخر فقال : ليس من حق الرسل الاستعجال ، بل حقهم بلاغ . « فَهَلْ يُهْلَكُ » أن بعذاب الله إذا أنزله بمقتضى العدل والحكمة « إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ » أى الذين خالفوا أمره ، وخرجوا من طاعته . نعوذ بالله من غضبه ، وأليم عقابه .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧ - سورة محمد ﷺ

سميت به ، لما فيها من أن الإيمان بما نزل على محمد متفرقاً ، أعظم من الإيمان بما نزل مجموعاً على سائر الأنبياء عليهم السلام . وهو من أعظم مقاصد القرآن . وتسمى سورة (القتال) ، لدلالاتها على ارتفاع حرمة نفوس الكفار المانعة من قتالهم ، وما يترتب على انقتال وكثرة فوائده - قاله المهايى - .

وهي مدنية . وحكى النسفي قولاً غريباً ، أنها مكية . وآها ثمان وثلاثون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى:

[١] (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ)

«الَّذِينَ كَفَرُوا» أى: جحدوا توحيد الله ، وعبدوا غيره «وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» أى: أعرضوا وامتنعوا عن الإقرار لله بالوحدانية، ولنبية بالرسالة. أو صدوا غيرهم عن ذلك. «أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ» أى جعلها على غير هدى ورشاد.

القول في تأويل قوله تعالى:

[٢] (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)

«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أى الطاعات فيما بينهم وبين ربهم . وقوله «وَأَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ» أى بما أنزل الله به جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم . وإنما خصه بالذكر ، مع دخوله فيما قبله ، تعظيماً لشأنه وتعليماً ، لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به ، إذ يفيد بمطغه أنه أعظم أركانه ، لإفراده بالذكر . وقد تأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التى هى قوله «وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ» أى الثابت بالواقع ونفس الأمر . «كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ» أى ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ، ما كان منهم من الكفر والمعاصي ، لرجوعهم عنها وتوبتهم «وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ» أى حلهم وشأنهم ، وعملهم فى الدنيا بالتأييد والتوفيق . قال الشهاب : (البال) يكون بمعنى الحال والشأن . وقد يخص بالشأن العظيم ، كقوله ﷺ (١) (كل أمر ذى بال) . ويكون بمعنى الخاطر القلبي ، ويتجاوز به عن القلب . ولو فسر به

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٩ - كتاب الفكاك ، ١٩ - باب خطبة النكاح ، حديث

١٨٩٤ (طبعتنا) .

هنا كان حسناً أيضاً . وقد فسرهُ السفاقيّ بالفكر ، لأنه إذا صلح قلبه وفكره ، صلحت عقيدته وأعماله .

وقال ابن جرير^(١) : البال كالمصدر ، مثل الشأن ، لا يعرف منه فعل ، ولا تسكاد العرب تجمعه إلا في ضرورة شعر ، فإذا جمعوه قالوا : (بالات) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (ذَٰلِكَ بَٰنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا أَتَّبِعُوْا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا أَتَّبِعُوْا الْحَقَّ مِنْ رَّبِّهِمْ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ)

« ذَٰلِكَ » أى المذكور من فعله تعالى بالفريقين ما فعله كائن « بَٰنَ الَّذِيْنَ » أى بسبب أن الذين « كَفَرُوْا أَتَّبِعُوْا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا أَتَّبِعُوْا الْحَقَّ مِنْ رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ » أى يشبه لهم الأشياء ، فيلحق بكل قوم من الأمثال أشكالا . قال الزمخشريّ : فإن قلت : أين ضرب الأمثال ؟ قلت : فى أن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار . واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين . أوفى أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَا أَثَخْتُمُوْهُمْ فَشُدُّوْا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مِّنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللّٰهُ لَآتَصَّرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لَّيَبْلُوْا بِعُضِّكُمْ بَعْضٌ ، وَالَّذِيْنَ قَتَلُوْا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ)

« فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا فَضَرْبِ الرِّقَابِ » لما كان طليعة هذه السورة تمهيداً لجهاد المشركين الساعين فى الأرض بالفساد ، الصادّين عن منهج الرشاد ، وبعثاً على الصدق

(١) انظر الصفحة رقم ٣٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

في قتالهم ، كسجاً لعقبة باطلهم ، عملاً بما يوجبه الإيمان ويفرضه الإيقان ، وتميزاً لأولياء الرحمن من أولياء الشيطان ، تأثر تلك الطليعة بهذه الجملة. ولذا قال أبو السعود: الفاء لترتيب ما في حيزها من الأمر على ما قبلها. فإن ضلال أعمال الكفرة وخبثهم ، وصلاح أحوال المؤمنين وفلاحهم ، مما يوجب أن يرتب على كل من الجانبين ما يليق به من الأحكام. أى : فإذا كان الأمر كما ذكر ، فإذا لقيتموهم في المحاربة ، فاضرب الرقاب. وأصله: فاضربوا الرقاب ضرباً. تخذف الفعل ، وقدم المصدر ، وأنب منابه مضافاً إلى المفعول . وفيه اختصار وتأكيـد بليغ . والتعبير به عن القتل ، تصوير له بأشنع صورة ، وتهويل لأمره ، وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون منه « حَتَّى إِذَا أَتَّخَفْتُمُوهُمْ » أى غلبتموهم ، وقهرتم من لم تضربوا رقبتهم منهم ، فصاروا في أيديكم أسرى « فَشَدُّوا أَلْوَتَاكَ » بفتح الواو ، وقرىء بكسرها . وهو ما يوثق به ، أى يربط ويشد ، كالقيـد والحبل . أى فأمسكـوهم به كيلا يقتلوكم فيهربوا منكم « فَأَمَّا مَنَّمَّنَا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءٌ » أى فإما تمنون بعد ذلك عليهم ، فتطلقونهم بغير عوض ، لزوال سببهم ، وإما تفدون فداءً ، فتطلقونهم بعوض مال ، أو مسلم أسروه فيتقوى به المسلمون ، أو يتخلص أسيرهم .

قال المـهـامـي : ولم يذكر القتل اكـتـفـاءً بما مر من قوله ^(١) (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَأَسْرَى حَتَّى يُبْخِنَ فِي الْأَرْضِ) وذلك فيمن يرى فيه الإمام بقاء السبعية بالـكـال . ولم يذكر الاسترقاق ، لأنه في معنى استدامة الأسر ، وذلك فيمن يرى فيه نوع سبعية . ولا زالوا كذلك « حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » أى : إلى انقضاء الحرب و(الأوزار) كالأحمال وزناً ومعنى . استعير لآلات الحرب التي لا تقوم إلا بها ، استعارة تصريحية أو مكنية ، بتشبيهها بإنسان يحمل حملاً على رأسه أو ظهره ، وأثبت له ذلك تخميلاً . وقد جاء ذكرها في قول الأعشى ^(٢) :
وأعددت للحرب أوزارها : رماحاً طوالاً وخيلاً ذكوراً

(١) [٨ / الأنفال / ٦٧] . (٢) البيت الرابع والأربعون من قصيدته التي مطلعها :

غَشِيَتْ لِلْيَحْيَى بِمَلِيلٍ خُدُورًا وَطَالَبَتَهَا وَنَذَرَتْ الْفُدُورًا

يعدح بها هودّة بن عليّ الحنفي .

وقيل : أوزارها آثامها . يعنى : حتى يترك أهل الحرب - وهم المشركون - شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا .

تنبيهات :

الأول - قال فى (الإكمال) : فى الآية بيان كيفية الجهاد .

الثانى - للسلف قولان فى أن الآية : منسوخة أو محكمة .

فروى عن ابن عباس وقتادة والضحاك والسدى أنها منسوخة بقوله تعالى ^(١) (فَأَذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) قالوا : فلم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة بعد براءة ، وانسلاخ الأشهر الحرم .

وروى عن ابن عمرو وعطاء والحسن وعمر بن عبد العزيز ، أن الآية محكمة ليست بمنسوخة ، وأنه لا يجوز قتل الأسير ، وإنما له المن أو الفداء .

ووجه من ذهب إلى الأول تعارض الآيتين عنده بادىء بدء ، فلم يبق إلا القول بإحداها وهى المطلقة .

ومدرك الثانى أن الأمر بقتلهم المجمع فى آيات ، محمول على الفصل فى مثل هذه الآية . أى إن القتل عند اللقاء ، ثم بعد انقضاء الحرب المن أو الفداء لا غير ، إلا أن تبدو مصلحة فى القتل ، فذلك من باب آخر .

وتم قول ثالث : وهو كون الآية محكمة مع تفويض الأمر إلى الإمام ، وأن ذكر المن والفداء لا ينافى جواز القتل ، لعله من آيات آخر ، لاسيما ومرجع الأمر إلى المصلحة . وهذا القول هو الذى أختاره . وإذا دار الأمر فى الآى بين الإحكام والنسخ ، فالأول هو المرجح . وقد لا يتعارض قول من قال بالنسخ مع الذهاب إلى الإحكام ، لما قدمناه فى مقدمة التفسير ، من تغير اصطلاح السلف والأصوليين فى النسخ .

(١) [٩ / التوبة / ٥] .

ثم رأيت ابن جرير ^(١) سبقني في ترجيح ذلك ، وعبارته :

والصواب من القول عندنا في ذلك ، أن هذه الآية محكمة غير منسوخة . وذلك أن صفة الناسخ والمنسوخ ، أنه ما لم يجز اجتماع حكميهما في حال واحدة ، أو ما قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ الآخر . وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المن والفداء والقتل إلى الرسول ﷺ ، وإلى القائمين بعده بأمر الأمة ، وإن لم يكن القتل مذكوراً في هذه الآية ، لأنه قد أذن بقتلهم في آية أخرى ، وذلك قوله تعالى ^(٢) (فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) الآية . بل ذلك كذلك ، لأن رسول الله ﷺ كذلك كان يفعل فيمن صار أسيراً في يده من أهل الحرب ، فيقتل بعضاً ، ويفادي ببعض ، ويمن على بعض ، مثل يوم بدر : قتل عقبة بن أبي معيط ، وقد أتى به أسيراً . وقتل بنى قريظة وقد نزلوا على حكم سعد ، وصاروا في يده سائماً ، وهو على فدائهم والمن عليهم قادر . وفادى بجماعة ، أسارى المشركين الذين أسروا ببدر . ومن على ثمانية بن أثال الحنفي ، وهو أسير في يده . ولم يزل ذلك ثابتاً من سيره في أهل الحرب ، من لدن أذن الله له بجرهم ، إلى أن قبضه إليه ﷺ دائماً ذلك فيهم . وإنما ذكر جل ثناؤه في هذه الآية المن والفداء في الأسارى ، نخص ذكرها فيها ، لأن الأمر بقتلهم والإذن منه بذلك ، قد كان تقدم في سائر آي تنزيله مكرراً ، فأعلم نبيه صلى الله عليه وسلم بما ذكر في هذه الآية من المن والفداء ، ماله فيهم مع القتل . انتهى كلام ابن جرير .

الثالث - من فوائد الآية أيضاً جواز تخلية سبيل المشركين ، إذا ضعفت شوكتهم ، وأمنت مفسدتهم ، لأن ذلك من لوازم المن وقبول الفداء . والقول بإبادة خضرأهم من غير تفصيل ، ينافيه نص هذه الآية ، وقبول النبي صلى الله عليه وسلم الجزية من مجوس هجر وهم مشركون ، فتفهم .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٩ / التوبة / ٥] .

وبالجملة، فالذى عول عليه الأئمة المحققون رضى الله عنهم، أن الأمير يختار، بعد الظفر تخيير مصلحة لا شهوة في الأسراء المقاتلين، بين قتل واسترقاق، ومنّ وفداء. ويجب عليه اختيار الأصلح للمسلمين، لأنه يتصرف لهم على سبيل النظر، فلم يجوز له ترك ما فيه الخط، كولى اليتيم، لأن كل خصلة من هذه الخصال قد تكون أصلح في بعض الأسرى. فإن منهم من له قوة ونكاية في المسلمين، فقتله أصلح. ومنهم الضعيف ذو المال الكثير، ففداؤه أصلح. ومنهم حسن رأى في المسلمين، يرجى إسلامه، فالنّ عليه أولى. ومن ينتفع بخدمته، ويؤمن شرّه، استرقاقه أصلح - كما في (شرح الإقناع) - .

الرابع - تُسنّ دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال لمن بلغته الدعوة، قطعاً لحجته. ويحرم القتال قبلها لمن لم تبلغه الدعوة، لحديث^(١) بُرَيْدَةَ بن الحُصَيْب قال: كان النبي ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أمره بتقوى الله تعالى في خاصة نفسه، وبمن معه من المسلمين. وقال: إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث، فإن هم أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم. فإن هم أبوا فادعهم إعطاء الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم. فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم - رواه مسلم - .

وقيد الإمام ابن القسيم وجوب الدعوة واستحبابها، بما إذا قصد هم المسلمون. أما إذا كان الكفار قاصدين المسلمين بالقتال، فللمسلمين قتالهم من غير دعوة، دفعاً عن نفوسهم وحرّيمهم وأمر الجهاد موكل إلى الإمام واجتهاده، لأنه أعرف بحال الناس، وبحال العدو، ونكايتهم وقربهم وبعدهم - كما في (شرح الإقناع) - .

وقوله تعالى « ذَلِكَ » خبر لمحدوف. أى الأمر ذلك. أو مفعول لمقدّر « وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْتَصَرَ مِنْهُمْ » أى: لا انتقم منهم بعقوبة عاجلة، وكفاكم ذلك كله. « وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ

(١) أخرجه مسلم في: ٣٢ - كتاب الجهاد، حديث رقم ٣ (طبعنا).

بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ « أى ليختبركم بهم ، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين فيثيبهم ، ويبلوهم بكم ، فيعاقب بأيديكم من شاء منهم ، حتى ينيب إلى الحق . « وَالَّذِينَ قَتَلُوا » أى استشهدوا .
وقرى (قاتلوا) « فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ » .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ)

[٦] (وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

« سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ » أى بينا لهم فى كثير من آياته ، تعريفاً يشوق كل مؤمن أن يسعى لها .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » أى الظفر والتمكين فى الأرض ، وإرث ديار العدو .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)

[٩] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ » أى خزيًا وشقاء . وأصله من السقوط على الوجه ، كالكب . « وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » أى جعلها على غير هدى واستقامة . « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ » أى من الحق ، وشايعوا ما ألفوه من الباطل . « فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ » كعبادتهم لأوثانهم ، حيث لم تنفعهم ، بل أوبقهم بها فأصلاهم سعيراً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ،
دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا)

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى
من الأمم المكذبة رسلها ، الرادة نصائحها . « دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى ما اختص بهم ،
وكان لهم . يقال : دمره بمعنى أهلكه . ودمر عليه : أهلك ما يختص به من المال والنفوس .
فالثانى أبلغ ، لما فيه من العموم ، لجعل مفعوله نسباً منسياً ، فيتناول نفسه وكل ما يختص به .
والإتيان بـ (على) لتضمنه معنى (أطبق عليه) أى أوقعه عليهم محيطاً بهم ، أو هجم الهلاك
عليهم . « وَلِلْكَافِرِينَ » يعنى المكذبين رسول الله ﷺ « أَمْثَلُهَا » أى أمثال عاقبة
تسكذيب الأمم السالفة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ)

[١٢] (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ
وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)

« ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ » أى لا ناصر لهم
يدفع عنهم العذاب ، إذا حاق بهم . « إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ
الْأَنْعَامُ » أى غير مفكرين في المعاد ، ولا معتبرين بسنة الله ، كغفلة الأنعام عن النحر والذبح ،
فلا هم لهم إلا الاعتلاف دون غيره . « وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ » أى مأواهم بعد مماتهم .

القول فی تاویل قوله تعالى :

[۱۳] (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ)

[۱۴] (أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَدَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

« وَكَأَيِّنْ » ای : وکم « مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ » یعنی مکه ، علی حذف مضاف « أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ » * أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَدَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ » ای علی برهان وحجة و بیان من امر ربہ ، والعلم بوحدانیتہ ، فهو یعبده علی بصيرة منه . « كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ » ای فأراه إياه الشيطان حسفاً ، فهو مقيم علیه . « وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » .

القول فی تاویل قوله تعالى :

[۱۵] (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ)

« مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ » ای متغیر الريح « وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى » ای من القذى ، وما يوجد فی عسل الدنيا « وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » ای من فرط حرارته .

لطيفة :

(مَثَلُ الْجَنَّةِ) مبتدأ خبره (كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ) بتقدير حرف إنكار ومضاف . أى : أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد . أو أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد . فلفظ الآية ، وإن كان في صورة الإثبات ، هو في معنى الإنكار والنفي ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار وانسحاب حكمه عليه ، وهو قوله : (أَفَمَنْ كَانَ ...) الخ ، وليس في اللفظ قرينة على هذا ، وإنما هو من السياق ، وإن فيه جزالة المعنى . وثم أعارب آخره ، هذا أمثها . القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

« وَمِنْهُمْ » أى ومن هؤلاء الكفار « مَّنْ » أى كافر منافق « يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » أى من الصحابة ، استهزاء بما سمعوه من التلو ، وتهاونا به « مَاذَا قَالَ آنِفًا » أى الساعة . هل فيه هدى ؟ فإن بينوه لم يستفيدوا منه شيئاً . « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى فلا يدخلها الهدى لإبائهم عنه « وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » أى آراءهم ، لا ما يدعو إليه البرهان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)

« وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا » أى باتباع الحق ، والشئ مع الحجة « زَادَهُمْ هُدًى » أى بياناً لحقيقة ما جاءهم « وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » أى أعانهم عليها . أو آتاهم جزاء تقواهم . أو بين لهم ما يتقون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ، فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ، فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ)

« فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا » قال ابن كثير :
 أى أمارات اقترابها ، كقوله تبارك وتعالى ^(١) (هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأُولَى * أَزِفَتِ الْأُزْفَةُ) وكقوله جلّت عظمتُه ^(٢) (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) وقوله سبحانه وتعالى ^(٣) (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) وقوله جل وعلا ^(٤) (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) . فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة ، لأنه خاتم الرسل ، الذى أكمل الله تعالى به الدين ، وأقام به الحجة على العالمين . وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها ، وأبان عن ذلك وأوضحه ، بما لم يؤته نبيّ قبله ، كما هو مبسوط فى موضعه .

وقال الحسن البصرى : بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة ، وهو كما قال . ولهذا جاء فى أسمائه ﷺ أنه نبيّ التوبة ، ونبيّ الملحمة ، والحاشر الذى تحشر الناس على قدميه ، والعاقب الذى ليس بعده نبيّ .

روى البخارى ^(٥) عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ قال بإصبعيه هكذا - بالوسطى والى تليها - : بعثت أنا والساعة كهاتين .

« فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ » أى ذكرى ماقد ضيعوا وفرّطوا فيه من طاعة الله إذ جاءتهم الساعة . يعنى : أن ليس ذلك بوقت ينفعهم فيه التذكر والندم ، لأنه وقت مجازاة ، لا وقت استعتاب واستعمال .

(١) [٥٣ / الفجم / ٥٦ و ٥٧] . (٢) [٥٤ / القمر / ١] .

(٣) [١٦ / النحل / ١] . (٤) [٢١ / الأنبياء / ١] .

(٥) أخرجه البخارى فى : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٣٩ - باب قول النبي ﷺ (بعثت

أنا والساعة كهاتين) حديث رقم ٢٠٦٨

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٩] (فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِدَنِّكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ،
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ)

« فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » قال ابن جرير^(١): أى فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهة ويجوز لك وللخلق عبادته ، إلا الله الذى هو خالق الخلق ، ومالك كل شيء . يدين له بالربوبية كل ما دونه . والفاء فصيحة في جواب شرط معلوم ، مما مر من أول السورة إلى هنا ، من حال الفريقين .

قال السيوطي : وقد استدل بالآية من قال بوجوب النظر ، وإبطال التقليد في العقائد ، ومن قال بأن أول الواجبات ، المعرفة قبل الإقرار .

« وَأَسْتَغْفِرُ لِدَنِّكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » قال ابن جرير^(٢) : أى وسل ربك غفران سالف ذنوبك وحادثها ، وذنوب أهل الإيمان بك من الرجال والنساء . قال الشهاب : وإنما أعيد الجار ، لأن ذنوبهم جنس آخر غير ذنب النبي ﷺ ، فإن ذنوبهم معاص كباثر وصغار ، وذنوب ترك الأولى .

وقال السيوطي : استدل بالآية من أجاز الصغار على الأنبياء . انتهى .
والمسألة مبسطة بأقوالها ، وما لها وما عليها في (الفصل) لابن حزم . فارجع إليه .
وفي الصحيح^(٣) أن رسول الله ﷺ كان يقول : اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي

(١) انظر الصفحة رقم ٥٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) أخرجه البخاري في : ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٦٠ - باب قول النبي ﷺ (اللهم

اغفر لي ما قدمت وما أخرت) حديث رقم ٢٤٠٤ ، عن أبي موسى الأشعري .

في أمري ، وما أنت أعلم به مني . اللهم اغفر لي هزلي وجدي ، وخطايي وعمدي ، وكل ذلك عندي .

وفي الصحيح^(١) أنه كان يقول في آخر الصلاة : اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني . أنت إلهي لا إله إلا أنت . وفي الصحيح^(٢) أنه قال : يا أيها الناس ! توبوا إلى ربكم ، فإنني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة .

« وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ » أي متصرفكم فيما تتصرفون فيه ، وإقامتكم على ما تقيمون عليه من الأقوال والأعمال ، فيجازيكم عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ، فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَأُولَٰئِكَ لَهُم)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ » أي تأمرنا بجهاد أعداء الله من الكفار . « فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ » أي مبينة لا تقبل نسخاً ولا تاويلاً ، « وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ » أي الأمر بقتال المشركين « رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » أي : شك في الدين وضعف في اليقين « يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ » أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء . شبه نظرهم بنظر المحتضر الذي لا يطرف بصره

(١) أخرجه البخاري في : ١٩ - كتاب التهجد ، ١ - باب التهجد بالليل ، حديث

رقم ٦١٣ ، عن ابن عباس .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٣ - باب استغفار النبي ﷺ في

اليوم والليلة ، حديث ٢٣٩٠ ، عن أبي هريرة .

« فَأُولَئِیْ لَهُمُ » قال الشهاب : اختلف فيه ، بعد الاتفاق على أن المراد به التهديد والوعيد ، على أقوال :

فذهب الأصمعى إلى أنه فعل ماض بمعنى قارب . وقيل : قَرَّبَ بالتشديد ، ففاعله ضمير يرجع لما علم منه ، أى : قارب هلاكهم . والأكثر أنه اسم تفضيل من الولی ، بمعنى القرب . وقال أبو على : إنه اسم تفضيل من الویل . والأصل (أویل) فقلب ، فوزنه أفلع . ورد بأن الویل غیر متصرف ، وأن القلب خلاف الأصل ، وفيه نظر . وقد قيل : إنه فعلى ، من آل يؤول . وقال الرضى : إنه علم للوعيد ، وهو مبتدأ و (لهم) خبره . وقد سمع فيه (أولاة) بناء تأنيث . وهو كما قيل ، يدل على أنه ليس بأفعل تفضيل ، ولا أفعل فعلى ، وأنه علم وليس بفعل ، بل مثل أرمل وأرملة ، إذا سمى بهما ، فلذا لم ينصرف . ولا اسم فعل ، لأنه سمع فيه (أولاة) معرباً مرفوعاً ، ولو كان اسم فعل بنى . وفيه أنه لا مانع من كون (أولاة) لفظاً آخر بمعناه ، فلا یرد شيء منه عليهم أصلاً ، كما جاء (أول) أفعل تفضيل ، واسم ظرف كـ (قبل) وسمع فيه (أولة) - كما نقله أبو حيان - فلا یرد النقض به كما لا يخفى . انتهى .

قال السمين : إذا قلنا باسميته . ففيه أوجه :

أحدها - أنه مبتدأ ، و (لهم) خبره ، تقديره : فالحلاك لهم .

والثانى - أنه خبر مبتدأ مضمر ، تقديره : العقاب أو الهلاك أولى لهم ، أى أقرب وأدنى ، ويجوز أن تكون اللام بمعنى الباء . أى أولى وأحق بهم .

الثالث - أنه مبتدأ ، و (لهم) متعلق به ، واللام بمعنى الباء ، و (طاعة) خبره ،

والتقدير : فأولى بهم طاعة دون غيرها ، وقوله تعالى :

القول فى تأویل قوله تعالى
[٢١] (طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ، فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ)

« طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ » فيه أوجه :

أحدها - أنه خبر (أولى) على ما تقدم .

الثاني - أنها صفة السورة . أى : فإذا أنزلت سورة محكمة طاعة ، أى : ذات طاعة ، أو مطاعة . ذكره مكى وأبو البقاء . وفيه بعد ، لكثرة الفواصل .

الثالث - أنها مبتدأ ، و (قول) عطف عليها ، والخبر محذوف . تقديره : أمثل بكم من غيرها . وقدره مكى : منا طاعة ، فقدّره مقدماً .

الرابع - أن يكون خبر مبتدأ محذوف . أى أمرنا طاعة .

الخامس - أن (لهم) خبر مقدم و (طاعة) مبتدأ مؤخر . والوقف والابتداء يعرفان مما قدمته ، فتأمل - أفاده السمين - .

« فَأِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ » أى : جدّ الحال ، وحضر القتال : قال، أبو السعود : أسند العزم ، وهو الجد ، إلى الأمر ، وهو لأصحابه ، مجازاً . كما فى قوله ^(١) تعالى (إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) وعامل الظرف محذوف . أى خالفوا وتحلفوا . وقيل ناقضوا . وقيل : كرهوا . وقيل : هو قوله تعالى « فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ » على طريقة قولك : إذا حضرنى طعام ، فلو جئتنى لأطعمتك . أى : فلو صدقوه تعالى فيما قالوه من الكلام النبىء عن الحرص على الجهاد ، بالجرى على موجهه « لَكَانَ » أى الصدق « خَيْرًا لَهُمْ » أى فى عاجل دنياهم ، وآجل معادهم . وقيل : فلو صدقوه فى الإيمان ، وواطأت قلوبهم فى ذلك ألسنتهم . وأياً ما كان ، فالمراد بهم الذين فى قلوبهم مرض ، وهم المخاطبون بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ)

« فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ » أى أعرضتم عن تنزيل الله تعالى ، وفارقتم أحكام كتابه ، ومجاهد برسوله « أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ » أى بالتناور والتناهب « وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ »

(١) [٣١ / لقمان / ١٧] .

أى تمودوا لما كنتم عليه فى جاهلييتكم من التشدت والتفرق ، بعد ما جمعكم الله بالإسلام ، وألف به بين قلوبكم ، وأمركم بالإصلاح فى الأرض ، وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب فى المقال والأفعال ، وبذل الأموال . وقد ساق ابن كثير هنا من الأحاديث فى صلة الرحم لباب اللباب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّىٰ أَبْصَارَهُمْ)

« أُولَٰئِكَ » إشارة إلى المذكورين « الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ » أى عن استماع الحق لتصامتهم عنه بسوء اختيارهم « وَأَعَمَّىٰ أَبْصَارَهُمْ » أى لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة فى الأنفس والآفاق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَقْفَالُهَا)

« أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ » قال ابن جرير^(١) : أى أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التى يعظمهم بها فى آى القرآن الذى أنزله على نبيه عليه السلام ، ويتفكرون فى حججه التى بينها لهم فى تنزيله ، فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون . « أَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَقْفَالُهَا » أى فلا يصل إليها ذكر ، ولا ينكشف لها أمر . وتفكير (القلوب) للإشعار بفرط جهالتها ونكرها ، كأنها مبهمه منكورة . و (الأقفال) مجاز عما يمنع الوصول . وإضافتها إلى القلوب لإفادة الاختصاص المميز لها عما عداها ؛ وللإشارة إلى أنها لا تشبه الأقفال المعروفة ، إذ لا يمكن فتحها أبداً .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (إِنَّ الَّذِينَ أُرْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنَّ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ
الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ)

«إِنَّ الَّذِينَ أُرْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ» أى عادوا لما كانوا عليه من الكفر «مِنَّ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ» أى الحق بواضح الحجة .
«الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ» أى زين لهم ارتدادهم وحملهم عليه «وَأَمْلَىٰ لَهُمْ» أى ومد لهم فى الآمال والأمانى ، أو أمهلهم الله تعالى ، فد فى آجالهم ، ولم يعاجلهم بالعقوبة . والمعنى : الشيطان سول لهم ، والله أملى لهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ،
وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ)

«ذَٰلِكَ» إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم ، «بِأَنَّهُمْ» أى بسبب أنهم «قَالُوا» أى المنافقون «لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ» أى لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ «سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ» أى بعض أموركم ، أو ما تأمرون به كالقعود عن الجهاد ، والتظاهر على الرسول ، أو الخروج معهم إن أخرجوا ، كما أوضح ذلك قوله تعالى (١)
(الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ) وهم بنو قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويؤادونهم .

«وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ» أى : إخفاءهم لما يقولونه لليهود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْءُ بَرَّهُمْ)
 [٢٨] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ)
 « فَكَيْفَ » أى : يفعلون ويدفعون ضرر الردة عليهم « إِذَا تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ » أى : التى ولوها عن الله إلى أعدائه « وَأَذْءُ بَرَّهُمْ » أى التى ولوها عن الأعداء إلى الله .

« ذَلِكَ » أى التوفى الهائل « بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ » أى من إطاعة أعدائه ، « وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ » أى فى معاداتهم ، فادى بهم إلى الردة « فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ » أى التى كانت تفيدهم النجاة من ذلك الضرب ، ومن الفضائح الدنيوية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ)
 « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » أى نفاق تفرع منه أضغان على رسول الله ﷺ والمؤمنين « أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ » أى أحقادهم لرسوله وللمؤمنين ، فتبقى أمورهم مستورة . والمعنى : أن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ)
 [٣١] (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ)
 (أَخْبَارَكُمْ)

« وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ » أى لعرفناكم بدلائل تعرفهم بأعيانهم معرفة متاحة للرؤية

« فَلَمَعَرَفَتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ » أى بعلامتهم التى نسميهم بها « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » أى أسلوبه وما يرومون من غير إيضاح به .

قال فى (الإكليل) : استدل بالآية من جعل التمريض بالقذف موجبا للحد .

« وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ » أى فيجازيكم بحسب قصدكم .

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ » أى أهل المجاهدة فى سبيل الله ، والصبر على المشاق « وَنَبْلُوهُوَ أَخْبَارَكُمْ » أى أفانين أقوالكم ، وضروب بياناتكم ، وأعمال قوة ألسنتكم فى نشر الحق والصدع به والدأب عليه ، هل هو متمعن لذلك ، أم فيه ما فيه من المحاماة خيفة لوم اللائم .

قال القاشانى : علم الله تعالى قسمان : سابق على معلوماته إجمالاً فى لوح القضاء ، وتفصيلاً فى لوح القدر ، وتابع إياها فى المظاهر التفصيلية من النفوس البشرية ، والنفوس السماوية الجزئية . فعنى (حَتَّىٰ نَعْلَمَ) حتى يظهر علمنا التفصيلي فى المظاهر المكونة والإنسنة ، التى يثبت بها الجزاء - والله أعلم - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلَهُمْ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلَهُمْ » أى فتذهب سدى ، لا تثمر لهم نفعاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ)

[٣٤] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ»
 أى لكن يعذبهم ويعاقبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُكُمْ أَعْمَالَكُمْ)

«فَلَا تَهِنُوا» أى فلا تضعفوا أيها المؤمنون بالله عن جهاد الذين اعتدوا عليكم، وصدوا عن سبيل الله ، «وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ» أى الصلح والمسالمة «وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ» أى الأغلبون ، فإن كسح الضلال من طريق الحق لا منتدح عنه ، ماتيسرت أسبابه ، وقهرت أربابه «وَاللَّهُ مَعَكُمْ» أى بنصره ماتسكنكم بحبله «وَلَنْ يَتَرَكُكُمْ أَعْمَالَكُمْ» أى لن ينقصكم ثوابها ويضيعها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ، وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ)

«إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ» أى فلا تدعكم الرغبة فى الحياة إلى ترك الجهاد «وَأِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ» أى ثواب إيمانكم وتقواكم «وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ» أى لأنه غنى عنكم ، وإنما يريد منكم التوحيد ، ونبد الأوثان ، والطاعة لما أمر به ، ونهى عنه .

قال بعض المفسرين : أى لا يسألكم جميع أموالكم ، بل يقتصر منكم على جزء يسير ، كربع العشر وعشره . إشارة إلى إفادة الجمع المضاف للعموم ، وهو معطوف على الجزاء . والمعنى : إن تؤمنوا لا يسألكم الجميع ، أى : لا يأخذ منكم ، كما يأخذ من الكفار جميع أموالهم . ولا يخفى حسن مقابله لقوله (يُؤْتِيَكُمْ أَجُورَكُمْ) أى يعطىكم كل الأجور ، ويسألكم بمض المال - هذا ما قاله الشهاب - .

والظاهر أن المراد بيان غناه تعالى عن عباده ، وأن طلب إنفاق الأموال منهم ، لعود نفعه إليهم لا إليه ، لاستغنائه المطلق ، فإن فى الصدقات دفع أحقاد صدور الفقراء عنهم ، وفى بذله للجهد دفع غائلة الشرور والفساد ، وكله مما يعود ثمرته عليهم .

ثم أشار تعالى إلى حكمته ورحمته فى عدم سؤاله إنفاق أموالهم كلها ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخَفِّكُمْ تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَنْكُمْ)

« إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخَفِّكُمْ تَبَخَّلُوا » أى فيجهدكم بالمسألة ، ويلج عليكم بطلبها منكم ، تبخلوا بها وتمنعوها ، ضناً منكم بها ، ولكنه علم ذلك منكم ، ومن ضيق أنفسكم ، فلم يسألكموها .

قال الزمخشري : الإحفاء المبالغة ، وبلوغ الغاية فى كل شيء . يقال (أحفاء فى المسألة) إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح . و (أحفى شارب) إذا استأصله .

« وَيُخْرِجْ أَضْغَنْكُمْ » أى أحقادكم ، وكراحتكم لدين يذهب بأموالكم . وضمير (يخرج) لله تعالى ، وبعضه القراءة بنون العظمة . أو للبخل لأنه سبب الأضغان . وقرئ (يخرج) من الخروج ، بالياء والتاء ، مسنداً إلى الأضغان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (هَآءَاتُمْ هَآؤَآءٌ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ ، وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِىُّ ، وَأَنتُمْ الْفُقَرَاءُ ، وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ)

« هَآءَاتُمْ هَآؤَآءٌ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ » أى فى جهاد أعدائه ، ونصرة دينه « فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ » أى بالنفقة فيه . « وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ » أى يمسكه عنها ، لأنه يجرمها الأجر ، ويكسبها الوزر « وَاللَّهُ الْغَنِىُّ » أى : عن كل ما سواه ، وكل شىء فقير إليه . ولهذا قال سبحانه « وَأَنتُمْ الْفُقَرَاءُ » أى بالذات إليه . فوصفه بالغنى وصف لازم له ، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم ، لا ينفكون عنه ، أى وإذا كان كذلك ، فإنما حضكم فى النفقة فى سبيله ليكسبكم بذلك ، الجزيل من ثوابه . وليعلم أن سبيل الله يشمل كل ما فيه نفع وخير ، وفائدة وقربة ومثوبة . وإنما اقتصر المفسرون على الجهاد لأنه فرد الأنهر ، وجزئية الأهم ، وقت نزول الآيات ، وإلا فلا ينفحص فيه . « وَإِن تَتَوَلَّوْا » أى عما جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم « يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » أى يهلككم ثم يأتى بقوم آخرين غيركم ، بدلاً منكم ، يؤمنون به ، ويعملون بشرائعه . « ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ » أى لا يبخلوا بما أمروا به من النفقة فى سبيل الله ، ولا يضيعون شيئاً من حدود دينهم ، ولكنهم يقومون بذلك كله ، على ما يؤمرون به .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٨ - سُورَةُ الْفَتْحِ

سميت به لدلائلها على فتح البلاد والحجج والمعجزات والحقائق ، وقد ترتب على كل واحد منها المغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر العزيز . وكل هذه أمور جليلة - أفاده المهايى - .

وآياتها تسع وعشرون ، وهى مدنية . نزلت مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية سنة ست من الهجرة ، عِدَّةً له بالفتح . قال أنس : لما رجعنا من الحديبية ، وقد حيل بيننا وبين نسكنا ، فنحن بين الحزن والسكابة ، فنزلت . واختاف فى المكان الذى نزلت فيه ، فوقع عند محمد بن سعد (بِضَجْنَان) وهى بفتح المعجمة وسكون الجيم ونون خفيفة . وعند الحاكم فى - الإكليل - بكراع النميم . وعن أبى معشر (بالجحفة) .

قال الحافظ ابن حجر : والأماكن الثلاثة متقاربة . وروى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال - وهو فى بعض أسفاره - لعمر : لقد أنزلت على الليلة سورة ، لهى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس .

وأخرج أيضاً عن عبد الله بن مغفل قال : قرأ النبى صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة سورة الفتح ، فرجع فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا)

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا » قال الرازى : فى الفتح وجوه :

أحدها - فتح مكة ، وهو ظاهر .

وثانيها - فتح الروم وغيرها .

وثالثها - المراد من الفتح ، صلاح الحديبية .

ورابعها - فتح الإسلام بالحجة والبرهان ، والسيف والسنان .

وخامسها - المراد منه الحكم ، كقوله ^(١) (رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ) ،

وقوله ^(٢) (ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ) . انتهى .

ولا يخفى أن الوجوه المذكورة كلها ، مما يصدق عليها الفتح الربانى ، وجميعها مما تحقق

مصادقه . إلا أن سبب نزول الآية ، الذى حفظ الثقات زمنه ، يبين المراد من الفتح بياناً

لاخلاف معه ، وهو أنه الوجه الثالث المذكور .

قال الإمام ابن كثير : نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم

من الحديبية ، فى ذى القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صدّه المشركون عن الوصول

إلى المسجد الحرام ، ليقضى عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ،

وأن يرجع عامه هذا ، ثم باتى من قابل ، فأجابهم إلى ذلك ، على تسكرته من جماعة من

الصحابية ، منهم عمر بن الخطاب ، رضى الله عنهم ، كما سيأتى تفصيله فى موضعه من تفسير

هذه السورة إن شاء الله تعالى . فلما نحر ﷺ هديه حيث أُخْصِرَ ورجع ، أنزل الله عز وجل

(١) [٧ / الأعراف / ٨٩] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٢٦] .

هذه السورة ، فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل ذلك الصالح فتحاً ، باعتبار ما فيه من المصلحة ، وما آل الأمر إليه ، كما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه وغيره أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح صالح الحديبية . وعن جابر رضى الله عنه قال : ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية . روى البخارى ^(١) عن البراء رضى الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيمعة الرضوان ، يوم الحديبية .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : نزلت على النبي ﷺ (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) مرجعه من الحديبية . قال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد أنزلت على آية أحب إلي مما على الأرض ، ثم قرأها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم - أخرجه في الصحيحين ^(٢) من رواية قتادة به - .

وروى الإمام أحمد ^(٣) عن مجتبع بن جارية الأنصارى رضى الله عنه - وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن - قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها ، إذا الناس ينفرون الأباعر . فقال الناس بعضهم لبعض : مال للناس ؟ قالوا : أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجنا مع الناس نرجف ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه ، فقرأ عليهم (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) .

قال ، فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى رسول الله ! أو فتح هو ؟ قال صلى الله عليه وسلم : إى والذى نفس محمد بيده ! إنه لفتح . ورواه أبو داود في الجهاد . ثم قال ابن كثير : فالمراد بقوله تعالى (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) - أى بينا ظاهراً - هو صالح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وأمن الناس ، واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان . انتهى .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٣٥ - باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٦

(٢) أخرجه مسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد ، حديث ٩٧ (طبعنا) .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٢٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

وقال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) في الكلام على ما في غزوة الحديبية من الفقه واللطائف ، ما مثاله :

كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم ، أَمِنَ الناس به ، وكلّم بعضهم بعضاً ، وناظره في الإسلام ، وتمكّن من اختفى من المسلمين بحكمة من إظهار دينه ، والدعوة إليه ، والمناظرة عليه ، ودخل بسببه بشر كثير في الإسلام . ولهذا سماه الله فتحاً في قوله (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا) نزلت في الحديبية ، فقال عمر: يا رسول الله! أو فتح هو؟ قال : نعم . وأعاد سبحانه ذكر كون ذلك فتحاً قريباً . وهذا شأنه سبحانه أن يقدم بين يدي الأمور العظيمة مقدمات تكون كالمدخل إليها ، المنبئة لها وعليها ، كما قدم بين يدي قصة المسيح وخلقه من غير أب ، قصة زكريا ، وخلق الولد له ، مع كونه كبيراً ، لا يولد لمثله . وكما قدم بين يدي نسخ القبله ، قصة البيت وبناءه وتعظيمه والتقويه به ، وذكر بانيه ، وتعظيمه ومدحه . ووطأ قبل ذلك كله بذكر النسخ وحكمته المقتضية له ، وقدرته الشاملة له . وهكذا ما قدم بين يدي مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من قصة الفيل ، وبشارات الكهان به ، وغير ذلك . وكذلك الرؤيا الصالحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانت مقدمة بين يدي الوحي في اليقظة . وكذلك الهجرة ، كانت مقدمة بين يدي الأمر بالجهاد . ومن تأمل أُمُرات الشرع والقدر ، رأى من ذلك ما تبهر حكمته أولى الأبواب . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ وَعَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)

« لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ » قال أبو السعود : غاية للفتح ، من حيث أنه مترتب على سعيه عليه الصلاة والسلام في إعلاء كلمة الله تعالى ، بكابدة مشاق الحروب ، واقتحام موارد الخطوب .

« مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » أى جميع ما فرط منك ، من ترك الأولى . وتسميته ذنباً ، بالنظر إلى منصبه الجليل .

قال ابن كثير : هذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم التى لا يشاركه فيها غيره . وليس فى حديث صحيح فى ثواب الأعمال كغيره ، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التى لم ينفها بشر سواه ، لامن الأولين ، ولامن الآخرين . وهو صلى الله عليه وسلم أكمل البشر على الإطلاق ، وسيدهم فى الدنيا والآخرة . ولما كان أطوع خلق الله تعالى لله ، وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه ، قال حين بركت به الفاقة : حبسها حابس الفيل . ثم قال صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ! لا يسألونى اليوم شيئاً يعظمون به حرمة الله إلا أجبتهم إليها ، فلما أطاع الله فى ذلك ، وأجاب إلى الصلح ، قال الله تعالى (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ...) الآيات .

وقوله تعالى « وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ وَعَلَيْكَ » أى بإظهاره إياك على عدوك ، ورفع ذكرك . « وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » أى ويرشدك طريقاً من الدين لا عوج فيه . قال أبو السعود : أصل الاستقامة ، وإن كانت حاصلة قبل الفتح ، لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق ، واستقامة مناهجه ، ما لم يكن حاصلًا قبل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا)

« وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا » أى قوياً منيماً ، لا يغلبه غاب ، ولا يدفعه دافع ، للبأس الذى يؤيدك الله به ، والظفر الذى يمدك به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ، وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)
 « هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ » أى السكون والطمأنينة إلى الإيمان والحق . « لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ » أى يقيمنا منضمًا إلى يقيينهم .
 قال القاشانى : السكينة نور فى القلب يسكن به إلى شاهده ويطمئن . وهو من مبادئ عين اليقين ، بعد علم اليقين ، كأنه وجدان يقينى معه لذة وسرور .
 « وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى أنصار ينتقم بهم ممن يشاء من أعدائه .
 « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » أى فى تقديره وتدبيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (لِيَدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا)
 واللام فى قوله تعالى « لِيَدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا » متعلق بمحذوف ، نحو : أمر بالجهاد ليُدخل . . . الخ . أو دبر ما دبر مما ذكر لذلك ، أو متعلق بـ (ففتحنا) على تعلق الأول به مطلقاً ، وهذا مقيداً ، أو بقوله (لِيَزْدَادُوا) . « وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ » وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوْءِ ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا)

« وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السُّوءِ » أى ظن الأمر السوء ، وهو أن لا ينصر تعالى رسوله والمؤمنين . « عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ » أى بالتعذيب فى الدنيا بأنواع الوقائع ، كالقتل والإهانة والإذلال . وقرئ (دَائِرَةُ السُّوءِ) بالضم ، وهما لغتان من (ساء) كالكره والكره . « وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى بالقهر والحجب . « وَلَعَنَهُمْ » أى بالطرد والإبعاد فى الآخرة . « وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

« وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » قيل فى سر التكرير : إنه ذكر سابقاً على أن المراد به أنه المدبر لأمر المخلوقات بمقتضى حكمته ، فلذلك ذيله بقوله (عَلِيمًا حَكِيمًا) ، وهنا أريد به التهديد بأنهم فى قبضة قدرة المتقمم ، فلذا ذيله بقوله (عَزِيزًا حَكِيمًا) فلا تكرار . وقيل : إن الجنود جنود رحمة ، وجنود عذاب ، وأن المراد هنا الثانى ، ولذا تعرض لوصف العزة . وقال القاشانى : كررها ليفيد تغليب الجنود الأرضية على السماوية فى المنافقين والمشركين ، بعكس ما فعل بالمؤمنين . وبذل (عَلِيمًا) بقوله (عَزِيزًا) ليفيد معنى القهر والقمع ، لأن العلم من باب اللطف ، والعزة من باب القهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا » أى على أمتك بما أجابوك فيها دعوتهم إليه « وَمُبَشِّرًا » أى لمن استجاب لك بالجنة « وَنَذِيرًا » أى لمن خالفك بالنار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

« لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ » أى تؤيدوا دينه وتقرّوه « وَتُوَقِّرُوهُ » أى تعظموه « وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » أى غدوة وعشيا - على ظاهره - أودأما ، بجعل طرفى النهار كناية عن الجميع ، كما يقال (شرقا وغربا) لجميع الدنيا . والضمائر كلها - على ما ذكرنا - لله ، وجوز إعادة الأولين للرسول ، والأخير لله إلا أن فيه تفكيكا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ

نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ

فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)

« إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ » أى على قتال قريش تحت الشجرة ، وأن لا يفرّوا عند لقاء العدو ، ولا يولّوهم الأدبار . « إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ » أى لأن عقد الميثاق مع رسول الله ، كعقده مع الله ، من غير تفاوت ، لأن المقصود من توثيق العهد مراعاة أوامره تعالى ونواهيها . « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » تأكيد لما قبله . أى أن يد الله عند البيعة فوق أيديهم ، كأنهم يبايعون الله ببيعتهم ﷺ . وقال القاشانى : أى قدرته البارزة فى يد الرسول ، فوق قدرتهم البارزة فى صور أيديهم ، فيضرمهم عند النكث ، وينفعهم عند الوفاء .

« فَمَنْ نَكَثَ » أى نقض عهده « فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ » أى لعود ضرر ذلك عليه خاصة . « وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » وهو الجنة .

تنبيه :

هذه البيعة هى بيعة الرضوان . وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية . وكان الصحابة الذين

بأبعوا رسول الله ﷺ يومئذ ألفاً وأربعمائة ، وقيل : وثلاثمائة ، وقيل : خمسمائة . والأول أصح - على ما قاله ابن كثير - وقد اقتضى سيرتها غير واحد من الأئمة . ولما كانت هذه السورة الجميلة كلها في شأنها ، لزم إيرادها مفصلة .

قال ابن إسحاق : خرج النبي ﷺ في ذى القعدة معتمراً ، لا يريد حرباً . واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه ، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدّوه عن البيت . فأبطأ عليه كثير من الأعراب . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدى ، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه ، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ، ومعظماً له .

وقال الإمام ابن القيم : قصة الحديبية كانت سنة ست في ذى القعدة . وكان معه ألف وخمسمائة . هكذا في الصحيحين ^(١) عن جابر . وفيهما ^(٢) عن عبد الله بن أبي أوفى : كنا ألفاً وثلاثمائة . وعن جابر فيهما ^(٣) : كانوا ألفاً وأربعمائة - والقلب إلى هذا أميل - وهو قول البراء بن عازب ، ومעقل بن يسار ، وسامة بن الأكوع . ثم لما كانوا بذى الحليفة قلّد رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدى وأشعر وأحرم بالعمرة ، وبعث عينا له بين يديه من خزاعة ، يخبره عن قريش ، حتى إذا كان قريباً من عسفان ، أتاه عينه فقال : إني تركت كعب بن لؤي ، قد جمعوا لك الأحابيش ^(٤) ، وجمعوا لك جموعاً ، وهم مقاتلون ، وصادوك عن البيت . واستشار النبي ﷺ أصحابه وقال : أترون أن نميل إلى ذراري هؤلاء

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٥ - باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٥

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٥ - باب غزوة الحديبية ، حديث ١٨٩٤

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٥ - باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٥

(٤) الأحابيش : أحياء من العرب حالفوا قريشاً ، وتجمّعوا معهم .

الذين أعانوهم فنصيبهم ، فإن قعدوا قعدوا موتورين^(١) محزونين ، وإن نجوا يكن عُنُق^(٢) قطعها الله ؟ أم ترون أن نؤم البيت ، فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ قال أبو بكر : الله ورسوله أعلم ! إنما جئنا معتمرين ، ولم نجىء لقتال أحد . ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فروحوا إذن . فراحوا ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن خالد بن الوليد بالغميم^(٣) ، في خيل لقريش ، فخذوا ذات اليمين ، فوالله ! ما شعر بهم خالد حتى إذا هو بمترة الجيش . فانطلق يركض نذيراً لقريش . وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم ، بركت راحلته . فقال الناس : حلّ حلّ^(٤) ، فألحّت^(٥) : فقالوا : خلّأت^(٦) القصواء ! خلّأت القصواء ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما خلّأت القصواء ، وما ذاك لها بخائق ، ولكن حبسها حابس الفيل ! ثم قال : والذي نفسي بيده ! لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت الله إلا أعطيتموها . ثم زجرها فوثبت به ، فمدل حتى نزل بأقصى الحديبية على عمد^(٧) قليل الماء إنما يتبرضه^(٨) الناس نبرضا ، فلم يلبث الناس أن نزحوه ، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش ، فانتزع سهما من كنانته^(٩) ، ثم أمرهم أن يجعلوها فيه . قال ، فوالله ! ما زال يجيش لهم بالرى^(١٠) ، حتى صدروا عنه . وفزعت قريش لنزوله عليهم ، فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم رجلا من أصحابه ، فدعا عمر بن الخطاب ليعثه إليهم ، فقال : يا رسول الله ! ليس لي بمكة أحد من بني كعب يغضب لي إن أوديت ، فأرسل عثمان بن عفان فإن عشيرته بها ، وإنه مبلغ ما أردت . فدعا

(١) الموتور : من قتل له قتيل ، فلم يدرك بدمه . (٢) العُنُق : الجماعة من الناس .

(٣) وادٍ بمرحلتين من مكة . (٤) كلمة زجر لبعث البعير على السير .

(٥) أي لزقت مكانها . (٦) أي حرّنت .

(٧) التمد : بالتجريبك الماء القليل . ولعل المراد به هنا محله ، ليحسن وصفه بقلة الماء .

(٨) أي يأخذونه قليلاً قليلاً . (٩) وعاء من جلد يكون فيه الشباب .

(١٠) أي يفور ماؤه ويرتفع .

رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان ، فأرسله إلى قريش وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً ، وادعهم إلى الإسلام . وأمره أن يأتي رجالاً بركة مؤمنين ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ، ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بركة ، حتى لا يستخفي فيها بالإيمان . فانطلق عثمان ، فر على قريش بيلدح^(١) ، فقالوا : أين تريد ؟ فقال : بعثني رسول الله ﷺ أَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ وإلى الإسلام ، ويخبركم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً . فقالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ لحاجتك . وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص ، فرحب به ، وأسرج فرسه . فحمل عثمان على الفرس وأجاره ، وأردفه أبان حتى جاء مكة . وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان : خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون ! فقالوا : وما يمنعه يا رسول الله ، وقد خلص قال : ذاك ظني به أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف معاً . واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصالح ، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الآخر ، وكانت معركة ، وتراموا بالنبل والحجارة ، وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم . وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عثمان قد قتل . فدعا إلى البيعة ، فثار المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على أن لا يفروا . فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد نفسه وقال : هذه عن عثمان . ولما تمت البيعة رجع عثمان . فقال له المسلمون : اشتفت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت ؟ فقال : بئس ما ظننتم بي ! والذي نفسي بيده ! لو مكثت بها سنة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقيم بالحديبية ، ما طفت بها ، حتى يطوف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد دعيتي قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت ! فقال المسلمون : رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أعلمنا بالله ، وأحسننا ظناً . وكان عمر أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم للبيعة تحت الشجرة ، فبايعه المسلمون كلهم ، إلا الحر بن قيس ،

(١) موضع قرب مكة .

وكان معقل بن يسار آخذاً بفصنها يرفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان أول من
 بايعه أبو سنان الأسدي ، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات ، في أول الناس وأوسطهم
 وآخرهم . فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة ، وكانوا عيبة
 نصح^(١) رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي
 نزلوا أعداد مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل^(٢) ، وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت .
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لم نجئ لقتال أحد . ولكن جئنا معتمرين ، وإن
 قريباً قد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم : فإن شأؤوا أمادهم ويخولوا بيني وبين الناس .
 وإن شأؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فملوا ، وإلا فقد جئوا . وإن أبوا إلا القتال ، فوالذي
 نفسى بيده ! لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتي ، أو لينفذن الله أمره قال بديل :
 سأبلغهم ما تقول . فانطلق حتى أتى قريباً فقال : إني قد جئتكم من عند هذا الرجل ، وسمعته
 يقول قولاً ، فإن شئتم عرضته عليكم . فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن نتحدثنا عنه بشيء .
 وقال ذوو الرأي منهم : هات ما سمعته . قال سمعته يقول كذا وكذا . فقال عروة بن مسعود الثقفي :
 إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ، ودعوني آتة . فقالوا : آتته . فأتاه ، فجعل
 يكلمه . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم نحوه من قوله لبديل . فقال له عروة عند ذلك :
 أي محمد ! أرايت لو استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجنح أهله قبلك ؟ وإن
 تسكن أخرى ، فوالله إني لأرى وجوهاً ، وأرى أوشاباً من الناس ، خليقاً أن يفروا ويدعوك !
 فقال له أبو بكر : امصص بظر اللات ! أنحن نفر عنه وندعه ! قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر .
 قال : أما والذي نفسى بيده ! لولا يد كانت لك عندى لم أجزك بها ، لأجبتك ! وجعل يكلم

(١) يعنى : خاصته وموضع نصحه . كنى بها عن القلوب والصدور التى هى مواضع
 النصيح ، تشبيها لها باعياب التى يستودع فيها الثياب .

(٢) أى الإبل مع أولادها . والمطفل : الناقة القريبة العهد بالنتاج مع طفلها .

النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلما كلفه أخذ بلحيته . والمغيرة بن شعبة على رأس النبي صلى الله عليه وسلم ومعه السيف ، وعليه المغفر . فكلمها أهوى عروة إلى لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربه يده بفعل السيف وقال : آخر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفع عروة رأسه وقال : من ذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة . فقال : أى غدر ! أو لست أسعى فى غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوماً فى الجاهلية . فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شيء .

ثم إن عروة جعل يرمى أصحاب رسول الله ﷺ . فوالله ! ما تمنخم النبي ﷺ نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فذلك بها جلده ووجهه ، وإذا أمرهم ابتدروا إلى أمره ، وإذا توضعوا كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفصوا أصواتهم عنده ، وما يُجدُّون إليه النظر تعظيماً له . فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أى قوم ! لقد وفدت على الملوك : على كسرى وقيصر والنجاشي ، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدًا . والله ! إن تمنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضعوا كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفصوا أصواتهم عنده ، وما يُجدُّون إليه النظر تعظيماً له . وقد عرض عليكم خطة رشداً فاقبلوها . فقال رجل من بنى كنانة : دعونى آتة . فقالوا : آتته . فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البُدن ، فابعثوها له ، فابعثوها له ، واستقبله القوم يلبون ، فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدوا عن البيت ، فرجع إلى أصحابه فقال : رأيت البُدن قد قلدت وأشعرت ، وما أرى أن يصدوا عن البيت . فقام مكرز بن حفص ، فقال : دعونى آتة . فقالوا : آتته . فلما أشرف عليهم قال النبي صلى الله عليه وسلم : هذا مكرز بن حفص ، وهو رجل فاجر فجعل يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينما هو يكلمه ، إذ جاء سهيل بن عمرو ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

قد سهل لكم من أمركم ، فقال : هات اكتب بيننا وبينكم كتابا . فدعا الكاتب ، فقال : اكتب :
 بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل : أما الرحمن ، فوالله ما ندري ما هو ، ولكن اكتب :
 باسمك اللهم ، كما كنت تكتب . فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا باسم الله الرحمن الرحيم .
 فقال النبي ﷺ : اكتب : باسمك اللهم . ثم قال : اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد رسول
 الله ، فقال سهيل : فوالله ! لو كننا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ،
 ولكن اكتب : محمد بن عبد الله . فقال النبي ﷺ : إني رسول الله وإن كذبتهموني !
 اكتب : محمد بن عبد الله . فقال النبي ﷺ : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فطوف به
 فقال سهيل : والله ! لا تتحدث العرب أننا أخذنا ضغطة ، ولكن لك من العام المقبل ، فكتب
 فقال سهيل : على أن لا يأتيتك منا رجل ، وإن كان على دينك ، إلا رددته إلينا . فقال المسلمون
 سبحان الله ! كيف يرد إلى المشركين ، وقد جاء مسلماً ؟ ! فبيناهم كذلك إذ جاء أبو جندل
 ابن سهيل يرسف في قيوده ، قد خرج من أسفل مكة ، حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين .
 فقال سهيل : هذا يا محمد أول من قاضيتك عليه أن ترد ، فقال النبي ﷺ : إنا لم نقض
 الكتاب بعد ، فقال : فوالله ! إذن لا أصالحك على شيء أبداً . فقال النبي ﷺ : فأجره لي
 قال : ما أنا بمجيره لك ، قال : بلى ، فافعل . قال ما أنا بفاعل . قال مكرز : قد أجزنا مالك .
 فقال أبو جندل : يامعشر المسلمين ! أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ، ألا ترون ما لقيت -
 وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله - قال عمر بن الخطاب : والله ! ما شككت منذ أسلمت
 إلا يومئذ ، فأتيت النبي ﷺ فقلت : يارسول الله ! ألسنت نبى الله ؟ قال : بلى ! قلت :
 أسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ! فقلت : على م نعطى الدنية في ديننا ، وزجع
 ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا ؟ فقال : إني رسول الله ، وهو ناصري ، ولست أعصيه . قلت :
 أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ! فأخبرت أنك تأتية العالم ؟
 قلت : لا ! قال : فإنك آتية ، وتطوف به ! قال فأتيت أبا بكر ، فقات له كما قلت لرسول الله
 ﷺ ، ورد عليه أبو بكر كإرد رسول الله ﷺ سواء ، وزاد : فاستمسك بفرزه حتى تموت

فوالله ! إنه لعلى الحق . قال عمر : فعملت لذلك أعمالاً . فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ : قوموا وانحروا ثم احلقوا ، فوالله ! ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات ، فلما لم يبق منهم أحد قام فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت أم سلمة : يا رسول الله ! أحب ذلك ؟ اخرج ثم لاتكلم أحداً كلمة حتى تنحر بطنك ، وتدعو خالقك فيخلق لك . فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم ، حتى فعل ذلك : نحر بطنه ، ودعا خالقه فخلقه . فلما رأى الناس ذلك قاموا فتحروا ، وجعل بعضهم يخلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً . ثم جاءت نسوة مؤمنات ، فأنزل الله عز وجل : ^(١) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِهْجِرَاتٍ) حتى بلغ (بِعَصَمِ الْكُوفِرِ) فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك . فتزوج إحداها معاوية ، والأخرى صفوان بن أمية .

ثم رجع إلى المدينة ، وفي مرجعه أنزل الله عليه : ^(٢) (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . . .) الآيات . فقال عمر : أفتح هو يا رسول الله ؟ قال : نعم ! فقال الصحابة : هنيئاً لك يا رسول الله ! فإنا ! فأنزلنا الله عز وجل ^(٣) (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ...) الآية . ولما رجع إلى المدينة جاءه أبو بصير - رجل من قريش - مسلماً ، فأرسلوا في طلبه رجلين ، وقالوا : العهد الذى جعلت لنا ! فدفعه إلى الرجلين ، فخرجا به ، حتى بلغا ذا الحليفة ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى سيفك هذا جيداً ، فاستله الآخر ، فقال : أجل ! والله إنه لجيد ، لقد جربت به ثم جربت . فقال أبو بصير أرني أنظر إليه ، فأمكنه منه ، فضربه حتى برد ، وفرّ الآخر يمدو ، حتى بلغ المدينة ، فدخل المسجد ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه : لقد رأى هذا ذعراً . فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : قُتِل ، والله ! صاحبي ، وإني لمقتول . وجاء أبو بصير فقال : يابني الله ! قد أوفى الله ذمتك ، وقد رددتني إليهم ، فأنجاني الله منهم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

(١) [٦٠ / الممتحنة / ١٠] . (٢) [٤٨ / الفتح / ٤] .

ويل أمه ! مسعر حرب لو كان له أحد . فلما سمع ذلك علم أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، وتلفت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبي بصير ، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصاة . فوالله ! لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوه ، وأخذوا أموالهم . وأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم ، فنأناه منهم فهو آمن ، فأنزل الله عز وجل ^(١) (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ . .) الآية . وجرى الصلح بين المسلمين وأهل مكة على وضع الحرب عشر سنين ، وأن يأمن الناس بعضهم من بعض ، وأن يرجع عنهم عامهم ذلك ، حتى إذا كان العام المقبل ، قدمها ، وخلّوا بينه وبين مكة ، فأقام بها ثلاثاً ، وأنه لا يدخلها إلا سلاح الرأكب ، والسيوف في القرب ، وأن من أنانا من أصحابكم لم ردّه عليك ، ومن أتاك من أصحابنا رددته علينا ، وأن بيننا وبينك عيئة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلal . فقالوا : يا رسول الله ! نعطيهم هذا ؟ فقال : من أناهم منا ، فأبعده الله ، ومن أنانا منهم فرددناه إليهم ، جعل الله له فرجا ومخرجا .

هذا ولينظر تنمة ما في فوائد هذه الغزوة ولطائفها في (زاد المعاد) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ، يَقُولُونَ بِالسِّنَةِ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ، بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) « سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا » قال مجاهد : هم أعراب المدينة ، كجهينة ومزينة ، استتبعهم رسول الله ﷺ لخروجه إلى مكة ، فقالوا : نذهب معه إلى قوم قد جاؤوه ، فقتلوا أصحابه ، فنقاتلهم . فاعتلوا بالشغل . أي سيقولون لك

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٤] .

إذا عاتبتهم على التخلف عنك : شغلنا عن الخروج معك معالجة أموالنا ، وإصلاح معاشنا ، والخوف على أهلنا من الضيعة ، فاستغفر لنا ربنا .

وقوله تعالى : « يَقُولُونَ بِاللَّسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » تكذيب لهم في اعتذارهم ، وأن الذي خلفهم ليس بما يقولون ، وإنما هو الشك في الله ، والنفاق . وكذا طلبهم للاستغفار أيضاً ، ليس بإصدار عن حقيقة ، لأنه بغير توبة منهم . ولا ندم على ماسلف منهم من معصية التخلف . وفيه إيذان بأن اللسان لا عبرة به ، ما لم يكن مترجماً عن الاعتقاد الحق .

« قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا » أى لا أحد ينعمه تعالى من ذلك ، لأنه لا يغالبه غالب . إشارة إلى عدم فائدة استغفاره لهم ، مع بقائهم على كذبهم ونفاقهم ، ولذا هددهم بقوله سبحانه « بَلْ كَانُوا اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » أى فيجازيكم عليه .

لطيفة :

قان الناصر : لا تخلو الآية من الفن المعروف عند علماء البيان باللف . وكان الأصل - والله أعلم - : فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً ، ومن يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعاً . لأن مثل هذه النظم يستعمل في الضر . وكذلك ورد في الكتاب العزيز مطرداً ، كقوله ^(١) « فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ » ^(٢) « وَمَنْ يُرِدْ فِتْنَتَهُ وَفَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا » ^(٣) « فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ » . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث ^(٤) : إني لا أملك لكم شيئاً - يخاطب عشيرته - وأمثاله كثيرة . وسر اختصاصه بدفع المضرة أن الملك مضاف في هذه المواضع باللام ، ودفع المضرة نفع يضاف للمدفع عنه ، وليس كذلك حرمان

(١) [٥ / المائدة / ١٧] . (٢) [٥ / المائدة / ٤١] . (٣) [٤٦ / الأحقاف / ٨]

(٤) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٥٠ (طبعتنا) .

المنفعة ، فإنه ضرر عائد عليه ، لا له . فإذا ظهر ذلك ، فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه ، لأن القسمين يشتركان في أن كل واحد منهما نفي لدفع المقدّر من خير وشر ، فلما تقاربا أدرجهما في عبارة واحدة . وخص عبارة دفع الضر ، لأنه هو المتوقع لهؤلاء ، إذ الآية في سياق التهديد ، أو الوعيد الشديد . وهى نظير قوله ^(١) (قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً) فإن العصمة إنما تكون من السوء لا من الرحمة . فهاتان الآيتان يرامان في التقرير الذى ذكرته - والله أعلم - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا)

[١٣] (وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا)

« بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ » أى اعتقدتم أنه لن يرجع « الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا » أى بل تستأصلهم قريش . « وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ » أى حسن الشيطان ذلك وصححه ، حتى حجب لكم التخلف . « وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا » وهو عدم نصر الرسول ، وعدم رجوعهم من سفرهم هذا . « وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » هالكين ، مستوجبين لسخط الله ، أو فاسدين فى أعمالكم ونياتكم .

« وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا » أى : من النار تستمر عليهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » قال ابن جرير ^(١) : هذا من الله جل ثناؤه حث لهؤلاء الأعراب المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على التوبة والمراجعة إلى أمر الله ، في طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم . يقول لهم : بادروا بالتوبة من تخلفكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله يغفر للتائبين ، لأنه لم يزل ذا عفو عن عقوبة التائبين إليه من ذنوبهم ومماصيهم من عباده ، وذا رحمة بهم أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم منها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوا هَازِرُونَ أَتَتَّبِعُكُمْ ، يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ، قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِّن قَبْلُ ، فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ، بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا)

« سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ » أى بعذر الاشتغال بأموالهم وأهلهم بعد طلبهم الاستغفار لهم « إِذَا انْطَلَقْتُمْ » أى قصدتم السير « إِلَى مَغَائِمٍ » أى أماكنها . قال ابن جرير ^(١) : وذلك ما كان وعد الله أهل الحديبية من غنائم خيبر « هَازِرُونَ » أى اتركونا فى الانطلاق إليها « أَتَتَّبِعُكُمْ » أى نشهد معكم قتال أهلها « يُرِيدُونَ » أى بعد ظهور كذبهم فى الاعتذار ، وطلب الاستغفار « أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ » قال ابن جرير ^(٢) : أى وعد الله الذى وعد

(١) انظر الصفحة رقم ٧٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٠ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أهل الحديبية ، وذلك أن الله جعل غنائم خيبر لهم ، ووعدهم ذلك عوضاً من غنائم أهل مكة ، إذ انصرفوا عنها على صلح ، ولم يصيبوا منهم شيئاً .

وقال آخرون : بل عني بقوله (يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ) إرادتهم الخروج مع نبي الله صلى الله عليه وسلم في غزوة . وقد قال الله تبارك وتعالى في سورة التوبة ^(١) : (فَاسْتَشْذَبُوا النَّبِيَّ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا) والأكثر على الأول . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم رجع من الحديبية في ذى الحجة من سنة ست ، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم ، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ، ففتحها وغنم أموالاً كثيرة ، فخصها بهم .

قال الشراح : وكان ذلك بوحى . ثم كانت غزوة تبوك بعد فتح خيبر ، وبعد فتح مكة أيضاً . وفي منصرفه من تبوك نزل قوله تعالى ^(١) (فَاسْتَشْذَبُوا النَّبِيَّ لِلْخُرُوجِ . . .) الآية . فكيف يحمل على ما كان في غزوة الحديبية ، وقد نزل بعدها بكثير ؟ - والله أعلم .

« قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا » أى إلى خيبر إذا أردنا السير إليهم . وهو نفى في معنى النهى . قال الشهاب : فالخبر مجاز عن النهى الإنشائي ، وهو أبلغ .

« كَذَلِكَ سَمِعُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ » قال ابن جرير ^(٢) : أى من قبل مرجعنا إليكم . إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا ، ولستم ممن شهدا ، فليس لكم أن تتبعونا إلى خيبر ، لأن غنيمة لغيركم « فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا » أى أن نصيب معكم مغنماً إن نحن شهدنا معكم ، فلذلك تمنعوننا من الخروج معكم . قال الشهاب : وهو إضراب عن كونه بحكم الله . أى بل إنما ذلك من عند أنفسكم حسداً .

« بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ » أى عن الله تعالى ما لهم وعليهم من أمر الدين « إِلَّا قَلِيلًا »

(١) [٩ / التوبة / ٨٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أى فهِمًا قَلِيلًا ، وهو ما كَان في أمور الدنيا ، كقوله تعالى ^(١) (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُلْ لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولَىٰ بِأَسِ شَدِيدِ تَقَاتُلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ ، فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ، وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

« قُلْ لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ » أى عن المسير معك « سَتُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولَىٰ بِأَسِ شَدِيدِ » أى يفوق قتال من أقاتلهم ، بحيث لا دخل للصالح والأمن فيه ، بل « تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ » أى يدخلون في الدين من غير حرب ولا قتال . وقرئ شاذًا (أو يسلموا) بمعنى إلا أن يسلموا ، أو حتى يسلموا . « فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا » يعنى الغنيمة في الدنيا ، والجنة في الآخرة « وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ » أى عن الحديبية « يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » أى لتضاعف جرمكم .

ثم خص من هذا الوعيد أصحاب الأعذار ، وإن حدثت بعد التخلف الأول ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ ، وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا)

« لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ » قال المهايى : وإن أمكنه القفال بإحساس صوت مشى

العدوّ ، ومشى فرسه ، لكن يصعب عليه حفظ نفسه عنه . « وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ » أى وإن أمكنه القتال قاعداً ، لكن لا يمكنه الكرّ والفرّ ، ولا يقوى قوة القائم « وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ » أى فإنه وإن أمكنه الإبصار والقيام ، فلا قوة له في دفع العدو ، فضلاً عن الغلبة عليه .

ثم أشار تعالى إلى أن هؤلاء ، وإن فاتهم الجهاد ، لا ينقص ثوابهم إذا أطاعوا الله ورسوله ، بقوله سبحانه « وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُخِلهُ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ مَنْ يَقُولُ » أى عن إطاعتهم ، وإن كان أعمى أو أعرج أو مريضاً « يُعَذِّبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا » أى بالمذلة دنيا ، والنار أخرى .

تنبيه :

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين هم (أولو بأس شديد) - على أقوال :
أحدها - أنهم هوازن .

الثاني - ثقيف ، وكلاهما غزاه النبي صلى الله عليه وسلم .

الثالث - بنو حنيفة الذين تابعوا مسيلة الكذاب ، وغزاهم أبو بكر رضى الله عنه .

الرابع - أهل فارس والروم ، الذين غزاهم عمر رضى الله عنه .

ومثار الخلاف هو عموم ظاهر الآية ، وشمول مصداقها لكل الغزوات المذكورة . ولوعده من الأوجه كفار مكة ، لم يبعد ، بل عندى هو الأقرب ، لأن السين للاستقبال القريب ، فإن هذه السورة نزلت عدة بفتح مكة ، منصرفه ﷺ من الحديبية ، وعلى أثرها كانت غزوة الفتح الأعظم ، التي لم يتخلف عنها من القبائل الشهيرة أحد ، إذ دعاهم النبي ﷺ إلى قتال قريش أو يسلموا ، فكان ما كان من إسلامهم طوعاً أو كرهاً - والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا)

« لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » بمعنى بيعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية ، حين بايعوه على مفازة قريش الحرب ، وعلى أن لا يفرّوا ، ولا يولّوهم الدبر ، تحت شجرة هنالك .

وقد أجمع الرواة في الصحاح على أن الشجرة لم تُعلم بعدُ . ففي الصحيحين ^(١) من حديث أبي عوانة عن طارق ، عن سعيد بن المسيّب قال : كان أبي ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة . قال : فانطلقنا من قابل حاجّين ، نخفي علينا مكانها ، وإن كان بينت لكم ، فأنتم أعلم .

وفيهما أيضا عن سفيان قال : إنهم اختلفوا في موضعها .

وروى ابن جرير ^(٢) عن قتادة ، عن سعيد بن المسيّب قال : كان جدى يقال له (حزن) ، وكان ممن بايع تحت الشجرة ، فأثيناها من قابل ، فعميت علينا .

ثم قال ابن جرير ^(٣) : وزعموا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرّ بذلك المكان بعد أن ذهب الشجرة فقال : أين كانت ؟ فجعل بعضهم يقول : هنا ، وبعضهم يقول : ها هنا ! فلما كثر اختلافهم قال : سيروا ، هذا التكلف ، فذهبت الشجرة ، وكانت سمره ، إما ذهب بها سيل ، وإما شيء سوى ذلك . انتهى .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٣٥ - باب غزوة الحديبية ، حديث ١٨٩٨

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٨٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : روى ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع ؛ أن عمر بلغه أن قوماً يأتون الشجرة ، فيصلّون عندها ، فتوقّدهم ، ثم أمر بقطعها ، فقطعت ! ولا ينافي ما تقدم ، لاحتمال أن هؤلاء علموا مكانها ، أو توهموها ، فاتخذوها مسجداً ، ومكاناً مقدساً ، فقطعها عمر حائثئذ ، صوناً لعقيدتهم من الشرك ، لأن الاجتماع على العبادة حولها يفضي إلى عبادتها بعدد ، كما أفضى نصب الأوثان إلى عبادتها ، وكان أول أمرها لتعظيم مسمياتها ، وإجلال مثال أصحابها .

وقال في (الفتح) أيضاً في شرح حديث ابن عمر ، وقوله : رجعنا من العام المقبل ، فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها . كانت رحمة من الله ، ما مثاله : وقد وافق المسيّب بن حزن ، والد سعيد ، ما قاله ابن عمر من خفاء الشجرة . والحكمة في ذلك أن لا يحصل بها افتتان ، لما وقع تحتها من الخير ، فلو بقيت لما أمن تعظيم بعض الجهال لها ، حتى ربما أفضى بهم إلى اعتقاد أن لها قوة تنفع أو ضرر ، كما نراه الآن مشاهداً فيما هو دونها . وإلى ذلك أشار ابن عمر بقوله (كانت رحمة من الله) أي كان خفاؤها عليهم ، بعد ذلك ، رحمة من الله تعالى . انتهى .

وهذه البيعة تسمى بيعة الرضوان ، سميت لهذه الآية ، وتقدمت قصتها مفصلة .
« فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ » أي من الصدق والعزيمة على الوفاء بالعهد « فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ » أي الصبر والطمأنينة والوقار . « وَأَثْبَتَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا » قال ابن جرير ^(١) : أي وعوّضهم في العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة ، بقتالهم أهلها ، فتحاً قريباً ، وذلك - فيما قيل - فتح خيبر .

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

« وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا » وهي مغانم خيبر ، وكانت أرضاً ذات عقار وأموال ، فقسمها رسول الله ﷺ على أهل بيعة الرضوان خاصة . « وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » أي ذا عزة في انتقامه من أعدائه ، وحكمة في تدبير خلقه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَعَدَ كُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)

« وَعَدَ كُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا » يعني ما بقي عليهم من غنائم الكفار في سبيل الجهاد . « فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ » يعني غنائم خيبر . وأما الغنائم المؤخرة فسائر فتوح المسلمين بعد ذلك الوقت ، إلى قيام الساعة . وقيل : المعجلة هي صلح الحديبية . والصواب هو الأول ، كما قاله ابن جرير ، لأن المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية غنيمة ، ولم يفتحوا فتحاً أقرب من بيعتهم رسول الله ﷺ بالحديبية إليها ، من فتح خيبر وغنائمها . « وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ » أي أيدى أهل خيبر ، فانتصرت عليهم ، أو أيدى المشركين من قريش عنكم في الحديبية . واختار ابن جرير الأول . قال : لأن الثاني سميذكر في قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ . . .) الآية . أي والتأسيس خير من التأكيذ . ولك أن تقول : لا مانع من التأكيذ ، لاسيما في مقام التذكير بالنعم ، والتنويه بشأنها . وتكون الآية الثانية بمثابة التفسير للأولى ، والتبيين لمطلقها - والله أعلم - .

« وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ » أي ولتكون تلك الكفة أو الغنيمة عبرة للمؤمنين ،

يعرفون بها أنهم من الله تعالى بكان ، وأنه ضامن نصرهم ، والفتح لهم . « وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » أى ويزيدكم بصيرة و يقيناً وثقة بفضل الله . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرًا)

« وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا » معطوف على (هَذِهِ) أى فمَجَلَّ لَكُمْ هذه الغنائم ، ومغانم أخرى ، وهى مغانم هوازن فى غزوة حنين ، لأنه قال (لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا) وهذا يدل على تقدم محاولة لها . وقال الحسن : هى فارس والروم . قال القرطبي : وكونها معجزة ، وإن كانت لم تحصل إلا فى عهد عمر ، بالنسبة لما بعدها من الغنائم الإسلامية .

وعن قتادة : هى مكة . قال ابن جرير^(١) : وهذا القول الذى قاله قتادة ، أشبه بما دل عليه ظاهر التنزيل . وذلك أن الله أخبر هؤلاء الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة أنه محيط بقرية لم يقدرُوا عليها . ومعقول أنه لا يقال لقوم ، لم يقدرُوا على هذه المدينة ، إلا أن يكونوا قد راموها فتمعذرت عليهم . فأما وهم لم يروموها فتمتعذر عليهم ، فلا يقال إنهم لم يقدرُوا عليها . فإذا كان ذلك كذلك ، وكان معلوماً أن رسول الله ﷺ لم يقصد قبل نزول هذه الآية عليه ، خيبر لحرب ، ولا وجه إليها لقتال أهلها جيشاً ولا سرية ، علم أن المعنى بقوله (وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا) غيرها ، وأنها هى التى عاجلها ورامها فتمعذرت ، فكانت مكة وأهلها كذلك . وأخبر الله تعالى نبيه والمؤمنين ، أنه أحاط بها وبأهلها . وأنه فاتحها عليهم . انتهى .

وقال القرطبي : معنى (قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا) أى أعدها لكم ، فهى كالشيء الذى أحيط به من جميع جوانبه ، فهو محصور لا يفوت . فأنتم ، وإن لم تقدرُوا عليها فى الحال ، فهى محبوسة

(١) انظر الصفحة رقم ٩٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

عليكم لا تفوتكم . وقيل : (أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا) علم أنها ستكون لكم ، كما قال (وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) . وقيل : حفظها الله عليكم ، ليكون فتحها لكم . انتهى .
وقد جوز في (أُخْرَى) أن تكون معطوفة على (مَغَانِمَ) المنسوب بـ (وَعَدَكُمْ)
وأن تكون مرفوعة بالابتداء و (لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا) صفتها و (قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا) خبر .
وأوجه أخر .

« وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا » أى : لا يبعد عليه إذا شاء .

ثم أشار تعالى إلى تبشير أهل بيعة الرضوان بالظفر والنصر المستمر ، لصدق إيمانهم ،
وإخلاصهم فى ثباتهم ، وإشارهم مرضاة الله ورسوله على كل محبوب ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَلَوْ قَتَلْتَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

[٢٣] (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ، وَلَنَ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)

« وَلَوْ قَتَلْتَكُمْ » أى بعد هذا الفتح والنصر المعجل « الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرَ » أى ولوكم أعجازهم فى الحرب ، فعل المنهزم من قرنه فى الحرب . « ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » أى من يوالىهم على حربكم ، وينصرهم عليكم .

« سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ » أى مضت فى كفار الأمم السالفة مع مؤمنىها .
« وَلَنَ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » أى تغييراً .

قال ابن جرير ^(١) : بل ذلك دائم . للإحسان جزاؤه من الإحسان ، وللإساءة والسكر العقاب والنكال .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحابى الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)

« وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ » أى قضى بينهم وبينكم المكافاة والمجازة ، بعد ما خولكم الظفر عليهم والغلبة . إشارة إلى منة الصلح ونعمته في الحديبية ، وأن ذلك عناية منه تعالى بما حفظ من أنفسهم وأموالهم ، ولطف بهم يومئذ لما ادخر لهم بعده .

وقد ذهب بعضهم إلى أنه عنى بهذا الكف ، ما كان يوم الفتح . ونظر فيه بأن السورة نزلت قبله .

وقال ابن إسحاق : حدثني من لا أتهم عن عكرمة مولى ابن عباس ؛ أن قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين ، وأمروهم أن يطوفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أخذاً ، فأخذوا أخذاً . فأتى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعفا عنهم ، وخلي سبيلهم . وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة والنبل . قال ابن إسحاق : ففى ذلك قال (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ...) الآية .

وروى ابن جرير^(١) عن مجاهد قال : أقبل معتمراً نبي الله صلى الله عليه وسلم . فأخذ أصحابه ناساً من أهل الحرم غافلين ، فأرسلهم النبي صلى الله عليه وسلم . فذلك الإظفار ببطن مكة .

قال قتادة : بطن مكة ، الحديبية .

« وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا » أى فيجازيكم عليه .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلُّهُ ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّشُّوهُمْ فَتَضَيَّبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

« هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى هؤلاء المشركون من قريش ، هم الذين جحدوا توحيد الله « وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ » أى وصدوا الهدى أيضاً ، وهو ما يهدى إلى مكة من النعم « مَعْكُوفًا » أى محبوساً . قال السمين : عكفت الرجل عن حاجته ، إذا حبسته عنها . وأنكر الفارسي تعدية (عكف) بنفسه ، وأثبتها ابن سيده والأزهري وغيرهما ، وهو ظاهر القرآن ، لبناء اسم المفعول منه . انتهى .

وقوله تعالى « أَنْ يَبْلُغَ مَحِلُّهُ » قال ابن جرير^(١) : أى محل نحره . وذلك دخول الحرم ، والموضع الذى إذا صار إليه حلّ نحره ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ساق معه حين خرج إلى مكة فى سفرته تلك ، سبعين بدنة .

وفى الآية دليل على أن محل ذبح الهدى ، الحرم .

« وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ » أى موجودون بمكة مع الكفار « لَمْ تَعْلَمُوهُمْ » أى بصفة الإيمان وهم بمكة ، حسبهم المشركون بها عنكم ، فلا يستطيعون من أجل ذلك الخروج إليكم . « أَنْ تَطَّشُّوهُمْ » أى تفتلوهم مع الكفار ، لو أذن لكم فى الفتح بدل الصلح . قال السمين : (أَنْ تَطَّشُّوهُمْ) يجوز أن يكون بدلاً من (رِجَالٌ وَنِسَاءٌ) غلب الذكور ، وأن يكون بدلاً من مفعول (تَعْلَمُوهُمْ) . فالتقدير على الأول (ولولا وطء

(١) انظر الصفحة رقم ٩٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

رجال ونساء غير معلومين) . وتقدير الثاني (لم تعلموا وطأهم) والخبر محذوف تقديره (ولولا رجال ونساء موجودون ، أو بالحضرة) . انتهى .

« فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ » أى إثم وغرامة . من (عرّه) إذا عراه ما يكرهه . وقوله « بغير علم » حال من الضمير المرفوع فى (تَطْشُوهُمْ) أى تطؤوهم غير عالين بهم . وفى جواب (لَوْلَا) أقوال :

أحدها - أنه محذوف لدلالة الكلام عليه . والمعنى ولولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين ظهرائى المشركين ، وأنتم غير عارفين بهم ، فيصيبكم بإهلاكم مكرهه ومشقة ، لما كف أيديكم عنهم ، ولأذن اسمكم فى دخول مكة مقاتليهم .
والثانى - أنه مذكور ، وهو (لَعَدَبْنَا) وجواب (لو) هو المحذوف . فحذف من الأول لدلالة الثانى ، ومن الثانى لدلالة الأول .

والثالث - أن قوله (لَعَدَبْنَا) جوابهما معاً ، وهو بعيد إن أريد حقيقة ذلك .
وذكر الزمخشري قريباً من هذا فإنه قال : ويجوز أن يكون (لَوْ تَزَيَّلُوا) كالسكرير ل (لَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ) لرجعهما لمعنى واحد ، ويكون (لَعَدَبْنَا) هو الجواب . ومنع الشيخ رجوعهما لمعنى واحد ، قال : لأن ما تعلق به الأول غير ما تعلق به الثانى - أفاده السمين - .

وأجاب الفاصر بقوله : وإنما كان مرجعهما ههنا واحداً ، وإن كانت (لولا) تدل على امتناع لوجود ، و (لو) تدل على امتناع لامتناع . وبين هذين تناف ظاهر ، لأن (لولا) ههنا دخلت على وجود ، و (لو) دخلت على قوله (تَزَيَّلُوا) وهو راجع إلى عدم وجودهم . وامتناع عدم الوجود وجود . فبالا إلى أمر واحد من هذا الوجه . قال : وكان جدى رحمه الله يختار هذا الوجه الثانى ، ويسميه تطرية . وأكثر ما تكون إذا تناول الكلام ، وبعد عهد أوله ، واحتيج إلى رد الآخر على الأول ، فرة يطرى بلفظه ، ومرة بلفظ آخر يؤدي مؤداه ، وقد تقدمت لها أمثال .

تنبيه :

فسر ابن إسحاق (المعرة) بالدية ، ذهاباً إلى أن دار الحرب لا تمنع من ذلك . وهو مذهب الشافعي . وذهب غيرها إلى أنها تمنع من ذلك ، ومنهم ابن جرير ^(١) حيث قال : (المعرة) هى كفارة قتل الخطأ ، وذلك عتق رقبة مؤمنة لمن أطاق ذلك ، ومن لم يطق فصيام شهرين . قال : وإنما اخترت هذا القول ، دون القول الذين قاله ابن إسحاق ، لأن الله إنما أوجب على قاتل المؤمن فى دار الحرب - إذا لم يكن هاجر منها ، ولم يكن قاتله علم إيمانه - الكفارة دون الدية فقال (فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ) لم يوجب على قاتله خطأ ديته ، فلذلك قلنا : عنى بالمعرة فى هذا الموضع الكفارة . انتهى .

« لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ » متعلق بما يدل عليه الجواب المحذوف ، كأنه قيل عقيبهِ : لكن كفها عنهم ، ولم يأذن لكم فى مقاتلتهم ، ليدخلكم فى رحمته الكاملة ، بحفظكم من المعرة . وقد جوز أن يكون (مَنْ يَشَاءُ) عبارة عن رغب فى الإسلام من المشركين ، وعليه اقتصر ابن جرير ^(١) ، قال : أى ليدخل الله فى الإسلام من أهل مكة من يشاء ، قبل أن تدخلوها . وناقش فيه أبو السعود بأن ما بعده من فرض التزليل وترتيب التعذيب عليه ، ياباه .

« لَوْ تَزَيَّلُوا » أى لوتميز مشركو مكة من الرجال المؤمنين ، والنساء المؤمنات ، الذين لم تعلموهم منهم « لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » أى بالقتل أو الأسر أو نوع آخر من العذاب الآجل .

تنبيه :

قال إلكيا الهراسى : فى الآية دليل على أنه لا يجوز حرق سفينة الكفار ، إذا كان فيها أسرى من المسلمين ، وكذلك رمى الحصون إذا كانوا بها ، والكفار إذا ترسوا بهم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

« إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ » قال ابن جرير^(١) : وذلك حين جعل سهيل بن عمرو في قلبه الحمية ، فامتنع أن يكتب في كتاب المقاضاة الذي كتب بين رسول الله ﷺ والمشركين (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ، وأن يكتب فيه (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله ﷺ عامه ذلك . والعامل في الظرف إما (لعذبنا) أو (صدوكم) أو (اذكر) مقدراً ، فيكون مفعولاً به . و (الحمية) الأنفة ، وهى الاستكبار والاستنكاف ، مصدر من (حمى من كذا) حمية .

وقوله تعالى « فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ » عطف على منوى . أى : فهم المسلمون أن يأبوا ذلك ، ويقاتلوا عليه ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين . يعنى : الوقار والتثبت ، حتى صالحوهم على أن يعودوا من قابل ، وعلى ما تقدم . « وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى » أى اختارها لهم ، فالإلزام مجاز عما ذكر من اختيارها لهم ، وأمرهم بها .

« وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا » قال أبو السعود : أى متصفين بمزيد استحقاق لها . على أن صيغة التفضيل للزيادة مطلقاً . وقيل : أحق بها من الكفار . « وَأَهْلَهَا » أى المستأهل لها . « وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » . قال أبو السعود : أى فيعلم حق كل شيء ، فيسوقه إلى مستحقه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ، لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ،
فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا)

« لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ » .

قال ابن جرير^(١) : أى لقد صدق الله رسوله محمدًا رؤياه التى أراها إياه أنه يدخل هو
وأصحابه بيت الله الحرام آمنين ، لا يخافون أهل الشرك ، مقصرًا بعضهم رأسه ، ومحلقًا بعضهم .
ثم روى عن مجاهد أنه قال : أرى بالحديبية أنه يدخل مكة وأصحابه محلقين ، فقال أصحابه
حين نحر بالحديبية : أين رؤيا محمد صلى الله عليه وسلم ؟

وعن ابن زيد قال : قال لهم النبى ﷺ : إني قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام
محلقين رؤوسكم مقصرين ، فلما نزل بالحديبية ، ولم يدخل ذلك العام ، طعن المنافقون فى ذلك
فقالوا : أين رؤياه ؟ فقال الله (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ ...) الآية ، إني لم أره يدخلها هذا
العام ، وليسكون ذلك . و (الرُّؤْيَا) منصوب بنزع الخافض ، أى صدقه فى رؤياه . أى حقق
صدقها عنده ، كما هو عادة الأنبياء عليهم السلام ، ولم يجعلها أضغاث أحلام . أو منصوب
على أنه مفعول ثان ، وهو ما قاله السكرماني ، وعبارته : (كذب) يتعدى إلى مفعولين ،
يقال : كذبتى الحديث ، وكذا (صدق) كما فى الآية . وهو غريب لتعدى المثلث لواحد ،
والخفف لمفعولين .

وقوله (بِالْحَقِّ) حال من الرؤيا . أى متلبسة بالحق ، ليست من قبيل أضغاث الأحلام .
وقوله (لَتَدْخُلَنَّ) جواب قسم محذوف . أى : والله ! لتدخلن .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقوله (إِنْ شَاءَ اللَّهُ) تعليق للعدة بالمشيئة ، لتعليم العباد . أو للإشعار بأن بعضهم لا يدخل ، فهو في معنى : ليدخلته من شاء الله دخوله منكم . أو حكاية لما قاله ملك الرؤيا ، أو النبي ﷺ لأصحابه .

وقوله (مُحَلِّقِينَ) حال مقدرة ، لأن الدخول في حال الإحرام ، لا في حال الحلق والتقصير . وفي الكلام تقدير ، أو هو من نسبة ما للجزء إلى الكل . والمعنى : محلقاً بعضكم ، ومقصراً آخرون . والقرينة عليه : أنه لا يجتمع الحلق والتقصير ، فلا بد من نسبة كل منهما لبعض منهم .

وثبت في الصحيح ^(١) أن رسول الله ﷺ قال : رحم الله المحلقين ! قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : رحم الله المحلقين ! قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : رحم الله المحلقين ! قالوا : والمقصرين يا رسول الله ! قال : والمقصرين !

وقوله تعالى (لَا تَخَافُونَ) حال مؤكدة لقوله (ءَامِنِينَ) أو مؤسسة ، لأن اسم الفاعل للحال والمضارع الاستقبال ، فيكون أثبت لهم الأمن حال الدخول . ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد ، لا يخافون من أحد .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا كان في عمرة القضاء ، في ذى القعدة سنة سبع ، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذى القعدة ، رجع إلى المدينة ، فأقام بها ذا الحجة والمحرم ، وخرج في صفر إلى خيبر ، ففتحها الله عليه . وبعضها عنوة ، وبعضها صلحاً ، وهي إقليم عظيم ، كثير الفحل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها ، على الشطر ، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهدوا أحد غيرهم ، إلا الذين قدموا من الحبشة : جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، وأبو موسى الأشعري وأصحابه رضي الله عنهم ، ولم يغب منهم أحد . قال ابن زيد : إلا أبا دجانة سماك بن خرشة ، كما هو مقرر في موضعه . ثم رجع المدينة ،

(١) أخرجه مسلم في : ١٥ كتاب الحج ، حديث رقم ٣١٨ (طبعنا) .

فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع ، خرج ﷺ إلى مكة معتمراً ، هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذي الحليفة ، وساق معه الهدى . قيل : كان ستين بدنة . فلبى ، وسار وأصحابه يلبون ، قريباً من مر الظهران ، بعث محمد بن سلمة بالخيول والنسلح أمامه ، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً ، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه ، من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا فأخبروا أهل مكة . فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران ، حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج ، وسار بالسيوف إلى مكة معمدة في قربها ، كما شارطهم عليه . فلما كان في أثناء الطريق ، بعث قريش مكرز بن حفص فقال : يا محمد ! ما عرفناك تنقض العهد ! فقال ﷺ : وما ذاك ؟ قال : دخلت علينا بالسلاح ، القسي والرماح ! فقال ﷺ : لم يكن ذلك ، وقد بعثنا به إلى يأجج ؟ فقال : بهذا عرفناك ، بالبر والوفاء . وخرجت رؤوس الكفار من مكة ، لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه رضي الله عنه ، غيظاً وحققاً . وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ، ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فدخلها عليه الصلاة والسلام ، وبين يديه أصحابه يلبون ، والهدى قد بعثه إلى ذي طوى ، وهو راكب ناقته القصواء ، التي كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله ابن رواحة الأنصاري أخذ بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول :

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| باسم الذي لا دينَ إلا دينُهُ | باسم الذي محمد رسولُهُ |
| خلوا بني الكفار عن سبيلِهِ | اليوم نصر بكم على تأويلِهِ |
| كما ضربناكم على تنزيلِهِ | ضرباً يُزيل الهامَ عن مقيلِهِ |
| ويُذهل الخليلَ عن خليلِهِ | قد أنزل الرحمنُ في تنزيلِهِ |
| في صحف تُتلى على رسولِهِ | بأب خير القتل في سبيلِهِ |

يا رب ! إني مؤمن بِمِيقِلِهِ

وروى الإمام أحمد ^(١) من طريق أبي الطفيل عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما نزل من الظهران في عمرته ، بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشاً تقول: ما يتباعثون من العَجَف! فقال أصحابه: لو انتحرنّا ، من ظهرينا ، فأكلنا من لحمه ، وحَسَوْنَا من مرّقه ، أصبحنا غداً حين ندخل على القوم ، وبنا جَمَامَةً . قال صلى الله عليه وسلم : لا تفعلوا ، ولكن اجمعولى من أزوادكم ، فجمعوا له ، وبسطوا الأنطاع ، فأكلوا حتى تولوا ، وحشا كل واحد منهم في جرابه . ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل المسجد ، وقعدت قريش نحو الحجر فاضطبع صلى الله عليه وسلم بردائه ، ثم قال : لا يرى القوم فيكم غمزة ، فاستلم الركن ، ثم دخل حتى إذا تميم بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود ، فقالت قريش : ما يرضون بالمشى إنهم لَيَنْفِزُونَ نَقَرَ الظباء ! ففعل ذلك ثلاثة أطواف ، فكانت سنة .

قال أبو الطفيل : فأخبرني ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك في حجة الوداع .

وروى أحمد ^(٢) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة ، وقد وهنتهم حُمَى يثرب ، ولقوا منها سوءاً ، فقال المشركون : إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب ، ولقوا منها شراً ، وجلس المشركون من الناحية التي تلى الحجر ، فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على ما قالوا ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، ليرى المشركون جَلَدَهُمْ . قال ، فرملوا ثلاثة أشواط ، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين ، حيث لا يرام المشركون . وفي رواية : ولم يمنع النبي صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٠٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٧٨٣ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٩٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٦٨٦ (طبعة المعارف) .

وفي ابن كثير زيادة من الأحاديث في هذا الباب ، فليراجعها من أحب الزيادة .
وقوله تعالى « فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا » أى من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ،
ودخولكم إليها ، عاممكم ذلك .

قال ابن جرير ^(١) : وذلك علمه تعالى ذكره بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين لم
يعلمهم المؤمنون ، ولو دخلوها في ذلك العام لو طئوهم بالخيول والرّجل ، فأصابتهم منهم معرفة
بغير علم ، فردهم الله عن مكة من أجل ذلك . وليدخل في رحمته من يشاء ممن يريد أن يهديه .
« فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ » أى قبل دخولكم الذى وعدتم به في رؤيا النبي صلى الله
عليه وسلم « فَتَحًا قَرِيبًا » يعنى الصلح الذى جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين
مشركي قريش ، أو فتح خير ، لتستروح إليه قلوب المؤمنين ، إلى أن يتيسر الفتح الموعود .
وإلى الأوا، ذهب الزهرى ، قال : يعنى صلح الحديبية . وما فتح في الإسلام فتح كان أعظم
منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهدنة ، وضعت الحرب وأمن الناس
كلهم بعضهم بعضاً ، فالتقوا ، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يكلم أحد بالإسلام ، يعقل
شيئاً ، لإدخال فيه . فلقد دخل في تينك السنتين في الإسلام مثل من كان في الإسلام قبل
ذلك وأكثر . ووافقه مجاهد وإلى الثانى ذهب ابن زيد .

قال ابن جرير : والصواب أن يعم فيقال : جعل الله من دون ذلك كليهما .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ
كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا)

« هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ » أى البيان الواضح « وَدِينِ الْحَقِّ »
أى الإسلام .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقال المهايى : (بِأَلْهَدَى) أى الدلائل القطعية (وَدِينِ الْحَقِّ) أى الاعتقادات الصائبة المطابقة لما هو الواقع أشد مطابقة .

وقال ابن كثير : أى بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل . فالعلم الشرعى صحيح ، والعمل الشرعى مقبول ، فإخباراتها حق ، وإنشاءاتها عدل . « لِيُظْهِرَهُ » أى ليعلمه « عَلَى الدِّينِ كَيْدِهِ » قال ابن جرير^(١) : أى ليبطل به الملل كلها ، حتى لا يكون دين سواه . وذلك حين ينزل عيسى ابن مريم ، فيقتل الدجال ، فينبذ تبطل الأديان كلها ، غير دين الله الذى بعث به محمداً صلى الله عليه وسلم ، ويظهر الإسلام على الأديان كلها . انتهى .

وقال ابن تيمية : قد أظهره الله علماً وحجة وبيانا على كل دين ، كما أظهره قوة ونصراً وتأييداً ، وقد امتلأت الأرض منه ومن أمته فى مشارق الأرض ومغاربها ، وسلطانهم دائم لا يقدر أحد أن يزله ، كما زال ملك اليهود ، وزال ملك من بعدهم عن خيار الأرض وأوسطها . انتهى .

« وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا » أى على أن ما وعده من إظهار دينه على جميع الأديان أو الفتح أو المغانم كائن . قال الحسن : شهد لك على نفسه أنه سيظهر دينك على الدين كله .

قال ابن جرير^(١) : وهذا إعلام من الله تعالى نبيه ﷺ ، والذين كرهوا الصلح يوم الحديبية من أصحابه ؛ أن الله فاتح عليهم مكة وغيرها من البلدان ، مسلمهم بذلك عما نالهم من الكآبة والحزن ، بانصرافهم عن مكة قبل دخولها ، وقبل طوافهم بالبيت .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (سُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاءُ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)

« سُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ » أى أصحابه « أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » أى لهم شدة وغلظة على الكفار المحاربين لهم ، الصادقين عن سبيل الله ، وعندهم تَرَأَوْهُمْ فيما بينهم ، كقوله تعالى (١) (أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

لطائف

الأولى - جوز في (سُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) أن يكونا مبتدأ وخبراً ، وأن يكون (رَسُولُ اللَّهِ) صفة ، أو عطف بيان ، أو بدلاً ، (وَالَّذِينَ مَعَهُ) عطف عليه . وخبرها (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ) .

الثانية - قال الشهاب : قوله تعالى (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) تكميل ، لو لم يذكر لربما توهم أنهم لا يعتيادهم الشدة على الكفار قد صار ذلك لهم سجية في كل حال ، وعلى كل أحد . فلما قيل (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) اندفع ذلك التوهم ، فهو تكميل واحتراس ، كما في الآية المتقدمة ، فإنه لما قيل (أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) ربما توهم أن مفهوم القيد غير معتبر ، وأنهم موصوفون

بالذل دائماً ، وعند كل أحد ، فدفع بقوله (أَعَزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) فهو كقوله :
حليمٌ إذا ما الحلمُ زينَ أهلهُ على أنه عند العدو مهيبٌ

الثالثة - قال المهايمي : تفيد الآية أن دين الحق قد ظهر في أصحابه صلوات الله عليه ،
إذا اعتدلت قوتهم الفضبية ! بتبعية اعتدال المفكرة والشهوية ، إذ هم أشداء على الكفار ،
لرسوخهم في صحة الاعتقاد ، بحيث يغارون على من لم يصح اعتقاده ، رحماء بينهم ، لعدم
ميلهم إلى الشهوات . هذا باعتبار الأخلاق ، وأما باعتبار الأعمال ، فانت « تَرَاهُمْ رُكَّعًا
سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا » قال ابن كثير : وصفهم بكثرة العمل ، وكثرة
الصلاة ، وهي خير الأعمال . ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل ، والاحتساب عند الله
تعالى جزيل الثواب ، وهو الجنة المشتعلة على فضل الله عز وجل ، وهو سعة الرزق عليهم
ورضاه تعالى عنهم ! وهو أكبر من الأولى ، كما قال جل وعلا^(١) (وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ
أَكْبَرُ) انتهى .

« سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ » مبتدأ وخبر ، أي علامتهم كائنة فيها . وقوله تعالى « مِّنْ
أَثَرِ السُّجُودِ » بيان للسيا ، كأنه قيل : سيماهم التي هي أثر السجود . أو حال من المستكن
في (وجوههم) .

قال الشهاب : وهي على ما قبله خبر مبتدأ تقديره : هي من أثر السجود . انتهى .
وهل الوجوه مجاز عن الذوات ، أو حقيقة ؟ في معناها تأويلان للسلف ، فعن ابن عباس
(سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ) يعني السمات الحسن . وقال مجاهد وغير واحد ، يعني الخشوع
والتواضع . وقال منصور لمجاهد : ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه ، فقال مجاهد ، ربما كان
بين عيني من هو أفسى قلباً من فرعون . وقال بعض السلف : من كثرت صلاته بالليل ، حسن وجهه
بالنهار . وقد رفعه ابن ماجه . والصحيح أنه موقوف . وقال بعضهم : إن للحسنة لنوراً في القلب ،

(١) [٩ / التوبة / ٧٢] .

وضياء في الوجه ، وسعة في الرزق ، ومحبة في قلوب الناس . وقال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه : ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه . وروى الطبراني مرفوعاً : ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر - وإسناده واهٍ ، لأن فيه العزيمى وهو متروك . -

وروى الإمام أحمد^(١) عن أبي سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال : لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ، ليس لها باب ولا كوة ، لخرج عمله للناس كأنما ما كان .

وأخرج أيضاً^(٢) عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : إن الهدى الصالح ، والسمت الصالح والاقتصاد ، جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة . ورواه أبو داود أيضاً .

والتأويل الثانى فى الآية ، أن ذلك آثار ترى فى الوجه من ثرى الأرض ، أو ندى الطهور . روى ذلك عن ابن جبير وعكرمة . وقد كان ذلك فى العهد النبوى ، حيث لافراش للمسجد إلا ترابه وحصباؤه .

وكل من المعنيين من (سيمَاهُمْ) رضى الله عنهم وأرضاهم .
وقوله تعالى « ذَلِكَ » أى الوصف « مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ » أى صفتهم المعجبية فيها « وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ » أى فراخه أو سنبله أو نباته « فَآزَرَهُ » أى قوّاه « فَاسْتَفْلَظَ » أى فغلظ الزرع واشتمد . فالسين للمبالغة فى الغلظ ، أو صار من الدقة إلى الغلظ « فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ » أى استقام على قصبه . و (السوق) جمع ساق « يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ » أى يعجب هذا الزرع الذى استلفظ فاستوى على سوقه فى تمامه ، وحسن نباته ، وبلوغه وانتهائه ، الذين زرعوه . وقوله تعالى « لَيَغْفِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ » تعليل لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وقوتهم ، كأنه قيل : إنما قوّاهم وكثّرتهم ليغفّظ بهم الكفار .

- (١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .
(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٩٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ٢٦٩٨ (طبعة المعارف) .

لطائف :

الأولى : يجوز في قوله تعالى (وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ) وجهان :
أحدهما - أنه مبتدأ ، وخبره (كَزَرْعٍ) فيوقف على قوله (فِي التَّوْرَةِ) فهما مثلاً ،
وإليه ذهب ابن عباس .

والثاني - أنه معطوف على (مَثَلُهُمْ) الأول ، فيكون مثلاً واحداً في الكتابين ،
ويوقف حينئذ على (فِي الْإِنجِيلِ) ، وإليه نحا مجاهد والفرّاء ، ويكون قوله (كَزَرْعٍ)
على هذا فيه أوجه :

أحدها - أنه خبر مبتدأ مضمّر . أى مثلهم كزراع ، فسر به المثل المذكور في الإنجيل .

الثاني - أنه حال من الضمير في (مَثَلُهُمْ) أى مماثلين زرعاً هذه صفته .

الثالث - أنه نعت مصدر محذوف ، أى تمثيلاً كزراع - ذكره أبو البقاء . -

قال الزخسريّ : ويجوز أن يكون (ذَلِكَ) إشارة مبهمّة أوضحت بقوله (كَزَرْعٍ)
كقوله ^(١) (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـؤُلَاءِ) - أفاده السمين . -

الثانية - قال السمين : الضمير المستتر في (فَآزَرَهُ) للزرع ، والبارز للشطء . وعكس
النسفيّ ، فجعل المستتر للشطء ، والبارز للزرع . أى أقوى الشطء بكثافة الزرع وكثافته
كثرة فروعه وأوراقه . قال الجمل : وما صنعه النسفيّ أنسب ، فإن العادة أن الأصل يتقوّى
بفروعه ، فهي تعينه وتقوّيه .

الثالثة - قال السمين : (يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ) حال . أى حال كونه معجباً ، وهنا تمّ المثل .

الرابعة - قال الزخسريّ : هذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام ، وترقيّه في الزيادة ،
إلى أن قوى واستحكم ، لأن النبيّ ﷺ قام وحده ، ثم قواه الله بمن آمن معه ، كما يقوّى
الطاقة الأولى من الزرع ، ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع .

وهذا ما قاله البغوي من أن (الزرع) محمد ، و (الشطاء) أصحابه والمؤمنون ، فجعلوا التمثيل للنبي ﷺ وأمته .

وأما القاضي فجعله مثلاً للصحابه فقط . وعبارته : وهو مثل ضربه الله تعالى للصحابه ، قلوا في بدء الإسلام ، ثم كثروا واستحكموا ، فترقى أمرهم ، بحيث أعجب الناس . قال الشهاب : ولكل وجهه .

الخامسة - قال ابن كثير : من هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله عليه ، في رواية عنه ، تكفير الروافض الذين يغضون الصحابة رضي الله عنهم . قال : لأنهم يغيظونهم ، ومن غاظ الصحابة ، فهو كافر لهذه الآية . ووافقه طائفة من العلماء على ذلك - انتهى كلام ابن كثير - . ولا يخفك أن هذا خلاف ما اتفق عليه المحققون من أهل السنة والجماعة من أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة ، كما بسط في كتب العقائد ، وأوضحه النووي في شرح (مقدمة مسلم) ، وقبله الإمام الغزالي في كتابه (فيصل التفرقة) . وقد كان من جملة البلاء في القرون الوسطى التسرع من الفقهاء بالكفير والزندقه . وكما أريقت دماء في سبيل التعصب لذلك ، كما يمر كثير منه بقرى التاريخ . على أن كلمة الأصوليين اتفقت على أن المجتهد كيفما كان ، مأجور غير مأزور ، ناهيك بمسألة عدالتهم المتعددة أقوالها ، حتى في أصغر كتاب في الأصول كمثل (جمع الجوامع) . نعم ، إن التطرف والغلو في المباحث ليس من شأن الحكماء المصنفين . وإذا اشتد البياض صار برصاً .

«وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا» أي صدقوا الله ورسوله «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً» أي عفواً عما مضى من ذنوبهم ، وسيء أعمالهم ، بحسنها . «وَأَجْرًا عَظِيمًا» أي ثواباً جزيلاً ، وهو الجنة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٩ - سورة الحجرات

قال المهايى: سميت بها لدلالة آيتها على سلب إنسانية من لا يعظم رسول الله غاية التعظيم ، ولا يحترمه غاية الاحترام . وهو من أعظم مقاصد القرآن .
وهى مدنية ، وآيها ثمان عشرة .
وقد انفردت هذه السورة بأداب جميلة ، أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به نبيه ﷺ ، من التوقير والتبجيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » قال ابن جرير^(١) : أى يا أيها الذين أقرؤا بوحداية الله ، ونبوة نبيه ﷺ ، لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم ، قبل أن يقضى الله لكم فيه ورسوله ، فتقضوا بخلاف أمر الله ، وأمر رسوله . محكى عن العرب : فلان يقدم بين يدي إمامه ، بمعنى يعجل الأمر والنهي دونه . انتهى . و (تُقَدِّمُوا) إما متعد حذف مفعوله ، لأنه أريد به العموم ، أو أنه نزل منزلة اللازم لعدم القصد إلى المفعول ، كما تقول : فلان يعطى ويمنع . أو هو لازم ، فإن (قدم) يرد بمعنى (تقدم) كبين ، فإنه متعد ، ويكون لازماً بمعنى تبين . وفى هذه الجملة تجوزان :

أحدها - فى (بين اليدين) ، فإن حقيقته ما بين العضوين ، فتجوز بهما عن الجهتين المقابلتين لليمين والشمال ، قريباً منه بإطلاق اليدين على ما يجاورها ويحاذيهما . فهو من المجاز المرسل ، ثم استعيرت الجملة استعارة تمثيلية للقطع بالحكم بلا اقتداء ، ومتابعة لمن يلزم متابعتها ، تصويراً لهيجته وشناعته ، بصورة المحسوس ، كتقدم الخادم بين يدي سيده فى مسيره ، فنقلت العبارة الأولى ، بما فيها من المجاز ، إلى ما ذكر ، على ما عرف فى أمثاله - هذا محصل ما فى (الكشاف) و (شروحه) .

(١) انظر الصفحة رقم ١١٦ من الجزء السادس والعشرين .

قال ابن كثير : معنى الآية : لا تسرعوا في الأشياء قبله ، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور ، حتى يدخل في عموم هذا الأدب حديث معاذ رضى الله عنه . قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن : بم تحكم؟ قال : بكتاب الله تعالى . قال ﷺ : فإن لم تجد؟ قال : بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ﷺ : فإن لم تجد؟ قال رضى الله عنه : أجتهد رأيي ! فضرب في صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى رسول الله . وقد رواه أحمد^(١) وأبو داود^(٢) والترمذي^(٣) وابن ماجه^(٤) . والغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه قبل البحث عنهما ، لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله . انتهى .

وقد جوز أن يكون المراد (بين يدي رسول الله) وذكر (الله) لبيان قوة اختصاصه به تعالى ، ومنزلته منه ، تمهيداً وتوطئة لما بعده . وقد أيد هذا ، بأن مساق الكلام لإجلاله صلى الله عليه وسلم .

تنبيه :

قال ابن جرير : بضم التاء من قوله (لَا تُقَدِّمُوا) قرأ قراءة الأمصار ، وهى القراءة التى لأستجيز القراءة بخلافها ، لإجماع الحجة من القراءة عليها . وقد حكى عن العرب : قدمت فى كذا وتقدمت فى كذا . فعلى هذه اللغة لو كان قيل (لا تقدموا) بفتح التاء ، كان جازماً . انتهى . وبه قرأ يعقوب فيما نقل عنه .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٣٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه فى : ٢٣ - كتاب الأفضية ، ١١ - باب اجتهد الرأى فى القضاء ،

حديث رقم ٣٥٩٢

(٣) أخرجه فى : ١٣ - كتاب الأحكام ، ٣ - باب حدثنا هناد ، حديث رقم ١٣٢٧

(٤) لم يخرج به ابن ماجه .

« وَأَتَّقُوا اللَّهَ » أى فى التقديم أو مخالفة الحكم . والأمر بالتقوى على أثر ما تقدم ، بمنزلة قولك للمقارف بعض الرذائل : لاتفعل هذا ، وتحفظ مما يلصق العار بك . فتنهاه أولاً عن عين ما قارفه ، ثم تعم وتأمره بما لو امتثل أمره فيه ، لم يرتكب تلك الفعل ، وكل ما يضرب فى طريقها ، ويتعلق بسببها - أشار له الزمخشري - .
« إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » أى لتحقيق أن يُتَقَى ويراقب .

تنبيه :

فى (الإكليل) : قال السكيا المراسى : قيل نزلت فى قوم ذبحوا قبل النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح . وعموم الآية النهى عن التعجيل فى الأمر والنهى ، دونه . ويحتج بهذه الآية فى اتباع الشرع فى كل شىء . وربما احتج به نفاة القياس ، وهو باطل منهم . ويحتج به فى تقديم النص على القياس . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ » أى : إذا نطق ونطقتم ، فلتكن أصواتكم قاصرة عن الحد الذى يبلغه صوته ، ليكون عالياً لكلامكم ، لا أن تغمروا صوته ببلغكم ، وتبلغوا أصواتكم إلى أسمع الحاضرين قبل صوته ، فإن ذلك من سوء الأدب بمكان كبير « وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ » أى بل تعمدوا فى مخاطبته القول اللين ، القريب من الهمس ، الذى يضاد الجهر ، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم . وروى عن مجاهد تفسيره بنداؤه باسمه ، أى لانداده كما ينادى بعضكم بعضاً : يا محمد ! يا محمد ! بل يابى الله ! يا رسول الله ! ونظر فيه شراح (الكشاف) بأن ذكر الجهر حينئذ

لا يظهر له وجه ، إذ الظاهر أن يقال : لا تجمعوا خطابه كخطاب بعضهم لبعض ، كما مر في قوله ^(١) (لَا تَجْمَعُوا دُعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا) انتهى .
ولك أن تقول : إنما أفرغ هذا المعنى المروى عن مجاهد في قالب ذاك اللفظ الكريم جرياً على سنة التنزيل في إظهار أرق الألفاظ والجل ، وألفها في ذلك ، فإن أسلوبه فوق كل أسلوب . وقد قالوا : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به « أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَلُكُمْ » أى مخافة أن تحبط أعمالكم ، برفع صوتكم فوق صوته ، وجهركم له بالقول كجهركم لبعضكم « وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » أى لا تعلمون ولا تدرون بحبوطها .

تنبيه :

استدل المعتزلة بالآية على أن الكبائر محبطة للأعمال ، لأن المذكور في الآية كبيرة محبطة ولا فرق بينها وبين غيرها . ولما كان عند أهل السنة ، المحبط للأعمال هو الكفر خاصة ، تأولوا الآية بأنها للتغليظ والتخويف ، إذ جعلت بمنزلة الكفر المحبط ، أو هى للتعريض للمنافقين المقاصدين بالجهر والرفع الاستهانة ، فإن فعلهم محبط قطعاً .

وقال الناصر : المراد في الآية النهى عن رفع الصوت على الإطلاق . ومعلوم أن حكم النهى الحذر مما يتوقع في ذلك من إيذاء النبي عليه الصلاة والسلام . والقاعدة المختارة أن إيذاء عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق . فورد النهى عما هو مظنة لأذى النبي عليه الصلاة والسلام ، سواء وجد هذا المعنى أو لا ، حماية للذريعة ، وحسماً للمادة . ثم لما كان هذا المنهى عنه - وهو رفع الصوت - منقسماً إلى ما يبلغ ذلك المبلغ أولاً ، ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر ، لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً ، وخوف أن يقع فيما هو محبط للعمل ، وهو البالغ حد الإيذاء ، إذ لا دليل ظاهر يميزه . وإن كان ، فلا يتفق تمييزه في كثير من الأحيان . وإلى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الإشارة بقوله (أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) . وإلا فلو كان الأمر على مائة تعدد المعتزلة ، لم يكن لقوله (وَأَنْتُمْ

(١) [٢٤ / النور / ٦٣] .

لَا تَشْعُرُونَ (موقع . إذ الأمر بين أن يكون رفع الصوت مؤذياً ، فيكون كفراً محبطاً قطعاً ، وبين أن يكون غير مؤذ ، فيكون كبيرة محبطة على رأيهم قطعاً . فعلى كلا حاله ، الإحباط به محقق ، إذن فلا موقع لإدغام الكلام بعدم الشعور ، مع أن الشعور ثابت مطلقاً - والله أعلم - .

ثم قال : وهذا التقرير الذي ذكرته يدور على مقدمتين ، كتابتها صحيحة :

إحداها - أن رفع الصوت من جنس ما يحصل به الإيذاء ، وهذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة الآن ، حتى إن الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه . فكيف برتبة النبوة وما تستحقه من الإجلال والإعظام .

المقدمة الأخرى - أن إيذاء النبي ﷺ كفر . وهذا أمر ثابت قد نص عليه أئمتنا - يعني المالكية - وأفتوا بقتل من تعرض لذلك كفراً ، ولاتقبل توبته ، فما أناه أعظم عند الله وأكبر ، والله الموفق . انتهى .

ولا يخفى أن الإنصاف هو الوقوف مع ما أوضحه النص وأبانه ، فكل موضع نص فيه على الإحباط وجب قبوله بدون تأويل ، وامتنع القياس عليه ، لأنه مقام توعد وخسران ، ولا مجال للرأى في مثل ذلك . هذا ما اعتقده وأراه . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ » أى يبايعون فى خفضها « عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ » قال ابن جرير^(١) : أى اصطفأها وأخلصها للتقوى

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٠ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

يعنى لاتقائه بأداء طاعته ، واجتناب معاصيه ، كما يمتحن الذهب بالنار ، فيخلص جيدها ، ويبطل خبثها « لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ » أى ثواب جزيل ، وهو الجنة .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٤] (إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ » أى يدعونك « مِنْ وَرَاءِ » أى خارج « الْحُجُرَاتِ » أى عند كونك فيها ، استعجالاً لخروجك إليهم ، ولو بترك ما أنت فيه من الأشغال « أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » إذ لا يفعله محشم ، ولا يفعل لمحتشم ، فلا يراعون حرمة أنفسهم ، ولا حرمتك ، ونسب إلى الأكثر ، لأنه قد يتبع عاقل جماعة الجهال ، موافقة لهم .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » أى لأن خروجه باستعجالهم ربما يفضيه ، فيفوتهم فوائد رؤيته وكلامه . وإن صبروا استفادوا فوائد كثيرة ، مع اتصافهم بالصبر ، ورعاية الحرمة لنبيهم وأنفسهم « وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى لمن تاب من معصية الله ، بنذائك كذلك ، وراجع أمر الله فيه وفى غيره .

تنبيهات :

الأول - قال ابن كثير : قد ذكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمي ، فيما أورده

غير واحد .

روى الإمام أحمد^(١) عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن الأقرع بن حابس ؛ أنه نادى

رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ! يا محمد ! (وفى رواية : يا رسول الله !) فلم يجبه . فقال :

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٨٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

يارسول الله ! إن حمدي لزين ، وإن ذمّي لشين ، فقال : ذاك الله عز وجل .
وروى ابن إسحاق ، في ذكر سنة تسع ، وهي المسماة سنة الوفود ؛ أن رسول الله ﷺ
لما افتتح مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من
كل وجه ، فكان منهم وفد بنى تميم . فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء
حجراته : أن اخرج إلينا يا محمد ! فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم ، فخرج إليهم .
ثم ساق ابن إسحاق نبأهم مطولاً ثم قال : وفيهم نزل من القرآن (إِنَّ الدِّينَ يُدَادُونَكَ مِنْ
وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) .

الثاني - (الْحُجُرَاتِ) بضمتين ، وبفتح الجيم ، وبسكونها . وقرئ بهنّ جميعاً :
جمع (حجرة) . وهي الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها . فُعْلَةٌ بمعنى مفعولة ،
كالغرفة والقبضة .

قال الزمخشري : والمراد حجرات نساء رسول الله ﷺ . وكانت لسكل واحدة منهن
حجرة . ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرقوا على الحجرات ، متطلبين له ، فناداه
بعض من وراء هذه ، وبعض من وراء تلك . وأنهم قد أتوها حجرة حجرة ، فنادوه من
ورائها . وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها . ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ولمكان حرمة . والفعل - وإن كان مسنداً إلى جميعهم - فإنه يجوز
أن يتولاه بعضهم ، وكان الباقيون راضين ، فكأنهم تولوه جميعاً .

الثالث - قال الزمخشري : ورود الآية على النمط الذي وردت عليه ، فيه ما لا يخفى على
الناظر من بينات إكبار محل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجلاله .

منها - مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به ، بالسفّه والجهل ، لما أقدموا عليه .
ومنها - لفظ (الْحُجُرَاتِ) وإيقاعها ، كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه .
ومنها - المرور على لفظها بالاختصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم .
ومنها - التعريف باللام دون الإضافة .

ومنها - أن شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم ، وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في الخطابات ، تهيئاً للخطب على رسول الله ﷺ ، وتسليمه له ، وإماطة لما تداخله من إيجاش تمجرفهم ، وسوء أدبهم ، وهلم جرا . . . من أول السورة إلى آخر هذه الآية . فتأمل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمى إلى الله ورسوله ، متقدمة على الأمور كلها ، من غير حصر ولا تقييد . ثم أردف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر ، كأن الأول بساط للثاني ، ووطاء لذكره . ثم ذكر ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك ، ففضوا أصواتهم ، دلالة على عظيم موقعه عند الله . ثم جرى على عقب ذلك بما هو أطم ، وهفته أتم ، من الصياح برسول الله ﷺ ، في حال خلوته ببعض حرمانه من وراء الجدر ، كما يصاح بأهون الناس قدراً ، لينبه على فظاعة ما أجروا إليه ، وجسروا عليه ، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول ، حتى خاطبه جلة المهاجرين والأنصار بأخى السرار ، كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغاً . ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الأبواب ، وتقتبس محاسن الآداب ، كما يحكي عن أبي عبيد - ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى - أنه قال : ما دقت باباً على عالم قط ، حتى يخرج في وقت خووجه . انتهى .

الرابع - قال ابن كثير : قال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ ، كما كان يكره في حياته ، لأنه محترم حياً ، وفي قبره ﷺ . . وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فدارتفعت أصواتهما ، فخصبهما . ثم ناداهما فقال : من أين أنتم ؟ قالا : من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً . انتهى .

الخامس - روى البخاري^(١) عن عبد الله بن الزبير أنه قدم ركب من بني تميم على

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤٩ - سورة الحجرات ، ٢ - باب إن الذين

يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ، حديث ١٩٤٢

النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : أَمْرُ القَعْقَاعِ بنِ مَعْبُدٍ ، وقال عمر : أَمْرُ الأَقْرَعِ ابنِ حَابِسٍ . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي ! فقال عمر : ما أردت خلافاً ! فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما . فنزل في ذلك (يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِرُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ...) حتى انقضت الآية .

وفي رواية : فأنزل الله في ذلك (يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ ...) الآية . قال ابن الزبير : فما كان عمر يُسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى حتى يستفهمه . وقد انفرد بهاتين الروايتين البخاريّ دون مسلم .

قال الحافظ ابن حجر : وقد استشكل ذلك ! قال ابن عطية : الصحيح أن سبب نزول هذه الآية كلام جفاة الأعراب .

قال ابن حجر : قلت : لا يعارض ذلك هذا الحديث ، فإن الذي يتعلق بقصة الشيخين في تخالفهما في التأمير هو أول السورة (لَا تَقْدِرُوا) ولكن لما اتصل بها قوله (لَا تَرْفَعُوا) تمسك عمر منها بخفض صوته . وجفاة الأعراب الذين نزلت فيهم هم من بنى تميم ، والذين يختص بهم ، وقوله (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ) . انتهى .

وتقدم لنا مراراً الجواب عن أمثاله ، بأن قولهم : نزلت الآية في كذا ، قد يكون المراد به الاستشهاد على أن مثله مما تنافوا فيه الآية ، لا أنه سبب لنزولها .

قال الإمام ابن تيمية : قولهم نزلت هذه الآية في كذا ، يراد به تارة سبب النزول ، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية ، وإن لم يكن السبب . كما تقول : عنى بهذه الآية كذا . انتهى . وبه يجاب عما يرويه كثير من تعدد سبب النزول ، فاحفظه ، فإنه من المضمون به على غير أهله . ولو وقف عليه ابن عطية لما ضعف رواية البخاريّ ، ولما تحمل ابن حجر لتفكيك الآيات بجعل بعضها لسبب . وبعضها لآخر ، في قصة واحدة . وبالله التوفيق . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا » أى : فاستظهروا صدقه من كذبه ، بطريق آخر كراهة « أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ » أى قوماً برآء مما قذفوا به بغيره أذيتهم بجهالة لاستحقاقهم إياها ، ثم يظهر لكم عدم استحقاقهم « فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » أى فتندموا على إصابتكم إياهم بالجنابة التى تصيبونهم بها ، وحق المؤمن أن يحترز مما يخاف منه الندم فى العواقب .

تنبيهات :

الأول - قال ابن كثير : ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة ابن أبى معيط ، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بنى المصطلق . وقد روى ذلك من طرق . ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد ^(١) فى مسنده من رواية مالك عن ابن المصطلق ، وهو الحارث ابن ضرار والد جويرية أم المؤمنين رضى الله عنها . قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن سابق ، حدثنا عيسى بن دينار ، حدثنى أبى أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعى رضى الله عنه يقول : قدمت على رسول الله ﷺ ، فدعانى إلى الإسلام ، فدخلت فيه ، وأقررت به ، ودعانى إلى الزكاة ، فأقررت بها وقلت : يا رسول الله ! أرجع إلى قومى فأدعهم إلى الإسلام ، وأداء الزكاة ، فن استجاب لى جمعت زكاته ، ويرسل إلى رسول الله رسولاً إبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة . فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له ، وبلغ الإبان الذى أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه ، احتبس عليه الرسول ، فلم يأت ، وظن الحارث أنه قد

(١) أخرجه بالصفحة رقم ٢٧٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله ، فدعا بسروات قومه ، فقال لهم : إن رسول الله ﷺ كان وقتاً لي وقتاً يرسل إلى رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله ﷺ الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة ، فانطلقوا فنأى رسول الله ﷺ . وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة . فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرّق ، فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إن الحارث منعني الزكاة ، وأراد قتلي . فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث . فأقبل الحارث بأصحابه ، حتى إذا استقبل البعث ، وفصل من المدينة ، لقيهم الحارث ، فقالوا : هذا الحارث ! فلما غشيهم قال لهم : إلى من بُعثتم ؟ قالوا : إليك . قال : ولِمَ ؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنك منعه الزكاة ، وأردت قتله ! قال : لا ، والذي بعث محمداً بالحق ، ما رأيته بقة ، ولا أثنائي . فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : منعت الزكاة ، وأردت قتل رسولي ؟! قال : لا ، والذي بعثك بالحق ! ما رأيته بقة ، ولا أثنائي ، وما أقبلت إلا حين احتبس على رسول رسول الله ﷺ ! خشيت أن تكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله . قال : فنزلت الحجرات (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ . . . إلى قوله : حَكِيمٌ) .

وقال مجاهد وقتادة : أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يتصدقهم ، فتلقوه بالصدقة ، فرجع فقال : إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك (زاد قتادة : وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام) فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه إليهم ، وأمره أن يتثبت ولا يعجل ، فانطلق حتى أتاهم ليلاً ، فبعث عيونهم ، فلما جاءوا أخبروا خالد رضي الله عنه أنهم مستمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم . فلما أصبحوا أتاهم خالد رضي الله عنه ، فرأى الذي يعجبه . فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . قال قتادة : فكان رسول الله ﷺ يقول : التثبت من الله ، والعجلة من الشيطان . وكذا ذكر غير واحد من السلف ، منهم ابن أبي ليلى ، ويزيد بن رومان ، والضحاك ، ومقاتل ،

وغيرهم في هذه الآية ، أنها نزلت في الوليد بن عقبة - والله أعلم - انتهى .

قال ابن قتيبة في (المعارف) : الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس ، وهو أخو عثمان لأمه ، أروى بنت كرز . أسلم يوم فتح مكة ، وبعثه رسول الله ﷺ مصداقاً إلى بني المصطلق ، فأتاه فقال : ممنوني الصدقة ! وكان كاذباً . فأنزل الله هذه الآية . وولاه عمر على صدقات بني تغلب ، وولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص ، فصلى بأهلها صلاة الفجر ، وهو سكران ، أربماً ، وقال : أزيدكم ! فشهدوا عليه بشرب الخمر عند عثمان ، فمزله وحده . ولم يزل بالمدينة حتى بويع على ، فخرج إلى الرقة فنزلها ، واعتزل علياً ومعاوية . ومات بناحية الرقة .

الثاني - في (الإكمال) : في الآية ردّ خبر الفاسق ، واشتراط العدالة في الخبر ، راوياً كان ، أو شاهداً ، أو مفتياً . ويستدل بالآية على قبول خبر الواحد العدل . قال ابن كثير : ومن هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال ، لاحتمال فسقه في نفس الأمر ، وقبلها آخرون ، لأننا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق ، وهذا ليس بمحقق الفسق ، لأنه مجهول الحال .

الثالث - في قوله تعالى (فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) فائدتان :

إحداها - تقرير التحذير وتأكيده . ووجهه هو أنه تعالى لما قال (أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ) قال بعده : وليس ذلك مما لا يلتفت إليه ، ولا يجوز للعاقل أن يقول : هب أني أصبت قوماً ، فإذا عليّ ؟ بل عليكم منه الهم الدائم ، والحزن المقيم . ومثل هذا الشيء واجب الاحتراز منه .

والثانية - مدح المؤمنين . أي لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها ، بل تصبحون نادمين عليها - أفاده الرازي - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)

« وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ » قال ابن جرير^(١) : يقول تعالى ذكره لأصحاب نبي الله ﷺ : واعلموا أيها المؤمنون بالله ورسوله أن فيكم رسول الله ، فاتقوا الله أن تقولوا الباطل ، وتفتروا الكذب ، فإن الله يخبره أخباركم ، ويعرفه أنباءكم ، ويقوّمه على الصواب في أموره .

« لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ » قال الطبري^(٢) : أى لو كان رسول الله ﷺ يعمل في الأمور بآرائكم ، ويقبل منكم ما تقولون له ، فيطيعكم ، لنالكم عنتٌ - يعنى الشدة والمشقة - في كثير من الأمور ، بطاعته إياكم ، لو أطاعكم ، لأنه كان يخطئ في أفعاله ، كما لو قبل من الوليد بن عقبة قوله في بنى المصطلق ، أنهم قد ارتدوا ومنعوا الصدقة ، وجمعوا الجموع لغزو المسلمين ، ففزاهم فقتل منهم ، وأصاب من دمائهم وأموالهم ، كان قد قتل وقتلتم من لا يحل له ولا لكم قتله ، وأخذتم من المال ما لا يحل له ولكم أخذه من أموال قوم مسلمين ، فنالكم من الله بذلك عنت . والعنت : المشقة أو الهلاك أو الإثم أو الفساد .

تنبيه :

(أَنَّ) بما في حيزها سادة مسدّ مفعولى (أَعْلَمُوا) باعتبار ما قيد به من الحال ، وهو قوله : « لَوْ يُطِيعُكُمْ .. » الخ ، فإنه حال من الضمير المجرور في (فِيكُمْ) المستتر فيه . والمعنى : أنه فيكم كائنًا على حالة يجب تغييرها ، أو كائنين على حالة كذلك ، وهى أنكم تودّون أن يتبعكم في كثير

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

من الحوادث ، ولو فعل ذلك لوقعتم في الجهل والهلاك . وفيه إيذان بأن بعضهم زين لرسول الله ﷺ أن يقع في بنى المصطلق ، وأنه لم يطع رأيهم هذا . ويجوز أن يكون (لَوْ يُطِيعُكُمْ) مستأنفاً . إلا أن الزخشرى منع هذا الاحتمال ، قال : لأدائه إلى تنافر النظم ، لأنه لو اعتبر (لَوْ يُطِيعُكُمْ) الخ كلاماً برأسه ، لم يأخذ الكلام بحجز بعض ، لأنه لا فائدة حينئذ في قوله : (وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ) إذا قطع عما بعده . وأجيب بجواز أن يقصد به التنبيه على جلالة محله صلى الله عليه وسلم ، وأنهم لجهلهم بمكانه مفرطون فيما يجب له من التعظيم ، وفي أن شأنهم أن يتبعوه ، ولا يتبعوا آراءهم ، حتى كأنهم جاهلون بأنه بين أظهرهم ، فوضح جواز الاستئناف ، والوقف على (رَسُولَ اللَّهِ) .

« وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمُنَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ » أى فما أجدركم أن تطيعوا رسول الله وتأتموا به ، فيقيمكم الله بذلك من العنت فيما او استتبعتم رأى رسول الله لأبيكم « وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ » أى بالله « وَالْفُسُوقَ » يعنى الكذب « وَالْعِصْيَانَ » أى مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتضييع ما أمر الله به . « أُولَئِكَ » أى الموصوفون بمحبة الإيمان ، وتزينه في قلوبهم ، وكرهتهم المعاصي « هُمُ الرَّاشِدُونَ » أى السالكون طريق الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً » أى إحساناً منه ، ونعمة أنعمها عليكم . قال القاشانى : كان فضلاً بمعانيته بهم فى الأزل ، المقضية للهداية الروحانية الاستعدادية المستتعبة لهذه الكلمات فى الأبد . ونعمة بتوفيقه إياهم للعمل بمقتضى تلك الهداية الأصلية ، وإعانتة بإفاضة الكلمات المناسبة لاستعداداتهم ، حتى اكتسبوا ملكة العصمة الموجبة لكرهات المعصية . وهو تعليل لـ (حَبَبٌ) و (كَرِهَ) وما بينهما اعتراض ، أو نصب بفعل مضمر ، أى جرى ذلك فضلاً ، أو يبتغون فضلاً .

« وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى ذو علم بالمحسن والمسيء ، وحكمة فى تدبير خلقه ،
وتصرفهم فيما شاء من قضائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَعَثَ
إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ، فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ
فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)
« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا » أى تقاتلوا « فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا »
قال ابن جرير^(١) : أى بالدعاء إلى حكم كتاب الله ، والرضا بما فيه ، لها وعليهما ، وذلك
هو الإصلاح بينهما بالعدل .

« فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى » أى فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة
إلى حكم كتاب الله ، له وعليه ، وتمعدت ماجعل الله عدلاً بين خلقه ، وأجابت الأخرى منهما ،
« فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي » أى تمعدى وتأتى الإجابة إلى حكم الله « حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ »
أى ترجع إلى حكم الله الذى حكم فى كتابه بين خلقه « فَإِنْ فَاءَتْ » أى رجعت الباغية ،
بعد قتالكم إياهم ، إلى الرضا بحكم الله فى كتابه « فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ » أى بالإنصاف
بينهما ، وذلك حكم الله فى كتابه الذى جعله عدلاً بين خلقه « وَأَقْسِطُوا » أى اعدلوا
فى كل ما تأتون وتذرون . « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » أى فيجازيهم أحسن الجزاء .

تنبيهات :

الأول - قال القاشانى : الاقتتال لا يكون إلا الميل إلى الدنيا ، والركون إلى الهوى ،
والانجذاب إلى الجهة السفلية ، والتوجه إلى المطالب الجزئية . والإصلاح إنما يكون من

(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

لزوم العدالة في النفس التي هي ظل المحبة، التي هي ظل الوحدة . فلذلك أمر المؤمنون الموحدون بالإصلاح بينهما ، على تقدير بغيهما . والقتال مع الباغية على تقدير بغى إحداهما ، حتى ترجع . ليكون الباغية مضادة للحق ، دافعة له .

وقد روى أن هذه الآية نزلت في طائفتين من الأوس والخزرج اقتتلتا في بعض مآنازعتا فيه بالنعال والأبدى ، لا بالسيوف ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فأتاهم فحجز بينهم وأصلح . روى ذلك من طريق عديدة ، مما يقوى أن القتال الذي نزلت فيه كان حقيقياً .

ويروى عن الحسن أن الاقتتال بمعنى الخصومة ، والقتال بمعنى الدفع مجازاً . قال - فيما رواه الطبري^(١) عنه - : كانت تكون الخصومة بين الحيين ، فيدعوهم إلى الحكم ، فيأبون أن يجيبوا ، فأنزل الله (وَإِنْ طَائِفَتَانِ) إلى قوله (فَقَاتِلُوا آلَئِي تَبَغَّى ...) الآية . يقول : ادفعوا إلى الحكم ، فكان قتالهم الدفع . انتهى .

ولا يخفى أن المادة قد تحمل على حقيقتها ومجازها فتتسع لهما . وقد قال اللغويون : ليس كل قتال قتلاً . وقد يفضى الخصام إلى القتل ، فلا مانع أن يراد من الآية ما هو أعم ، لتكون الفائدة أشمل - والله أعلم - .

الثاني - في (الإكليل) : في الآية وجوب الصلح بين أهل العدل والبغى ، وقاتل البغاة وهو شامل لأهل مكة كغيرهم ، وأن من رجع منهم وأدبر لا يقاتل ، لقوله (حَتَّى تَفِيءَ) . انتهى . وقد روى سميذ عن مروان قال : صرخ صارخ لعلّ يوم الجمل : لا يقتل مدبر ولا يذفف على جريح ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن ألقى السلاح فهو آمن .

وقد اتفق الفقهاء على حرمة قتل مدبرهم وجريحهم ، وأنه لا يغنم لهم مال ، ولا نسبي لهم ذرية ، لأنهم لم يكفروا ببيعتهم ولا قاتلهم . وعصمة الأموال تابعة لدينهم ، ولذا يجب رد ذلك إليهم إن أخذ منهم . ولا يضمفوا ما أتلّفوه حال الحرب من نفس أو مال . ومن قتل من أهل

(١) انظرو الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

البغى غسل وكفن وصلى عليه ، فإن قتل العادل كان شهيداً ، فلا يغسل ولا يصلى عليه ، لأنه قتل في قتال أمره الله تعالى به ، كشهيد معركة الكفار .

وإن أظهر قوم رأى الخوارج . مثل تكفير من ارتكب كبيرة ، وترك الجماعة ، واستحلل دماء المسلمين وأموالهم ، ولم يجتمعوا للحرب ، لم يتعرض لهم . وإن جنوا جناية وأتوا حداً ، أقامه عليهم .

وإن اقتتل طائفتان لعصبية ، أو طلب رئاسة ، فهما ظالمتان . لأن كل واحدة منهما باغية على الأخرى ، وتضمن كل واحدة منهما ما أتلف على الأخرى . هذه شذرة مما جاء في (الإقناع) و (شرحه) وتفصيله ثمة .

الثالث - قال في (شرح الإقناع) : في الآية فوائد : منها أنهم لم يخرجوا بالبغى عن الإيمان . وأنه أوجب قتالهم . وأنه أسقط عنهم التبعة فيما أتلفوه في قتالهم . وإجازة كل من منع حقاً عليه . والأحاديث بذلك مشهورة : منها ما روى عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، في المنشط والمكروه ، وأن لا ننازع الأمر أهله (متفق عليه) ^(١) . وأجمع الصحابة على قتالهم ، فإن أبا بكر قاتل مانعي الزكاة ، وعلياً قاتل أهل الجمل ، وأهل صفين . انتهى .

وتدل الآية أيضاً على وجوب معاونته من بنى عليه ، لقوله (فَكَتَلُوا) ، وعلى وجوب تقديم النصيح ، لقوله (فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا) ، وعلى السعى في المصالحة ، وذلك ظاهر .

الرابع - وجه الجمع في (أَقْتَلُوا) ، مع أنه قد يقال : مقتضى الظاهر (اقتتلنا) هو الحمل على المعنى دون اللفظ ، لأن الطائفتين في معنى القوم والناس . والفكحة في اعتبار المعنى أولاً ،

(١) أخرجه البخاري في : ٩٢ - كتاب الفتن ، ٢ - باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (سترون بعدي أموراً تفكرونها) حديث رقم ٢٥٤٧ .

وأخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ٤٢٠٤١ (طبعتنا) .

واللفظ ثانياً عكس المشهور في الاستعمال ، ما قيل إنهم أولاً في حال القتال مختلطون مجتمعون ، فلذا جمع أولاً ضميرهم ، وفي حال الإصلاح متميزون متفارقون ، فلذا ثنى الضمير ثانياً . وسرُّ قرْنِ الإصلاح الثاني بالعدل ، دون الأول ، لأن الثاني لوقوعه بعد المقاتلة مظنة للتحامل عليهم بالإساءة ، أو لإيهام أنهم لما أخرجوهم للقتال استحقوا الحيف عليهم .

الخامس - (أقسط) الرباعي هزته للسلب . أى أزيلوا الجور ، واعدلوا . بخلاف (قسط) الثلاثي ، فمعناه جار . قال (١) تعالى : (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) وهذا هو المشهور - خلافاً للزجاج - في جعلهما سواء - أفاده الكرخي - . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » استئناف مقرر لما قبله من الأمر بالإصلاح ، فإن من لوازم الإخوة أن يصطلحوا .

قال الشهاب : وتسمية المشاركة في الإيمان أُخُوَّةً تشبيه بليغ ، أو استعارة . شبه المشاركة فيه بالمشاركة في أصل التوالد ، لأن كلا منهما أصل للبقاء ، إذ التوالد منشأ الحياة ، والإيمان منشأ البقاء الأبدى في الجنان .

« فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ » أى إذا اقتتلا بأن تحملوها على حكم الله ، وحكم رسوله . قال القاشاني : بين تعالى أن الإيمان الذي أقل مرتبته التوحيد والعمل ، يقتضى الأخوة الحقيقية بين المؤمنين ، للمناسبة الأصلية ، والقراءة الفطرية ، التي تريد على القرابة الصورية ، والنسبة الولادية ، بما لا يقاس ، لاقضائه المحبة القلبية ، لا الحجة النفسانية ، المسببة عن

التناسب في اللحمة . فلا أقل من الإصلاح الذي هو من لوازم العدالة ، وأحد خصالها ، إذ لو لم يعدوا عن الفطرة ، ولم يتكبدوا بغواشي النشأة ، لم يتقاتلوا ، ولم يتخالفوا . فوجب على أهل الصفاء ، بمقتضى الرحمة والرأفة والشفقة اللازمة للأخوة الحقيقية ، الإصلاح بينهما ، وإعادةتهما إلى الصفاء . انتهى .

تنبيه :

وضع الظاهر موضع المضمّر مضافاً إلى المأمورين ، للمبالغة في التقرير والتخصيص . وتخصيص الاثنين بالذكر دون الجمع ، لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان . فإذا لزمّت المصالحة بين الأقل ، كانت بين الأكثر أئزّم ، لأن الفساد في شقاق الجمع ، أكثر منه في شقاق الاثنين - أفاده القاضي والزحشرى - .

وفي معنى الآية أحاديث كثيرة : كحديث^(١) (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) . وحديث^(٢) (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) . وحديث^(٣) (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحلى والسهر) . وحديث^(٤) (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) وشبك بين أصابعه صلى الله عليه وسلم - وكلها في الصحاح - .

(١) أخرجه البخارى في : ٤٦ - كتاب المظالم والغصب ، ٣ - باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يُسلمه ، حديث ١٢٠٢ ، عن ابن عمر .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٨ - كتاب الذكر ، حديث رقم ٣٨ (طبعنا) عن أبي هريرة .

(٣) أخرجه البخارى في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٢٧ - باب رحمة الناس والبهائم ،

حديث ٢٣٢٢ ، عن الزمان بن بشير .

(٤) أخرجه البخارى في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٨٨ - باب تشبيك الأصابع في المسجد

وغيره ، حديث رقم ٣١٩ ، عن أبي موسى .

« وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أى خافوا مخالفة حكمه ، والإهمال فيه ، ليرحمكم فيفصح عن سالف آثامكم ، ويثيبكم رضوانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ » أى لا يهزأ رجال من رجال ، فبروا أنفسهم خيراً من السخوور منهم « عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ » أى الساخرات .

قال أبو السعود: فإن مناط الخيرية فى الفريقين، ليس ما يظهر للناس من الصور والأشكال ولا الأوضاع والأطوار التى عليها يدور أمر السخرية غالباً . بل إنما هو الأمور الكامنة فى القلوب ، فلا يجترىء أحد على استحقار أحد، فلعله أجمع منه، لما نيظ به من الخيرية عند الله تعالى ، فيظلم نفسه بتحقيق من وقره الله تعالى ، والاستهانة بمن عظمه الله تعالى . ومن أهل التأويل من خص السخرية بما يقع من الغنى للفقير . وآخرون بما يعثر من أحد على زلة أو هفوة ، فيسخر به من أجلها .

قال الطبري^(١): والصواب أن يقال إن الله عمّ ، بنبيه المؤمنين من أن يسخر بعضهم من بعض ، جميع معانى السخرية . فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن ، لا لفقره ، ولا لذنب ركه ، ولا لغير ذلك .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقد عدّ الغزاليّ في (الإحياء) السخرية من آفات اللسان ، وأوضح معناها بما لا مطلب وراءه فننقله هنا تقيماً للفائدة ، قال رحمه الله .

الآفة الحادية عشرة - السخرية والاستهزاء : وهذا محرم مهمما كان مؤذياً ، كما قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ ...) الآية . ومعنى السخرية : الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص ، على وجه يُضحك منه . وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء . وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة ، وفيه معنى الغيبة .

وقالت عائشة رضي الله عنها : حاكيت ، فقال لي النبيّ صلى الله عليه وسلم : والله ما أحب أنى حاكيت إنساناً ، ولى كذا وكذا .

وقال ابن عباس في قوله تعالى ^(١) (يَوَلِّتَنَّا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة القهقهة بذلك . وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب الكبائر .

وقال معاذ بن جبل : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : من عير أخاه بذنب قد تاب منه ، لم يمت حتى يعمله .

وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير ، والضحك عليه ، والاستهانة به ، والاستصغار له . وعليه نبه قوله تعالى (عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ) . أى لا تستحقره استصغاراً ، فلعله خير منك . وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به . فأما من جعل نفسه مسخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ، كانت السخرية في حقه من جملة المزح . ومنه ما يذم وما يمدح . وإعما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به ، لما فيه من التحقير والتهاون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخطب فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة ، كالضحك على حفظه

وعلى صنمته أو على صورته وخلقته ، إذا كان قصيراً أو ناقصاً ، لعيب من العيوب ، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهى عنها . انتهى .

لطيفة :

قال أبو السعود : القوم مختص بالرجال ، لأنهم القوام على النساء (والأحسن المهمات) وهو في الأصل إما جمع قائم كصوم وزور في جمع صائم وزائر . أو مصدر نعت به فشاع في الجمع . وأما تعميمه للفريقين في مثل قوم عاد وقوم فرعون ، فإما للتغليب ، أو لأنهم توابع واختيار الجمع لغلبة وقوع السخرية في المجامع . والتذكير إما للتعميم أو للقصد إلى نهى بعضهم عن سخرية بعض ، لما أنها مما يجري بين بعض وبعض .

« وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ » أي لا يعيب بعضكم على بعض ولا يظمن .

قال الشهاب : ضمير (تَلْمِزُوا) للجمع بتقدير مضاف فيه . و (أَنْفُسَكُمْ) عبارة عن بعض آخر من جنس المخاطبين ، وهم المؤمنون ، فجعل ما هو من جنسهم بمنزلة أنفسهم ، كما في قوله ^(١) (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ) وقوله ^(٢) (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) ، فأطلق الأنفس على الجنس استعارة . ففي اللفظ الكريم تجوز ، وتقدير مضاف . والنهي على هذا مخصوص بالمؤمنين ، وهو مغاير لما قبله ، وإن كان مخصوصاً بالمؤمنين أيضاً بحسب المفهوم ، لغاير الطعن والسخرية ، فلا يقال إن الأول مغلبي عنه ، إذ السخرية ذكره بما يكره على وجه مضحك بحضرتة ، وهذا ذكره بما يكره مطلقاً . أو هو تعميم بعد التخصيص ، كما يعطف العام على الخاص ، لإفادة الشمول . وقيل : إنه من عطف العلة على المعلول ، أو اللزم بخصوص بما كان على وجه الخفية ، كإشارة . أو هو من عطف الخاص على العام لجعل الخاص كجنس آخر مبالغة . انتهى .

وقيل : معنى الآية : لا تفعلوا ما تلهزون به ، فإن من فعل ما يستحق به اللمز ، فقد لزم

نفسه .

(٢) [٤ النساء / ٢٩] .

(١) [٩ / التوبة / ١٢٨] .

قال الشهاب : ف (أَنْفُسَكُمْ) على ظاهره والتجوز في قوله (تَلْمِزُوا) . فهو مجاز ذكر فيه المسبب ، وأريد السبب . والمراد : لا ترتكبوا أمراً تمايرون به . وضعف بأنه بعيد من السياق ، وغير مناسب لقوله (وَلَا تَنَابَزُوا) ، كما في (السكشاف) ، وكونه من التجوز في الإسناد ، إذ أسند فيه ما للمسبب إلى السبب ، تكلف ظاهر . وكذا كونه كالتلميل للنهي السابق ، لا يدفع كونه مخالفاً للظاهر . وكذا كون المراد به لا تتسببوا في الطعن فيكم ، بالطعن على غيركم ، كما في الحديث ^(١) (من السكباء أن يشتم الرجل والديه) ، إذ فُسر بأنه إذا شتم والدي غيره ، شتم الغير والديه أيضاً .

« وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَقْبَابِ » أى ولا تداعوا بالألقاب التي يكره النبز بها الملقب فقد روى أنه عني بها قوم كانت لهم أسماء في الجاهلية ، فلما أسلموا كانوا يفضبون من الدعاء بها رواه أحمد ^(٢) وأبو داود . وفسره بعض السلف بقول الرجل للرجل : يافاسق ، يامنافق ! ، وبعض بتسمية الرجل بالكفر بعد الإسلام ، وبالفسوق بعد التوبة . والآية - كما قال ابن جرير ^(٣) - : تشمل ذلك كله . قال : لأن التناز بالألقاب هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة .

« بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ » قال الزمخشري : (الْأَسْمُ) ههنا بمعنى الذكر . من قولهم : طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم ، كما يقال : طار ثناؤه وصيته . وحقيقته ما سما ذكره ، وارتفع بين الناس . ألا ترى إلى قولهم : أشاد بذكره ؟ كأنه قيل بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائر ، أن يذكرها بالفسق . وفي قوله (بَعْدَ الْإِيمَانِ) ثلاثة أوجه :

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٤٦ (طبعنا) عن عبد الله ابن عمرو بن العاص .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٦٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٣٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أحدها - استقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي يأباه الإيمان ويحظره، كما تقول :
بئس الشأن بعد الكبرة ، الصبوة .

والثاني - أنه كان في شتأهم لمن أسلم من اليهود : يا يهودى ! يا فاسق ! فهو عنه ،
وقيل لهم : بئس الذكر ، أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه . والجملة على هذا
التفسير متعلقة بالنهى عن التنازع .

والثالث - أن يحمل من فسق غير مؤمن ، كما تقول للمتحول عن التجارة إلى الفلاحة :
بئست الحرفة ، الفلاحة بعد التجارة . انتهى .

واختار ابن جرير^(١) الثالث ، لا ذهاباً لرأى المعتزلة من أن الفاسق غير مؤمن ، كما أنه
غير كافر ، فهو في منزلة بين المنزلتين ؛ بل لأن السياق يقتضى ختم الكلام بالوعيد ، فإن
التلقيب بما يكرهه الناس أمر مذموم لا يجتمع مع الإيمان ، فإن شعار الجاهلية . وعبارته :
يقول تعالى ذكره : ومن فعل ما نهينا عنه ، وتقدم على معصيتنا بعد إيمانه ، فسخر من المؤمنين ،
ولز أخاه المؤمن ، ونزّه بالإنقلاب ، فهو فاسق (بئسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيْمَانِ) يقول :
فلا تفعلوا فتستحقوا ، إن فعلتموه ، أن تسموا فساقاً ، بئس الاسم الفسوق . وترك ذكر ما وصفنا
من الكلام ، اكتفاء بدلالة قوله (بئسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ) عليه . ثم ضعف القول الثانى
وقال^(٢) : وغير ذلك من التأويل أولى بالكلام ، وذلك أن الله تقدم بالنهى عما تقدم النهى عنه
في أول هذه الآية ، فالذى هو أولى أن يختمها بالوعيد لمن تقدم على بغيه ، أو بقبيح ركوبه
ما ركب مما نهى عنه ، لا أن يخبر عن قبح ما كان التائب أنه قبل توبته ، إذ كانت الآية لم
تفتتح بالخبر عن ركوبه ما كان ركب قبل التوبة من القبيح ، فيختم آخرها بالوعيد عليه ،
أو بالقبيح . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

(٢) انظر الصفحة رقم ١٣٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ » أى من نزه أخاه بما نهى الله عن نزه به من الألقاب ، أو لمزه إياه ، أو سخريته منه « فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » أى الذين ظلموا أنفسهم فأكسبوها العقاب برؤسهم ما نهوا عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ)

« يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ » أى كونوا على جانب منه . وذلك بأن تظنوا بالناس سوءاً ، فإن الظان غير محقق . وإيهام (الكثير) لإيجاب الاحتياط والتورع فيما يخالج الأفئدة من هواجسه ، إذ لداعية تدعو المؤمن للمشى وراءه ، أو صرف الذهن فيه ، بل من مقتضى الإيمان ظن المؤمنين بأنفسهم الحسن . قال تعالى ^(١) (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هٰذَا أَفْكٌ مِّثْنٌ) . نعم ! من أظهر فسقه ، وهتك ستره ، فقد أباح عرضه للناس . ومنه ما روى : من ألقى جلباب الحياء ، فلا غيبة له . ولذا قال الزمخشري : والذى يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها ، أن كل ما لم تعرف له أمانة صحيحة ، وسبب ظاهر ، كان حراماً واجب الاجتناب . وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهده منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة فى الظاهر ، فظن الفساد والخيانة به محرم ، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطى الریب ، والمجاهرة بالخبايا .

« إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ » وهو ظن المؤمن بالمؤمن الشر ، لا الخير « إِثْمٌ » أى مكسب للعقاب ، لأن فيه ارتكاب ما نهى عنه .

قال حجة الإسلام الغزالي في (الإحياء) في بيان تحريم الغيبة بالقلب : اعلم أن سوء الظن حرام ، مثل سوء القول . فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوئ الغير ، فليس لك أن تحدث نفسك ، وتسمي الظن بأخيك . قال : ولست أعنى به إلا عقد القلب ، وحكمه على غيره بسوء الظن . فأما الخواطر وحديث النفس ، فهو معفو عنه ، بل الشك أيضا معفو عنه . ولكن المنهى عنه أن يظن . والظن عبارة عما تركن إليه النفس ، ويميل إليه القلب . فقد قال تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » . قال : وسبب تحريمه أن أسرار القلوب ، لا يعلمها إلا ^{الخالق} الله ، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل . فعند ذلك لا يمكنك أن لا تعتقد ما علمته وشاهدته . وما لم تشاهده بعيينك ، ولم تسمعه بأذنك ، ثم وقع في قلبك ، فإنما الشيطان يلقيه إليك ، فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق . إله أن قال : فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال ، وهو بعين مشاهدة ، أو بيئة عادلة . انتهى .

ولما كان من ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ، ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، ذكر سبحانه النهى عنه ، إثر سوء الظن لذلك ، فقال تعالى « وَلَا تَجَسَّسُوا » قال ابن جرير ^(١) : أى لا يتبع بعضكم عورة بعض ، ولا يبحث عن سرائره ، يبتغى بذلك الظهور على عيوبه ، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره ، وبه فاحدوا أو ذموا ، لا على ما تعلمونه من سرائره .

يقال : تجسس الأمر إذا تطلبه ، وبحث عنه ، كتمس . قال الشهاب : الجس (بالجيم) كاللمس ، فيه معنى الطلب ، لأن من يطلب الشيء يمسّه ويبحسه ، فأريد به ما يلزمه . واستعمل التفعّل للمبالغة فيه .

قال الغزالي : ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله . فيتوصل إلى الاطلاع ، وهتك الستر ، حتى ينكشف له ما لو كان مستورا عنه ، كان أسلم لقلبه ودينه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقد روى في معنى الآية أحاديث كثيرة . منها حديث ^(١) أن النبي ﷺ خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهن ، فقال : يا معشر من آمن بلسانه، ولم يخلص الإيمان إلى قلبه ! لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ، ولو في جوف بيته .

وفي الصحيح ^(٢) عنه صلى الله عليه وسلم : لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً .

وروى أبو داود ^(٣) : أن ابن مسعود رضى الله عنه أتى رجلاً ، فقيل له : هذا فلان ، تقطر لحيته خمرًا ! فقال : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به - والرجل سماه ابن أبي حاتم في روايته : الوليد بن عقبة بن أبي معيط .

وروى أبو داود ^(٤) عن معاوية قال : سمعت النبي ﷺ يقول : إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم ، أو كدت أن تفسدهم فقال أبو الدرداء رضى الله عنه : كلمة سمعها معاوية من رسول الله ، نفعه الله بها .

وروى الإمام أحمد ^(٥) عن دجين ، كاتب عقبة ، قال : قلت لعقبة : إنا لنا جيراناً يشربون (١) أخرجه الترمذى في : ٢٥ - كتاب البر والصلة ، ٨٥ - باب ما جاء في تعظيم المؤمن ،

عن ابن عمر .

(٢) أخرجه البخارى في : ٦٧ - كتاب الفساح : ٤٥ - باب لا يخطب على خطبة أخيه

حتى ينسكح أو يدع ، حديث رقم ٢١٢٥ ، عن أبي هريرة .

(٣) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ٣٧ - باب في النهي عن التجسس ،

حديث رقم ٤٨٩٠ .

(٤) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ٣٧ - باب في النهي عن التجسس ،

حديث رقم ٤٨٨٨ .

(٥) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٤٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

الخمر ، وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم ! قال : لا تفعل ، ولكن عظمهم وتهدهم ! قال : ففعل فلم ينتهوا . قال : فجاءه دجين فقال : إني نهيتهم فلم ينتهوا ، وإني داع لهم الشرط فتأخذهم ! فقال له عقبة : ويحك ! لا تفعل ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من ستر عورة مؤمن فسكأنما استحجي مؤودة من قبرها !

وروى أبو داود ^(١) عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : إن الأمير إذا ابتغى الريسة في الناس أفسدهم .

قال الأوزاعي : ويدخل في التجسس استماع قوم وهم له كارهون .
« وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا » أي لا يقل بعضكم في بعض بظهر الغيب ، ما يكره المقول فيه ذلك ، أن يقال له في وجهه . يقال : غابه واغتابه ، كغاله واغتاله ، إذا ذكره بسوء في غيبته .
« أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ » ؟ أي فلو عرض عليكم ، نفرت عنه نفوسكم ، وكرهتموه . فلذا ينبغى أن نكرهوا الغيبة . وفيه استعارة تمثيلية ، مثل اغتيا ب الإنسان لآخر بأكل لحم الأخ ميتاً .
لطائف :

الأولى - قال الزمخشري : (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ) الخ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفضع وجه وأخشع ، وفيه مبالغات شتى : منها - الاستفهام الذي معناه التقرير (وهو يفيد المبالغة من حيث أنه لا يقع إلا في كلام مسلم عند كل سامع ، حقيقة أو ادعاء) ومنها - جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولاً بالحبة . ومنها - إسناد الفعل إلى (أحدكم) والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يجب ذلك .
ومنها - أن لم يقتصر على تمثيل الاغتيا ب بأكل لحم الإنسان ، حتى جعل الإنسان أخاً .
ومنها - أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ ، حتى جعل ميتاً . انتهى .

(١) أخرجه في : ٤٠ كتاب الأدب ، ٣٧ - باب في النهي عن التجسس ، حديث

حديث رقم ٤٨٨٩ .

وقال ابن الأثير في (المثل السائر) في بحث الكفاية : فمن ذلك قوله تعالى (أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ) الخ فإنه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحماً إنسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميئاً ، ثم جعل ماهو الغاية من الكراهة موصولاً بالحبة . فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له ، مطابقة للمعنى الذى وردت من أجله . فأما جعل الغيبة كأكل لحماً الإنسان لحماً إنسان آخر مثله ، فشديد المناسبة جداً ، لأن الغيبة إنما هي ذكر مثالب الناس ، وتمزيق أعراضهم . وتمزيقُ العرض مماثل لأكل الإنسان لحماً من يغتابه ، لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة . وأما جعله كالبحم الأخ فلما في الغيبة من الكراهة ، لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها ، آمران بتركها ، والبعد عنها . ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ في كراهته . ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر ، إلا أنه لا يكون مثل كراهة لحم أخيه . فهذا القول مبالغة في استكراه الغيبة . وأما جعله ماهو الغاية من الكراهة موصولاً بالحبة ، فلما جبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة ، والشهوة لها ، مع العلم بقبحها فانظر أيها التأمل إلى هذه الكناية تجدها من أشد الكنائيات شبيهاً ، لأنك إذا نظرت إلى كل واحدة من تلك الدلالات الأربع التي أشرنا إليها ، وجدها مناسبة لما قصدت له . انتهى .

الثانية - الفاء في قوله تعالى (فَكَرِهْتُمُوهُ) فصيحة في جواب شرط مقدر . والمعنى : إن صح ذلك ، أو عرض عليكم هذا ، فقد كرهتموه ، فما ذكر جواب للشرط ، وهو ماض فيقدر معه (قد) ليصح دخول الفاء على الجواب الماضي ، كافي قوله تعالى ^(١) (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ) وضمير (فَكَرِهْتُمُوهُ) للأكل ، وقد يجوز كونه للاعتياب المفهوم منه . والمعنى : فأكروهه كراهيتكم لذلك الأكل . وعبر عنه بالماضي للمبالغة ، فإذا أوّل بما ذكر يكون إنشائيّاً غير محتاج لتقدير (قد) - أفاده الشهاب - .

الثالثة - قال ابن الفرس : يستدل بالآية على أنه لا يجوز للمضطّر أكل ميتة الآدمي ،

(١) [٢٥ / الفرقان / ١٩] .

لأنه ضرب به المثل في تحريم الغيبة، ولم يضرب بميثة سائر الحيوان. فدل على أنه في التحريم فوقها . ومن أراد استيفاء مباحث الغيبة فعمله (بالإحياء) للغزالي ، فإنه جمع فأوعى .
« وَأَنْقُوا اللَّهَ » أى خافوا عقوبته بانتهائكم عما نهاكم عنه من ظن السوء والتجسس عما ستر والاغتياب وغير ذلك من المناهي . « إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ » أى يقبل توبة التائبين إليه ، ويتكرم برحمته عن عقوبتهم بعد متابهم .
ثم نبه تعالى ، بعد نهيه عن الغيبة واحتقار الناس بعضهم لبعض ، على تساويهم في البشرية ، كما قال ابن كثير ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)
« يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ » أى من آدم وحواء . أو من ماء ذكر من الرجال ، وماء أنثى من النساء . أى : من أب وأم ، فما منكم أحد إلا وهو يدلى بمثل ما يدلى به الآخر ، سواء بسواء ، فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب .
« وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » قال ابن جرير^(١) : وجعلناكم متناسبين ، فبعضكم يناسب بعضاً نسباً بعيداً ، وبعضكم يناسب بعضاً نسباً قريباً . ليعرف بعضكم بعضاً في قرب القرابة منه وبعده ، لا لفضيلة لكم في ذلك ، وقربة تقربكم إلى الله ، بل كما قال تعالى « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ » أى أشدكم اتقاء له وخشية بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، لأعظمكم بيتاً ، ولا أكثركم عشيرة .
« إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » أى بظواهركم وبواطنكم ، وبالآتي والأكرم ، وغير ذلك ، لا تخفى عليه خافية .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

تنبيهات :

الأول - حكى الثعالبيّ في (فقه اللغة) في تدرّج القبيلة من السكّنة إلى القلة عن ابن السكّبيّ عن أبيه : أن السّعب (بفتح الشين) أكبر من القبيلة ، ثم القبيلة ، ثم العِمارة ، (بكسر العين) ثم البطن ، ثم الفخذ . وعن غيره : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم الفصيلة ، ثم العشيرة ، ثم الذرية ، ثم العترة ، ثم الأسرة . انتهى .

وقال الشيخ ابن برّيّ : الصحيح في هذا ما رتبّه الزبير بن بكار وهو : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العِمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة . قال أبو أسامة : هذه الطبقات على ترتيب خلق الإنسان ، فالشعب أعظمها ، مشتق من شعب الرأس ، ثم القبيلة من قبيلة الرأس لاجتماعها ، ثم العِمارة وهي الصدر ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة وهي الساق . وزاد بعضهم العشيرة فقال :

أقصّد الشعب فهو أكثر حيّ عدداً في الحواء ثم القبيلة
ثم يتلوها العِمارة ثم الـ بَطْنُ والفخذ بعدها والفصيلة
ثم من بعدها العشيرة لكن هي في جنب ما ذكرنا قليلة

نخزيمة شعب ، وكفانة قبيلة ، وقريش عِمارة ، وقصيّ بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة . وسميت (الشعوب) لأن القبائل تشعبت منها . و (الشعوب) جمع شعب ، بفتح الشين .

قال أبو عبيد البكريّ في (شرح نوادر أبي عليّ القالي) : كل الناس حكى الشعب في القبيلة بالفتح ، وفي الجبل بالكسر ، إلا بنّاد فإنه رواه عن أبي عبيدة بالعكس . نقله الزبيديّ في (تاج العروس) .

الثاني - في الآية الاعتناء بالأنساب ، وأنها شرعت للتعارف ، وذم التفاخر بها ، وأن التقى غير النسب ، يقدم على النسب غير التقى ، فيقدم الأورع في الإمامة على النسب غيرهما .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن وهب قال: سألت مالكا عن نكاح الموالى العربية فقال: حلال ، ثم تلا هذه الآية ، فلم يشترط فى الكفاءة الحرية - نقله فى (الإكليل) - .
وقال ابن كثير : استدل بالآية ، من ذهب إلى أن الكفاءة فى النكاح لا تشترط ، ولا يشترط سوى الدين .

الثالث أفاد قوله تعالى (لَتَعَارَفُواْ) حصر حكمة جعلهم شعوباً وقبائل فيه . أى إنما جعلناكم كذلك ليعرف بعضهم بعضاً ، فتصلوا الأرحام ، وتبينوا الأنساب والتوارث ، لا للتفاخر بالآباء والقبائل .

قال الشهاب : المحصر مأخوذ من التخصيص بالذكر ، والسكوت فى معرض البيان .
وقال القاشانى : معنى قوله تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ) لا كرامة بالنسب ، لتساوى الكل فى البشرية المنتسبة إلى ذكر وأنثى . والامتياز بالشعوب والقبائل إنما يكون لأجل التعارف بالانتساب ، لا للتفاخر ، فإنه من الرذائل . والكرامة لا تكون إلا بالاجتناب عن الرذائل الذى هو أصل التقوى . ثم كلما كانت التقوى أزيد رتبة ، كان صاحبها أكرم عند الله ، وأجل قدراً . فالمتقى عن المناهى الشرعية ، التى هى الذنوب ، فى عرف ظاهر الشرع ، أكرم من الفاجر ، وعن الرذائل الخلقية كالجهل والبخل والشره والحرص والجبن ، أكرم من المجتنب عن المعاصى الموصوف بها . انتهى .

الرابع - روى فى معنى الآية أحاديث كثيرة ، منها ما رواه البخارى^(١) عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الناس أكرم ؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم . قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فعن معادن العرب تسألونى ؟ قالوا : نعم . قال : فخيركم فى الجاهلية خيركم فى الإسلام إذا فقهوا .

(١) أخرجه فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٨ - باب قول الله تعالى (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) ، حديث رقم ١٥٨٧ .

وروى مسلم^(١) عنه أيضاً : قال رسول الله ﷺ : إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

وروى الإمام^(٢) أحمد عن أبي ذر قال : إن النبي ﷺ قال له : انظر فإنك لست بخير من أحمَر ولا أَسود ، إلا أن تفضله بتقوى الله .

وروى البزار في مسنده عن حذيفة عن النبي ﷺ : كلّم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بأبائهم ، أو ليمكونن أهون على الله تعالى من الجمالان .
وروى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عمر : أن النبي ﷺ قال في خطبته يوم فتح مكة : أيها الناس ! إن الله تعالى قد أذهب عنكم عَمِيَّةَ الجاهلية وتعظمها بأبائها . فالناس رجلان : رجل برّ تقى كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر يُتَّقَى ، هين على الله تعالى . إن الله عز وجل يقول : (يَسْأَلُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى . . .) الآية .
وبقيت أحاديث أخر ساقها ابن كثير ، فانظرها .

وروى الطبري^(٣) عن عطاء قال : قال ابن عباس : ثلاث آيات ججدهن الناس : الإِذن كله وقال : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ) وقال الناس : أكرمكم أعظمكم بيتاً . قال عطاء : نسيت الثالثة .

ولما كانت طليعة السورة في الحديث عن جفاة الأعراب ، والإِنكار على مساوئ أخلاقهم ، ثم تأثرها من المناهي عن المنكرات التي تكثر فيهم ، ما كانوا فيها هم المقصود أولاً وبالذات ، ثم غيرهم ثانياً وبالعرض ختمها بتعريف أن من كان على شاكلتهم في ارتكاب تلك المناهي ، فهو ممن لم يخامر فؤاده الإيمان ، ثم بيان من المؤمن حقاً ، ليفقهوا أن الأمر ليس كما يزعمون ، فقال سبحانه وتعالى :

(١) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البرّ والصلة والآداب . حديث رقم ٣٤ (طبعتمنا) عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٥٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٤٠ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« قَالَتِ الْأَعْرَابُ » أى المحدث عنهم فى أول السورة « ءَامَنَّا » أى بالله ورسوله ، فنحن مؤمنون ، زعموا أن التلفظ بمادة الإيمان هو عنوان كل مكرمة وإحسان . « قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا » أى لستم مؤمنين ، وإن أخبرتم عنه ، لأن الإيمان قول وعمل . « وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا » أى اتقنا ودخلنا فى السلم خوف السباء والقتل « وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ » أى لأنه لو حل الإيمان فى القلوب لتأثر منه البدن ، وظهر عليه مصداقه من الأعمال الصالحة ، والبعد من ركوب المناهى ، فإن لكل حق حقيقة ، ولكل دعوى شاهد . فإن قيل : فى قوله (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) بعد قوله (قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا) شبه التكرار من غير استقلال بفائدة متجددة ؟ والجواب : إن فائدة قوله (لَمْ تُؤْمِنُوا) تكذيب دعواهم ، وقوله (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) توقيت لما أمروا به أن يقولوه ، كأنه قيل لهم : ولكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطاة قلوبكم لألسنتكم ، لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير فى (قُولُوا) . وما فى (لَمَّا) من معنى التوقع ، دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد ، فلا تكرار . وهذا ما أشار له الزمخشري ، واختار كون الجملة حالاً ، لا مستأنفة ، إخباراً منه تعالى ، فإنه غير مفيد لما ذكر .

تنبيهات :

الأول - قال فى (الإكليل) : استدل بالآية من لم ير الإيمان والإسلام مترادفين ، بل بينهما عمومٌ وخصوصٌ مطلق ، لأن الإسلام الانقياد للعمل ظاهراً ، والإيمان تصديق القلب كما قال (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) . انتهى .

وهذا الاستدلال في غاية الضعف. لأن ترادفهما شرعاً لا يمنع من إطلاقهما بمعناهما اللغويّ في بعض المواضع . وإبانة ذلك موكولة إلى القرائن ، وهي جلية ، كما هنا . وإلا فآية (١) (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلَا يُسَلَّمُ) أكبر منادٍ على اتحادها . ومن اللطائف أن يقال في الإيمان والإسلام ما قالوه في الفقير والمسكين ، إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا . والإيمان والإسلام وأمثالهما ألفاظ شرعية محضة ، ولم يطلقها الشرع إلا على القول والعمل ، كما أوضح ذلك الإمام ابن حزم في (الفصل) فانظره .

الثاني - قال في (الإكليل) : في الآية رد على الكرامية في قولهم إن الإيمان هو الإقرار باللسان ، دون عقد القلب ، وهو ظاهر . وقد استوفى الرد عليهم كغيرهم ، الإمام ابن حزم في (الفصل) ، فراجعه .

الثالث - قيل ، مقتضى الظاهر أن يقول : قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا . أو : لم تؤمنوا ولكن أسلمتم . فعدل عنه إلى هذا النظم احترازاً من النهي عن القول بالإيمان والجزم بإسلامهم ، وقد فقد شرط اعتباره شرعاً . وقيل : إنه من الاحتباك ، وأصله : لم تؤمنوا فلا تقولوا آمنا ، ولكن أسلمتم ، فقولوا أسلمنا ، فحذف من كل منهما نظير ما أثبت في الآخر . والأول أبلغ لأنهم ادعوا الإيمان فنفي عنهم ، ثم استدرك عليه فقال : دعوا ادعاء الإيمان ، وادعوا الإسلام ، فإنه الذي ينبغي أن يصدر عنكم على ما فيه . فنفي الإيمان ، وأثبت لهم قول الإسلام دون الانصاف به ، وهو أبلغ مما ذكر من الاحتباك ، مع سلامته من الحذف بلا قرينة - هذا ما في القاضي وحواشيه - .

« وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَ » أى فتأتمروا لأوامرهما ، وتنتهوا عما نهياكم عنه . والخطاب لهؤلاء الأعراب القائلين آمنا « لَا يَلْتَمِسُكُمْ مَنْ أَعْمَلَكُمْ شَيْئاً » أى لا يظلمكم من أجور أعمالكم شيئاً ، ولا يفتككم من ثوابها .

قال الزخشري : يقال (ألتة السلطان حقه أشد الألت) وهي لغة غطفان . ولغة أسد ،

وأهل الحجاز - لانه ليقاً - وحكى الأصمى عن أم هشام السلوية أنها قالت : الحمد لله الذى لا يقات ولا يلات ولا تصمه الأصوات . وقرئ باللغتين (لَا يَلْتَكُمُ) و (لَا يَأْتِكُمْ) . ونحوه فى المعنى ^(١) (فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) .

« إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى لمن أطاعه وتاب إليه من سالف ذنوبه ، فأنيبوا إليه أيها الأعراب ، وتوبوا من النفاق ، واعقدوا قلوبكم على الإيمان ، والعمل بمقتضياته ، يغفر لكم ويرحمكم .

ثم بين تعالى الإيمان ، وما به يكون المؤمن مؤمناً ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا

بَأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا » أى لم يقع فى نفوسهم

شك فيما آمنوا به من وحدانية الله ونبوة نبيه ، وألزموا نفوسهم طاعة الله ، وطاعة رسوله ،

والعمل بما وجب عليهم من فرائض الله بغير شك فى وجوب ذلك عليهم . « وَجَاهَدُوا

بَأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى جاهدوا المشركين بإتفاق أموالهم ، وبذل مهجهم

فى جهادهم ، على ما أمرهم الله به من جهادهم ، وذلك سبيله ، لتكون كلمة الله العليا ، وكلمة

الذين كفروا السفلى - قاله ابن جرير ^(٢) : وقد مراراً أن قصر (سبيل الله) على غزو الكفار

المتدين ، من باب قصر العام على أهم أفراده وأعلاها ، وإلا فسبيل الله يعم العبادات والطاعات

كلها ، لأنها فى سبيله وجهته .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٧] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال الشهاب: وقدم الأموال، لحرص الإنسان عليها، فإن ماله شقيق روحه. و(جاهدوا) بمعنى: بذلوا الجهد. أو مفعوله مقدر، أى العدو أو النفس والهوى. «أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» أى الذين صدقوا فى ادعاء الإيمان، لظهور أثر الصدق على جوارحهم، وتصديق أفئدتهم وأقوالهم. وفيه تعريض يكذب أولئك الأعراب فى ادعائهم الإيمان وإفادة للحرص. أى: هم الصادقون، لا هؤلاء، أو إيمانهم إيمان صدق وجد.

تنبيهات :

الأول - قال فى (الإكلیل) : فى الآية دليل على أن الأعمال من الإيمان. وقدمنا أن هذا ما لا خلاف فيه بين السلف، وليراجع فى ذلك ما بسطه ابن حزم رحمه الله فى (الفصل).
الثانى - قال القاشانى: فى قوله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ...) الآية إشارة إلى الإيمان المعبر الحقيقي، وهو اليقين الثابت فى القلب المستقر الذى لا رتباب معه، لا الذى يكون على سبيل الخطرات، فالؤمنون هم الموقنون الذين غلبت ملكة اليقين قلوبهم على نفوسهم، ونورها بأنوارها، فتأصلت فيها ملكة القلوب حتى تأثرت بها الجوارح، فلم يمكنها إلا الجرى بحكمها، والتسخر لهيأتها، وذلك معنى قوله (وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) بعد نفي الارتباب عنهم، لأن بذل المال والنفس فى طريق الحق هو مقتضى اليقين الراسخ، وأثره فى الظاهر. انتهى.

الثالث - قال فى (الكشاف) : فإن قلت : ما معنى (ثم) ههنا، وهى للتراخى. وعدم الارتباب يجب أن يكون مقارناً للإيمان، لأنه وصف فيه، لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التى حقيقتهما التيقن وانتفاء الريب؟ قلت: الجواب على طريقتين:

أحدهما - أن من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان، أو بعض المضلين، بعد تلج الصدر، فشككه وقذف فى قلبه ما يثلم يقينه. أو نظر هو نظراً غير سديد يسقط به على الشك، ثم يستمر على ذلك، راكباً رأسه، لا يطلب له مخرجاً. فوصف المؤمنون حقاً بالبعد عن هذه الموبقات. ونظيره قوله (ثُمَّ اسْتَقَمُوا).

والثاني - أن الإيقان وزوال الريب ، لما كان ملاك الإيمان ، أفر دبالذكر بعد تقدم الإيمان ، تنبيهاً على مكانه . وعطف على الإيمان بكلمة التراخي ، إشعاراً باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غصاً جديداً . انتهى .

يعنى : أنه إما لنفي الشك عنهم فيما بعد ، فدل على أنهم كما لم يرتابوا أولاً لم تحدث لهم ريبة ، فالترأخي زمانى لا رتبى على ما مرّ في قوله : (ثُمَّ اسْتَقَمُوا) . أو عطفه عليه عطف جبريل على الملائكة ، تنبيهاً على أصالته في الإيمان ، حتى كأنه شيء آخر . فثم دلالة على استمراره قديماً وحديثاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« قُلْ » أى هؤلاء الأعراب القائلين بأفواههم (ءامناً) . « أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ » أى أتخبرونه بقولكم (ءامناً) ، بطاعتكم إياه لتكونوا مع المؤمنين عنده ، ولا تبالون بعلمه بما أتم عليه ، من التعليم ، بمعنى الإعلام والإخبار ، فلذا تعدى للثاني بالباء . وقيل : تعدى بها لتضمنين معنى الإحاطة أو الشعور . وفيه تجهيل لهم وتوبيخ . أى لأن قولهم (ءامناً) إن كان إخباراً للخلق فلا دليل على صدقه ، وإن كان للحق تعالى فلا معنى له ، لأنهم كيف يعلمونه ، وهو العالم بكل شيء ، كما قال « وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » قال ابن جرير^(١) : هذا تقدم من الله إلى هؤلاء الأعراب بالنهي عن أن يكذبوا ويقولوا غير الذى هم عليه في دينهم . يقول : الله محيط بكل شيء عالم به ، فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائرهم ، فينالكم عقوبته ، فإنه لا يخفى عليه شيء . ثم أشار إلى نوع آخر من جفائهم ، مخموماً بتوعدهم ، بقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (يَمْنُونِ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ، بَلِ اللَّهُ

يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« يَمْنُونِ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا » أى اتقادوا وكثروا سواد أتباعك . « قُلْ لَا تَمْنُوا

عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ » أى بإسلامكم ، إذ لا ثمرة منه إلى^(١) (مَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ)

« بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى قولكم

(ءَامَنَّا) لكن علم الله من قلوبكم أنكم كاذبون ، لا اطلاعه على الغيوب ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » قال ابن جرير^(٢)

يقول تعالى ذكره : إن الله أيها الأعراب لا يخفى عليه الصادق منكم من الكاذب ، ومن

الداخل منكم فى ملة الإسلام رغبة فيه ، ومن الداخل فيه رهبة من الرسول وجنده ،

فلا تعلمونا دينكم وضائر صدوركم ، فإن الله لا يخفى عليه شئ فى خبايا السموات والأرض .

تنبيهات :

الأول - روى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس قال : جاءت بنو أسد إلى رسول الله

ﷺ فقالوا : يا رسول الله ! أسلمنا وقاتلتك العرب ، ولم نقاتلك . فقال رسول الله ﷺ :

إن فقههم قليل ، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم - ونزلت هذه الآية - .

وقال ابن زيد : هذه الآيات نزلت فى الأعراب . ولا يبعد أن يكون المحدث عنهم

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

فى آخر السورة من جفاة الأعراب ، غير المؤمنين أولها ، وإنما ضموا إليهم لاشتراكهم معهم فى غلظة القول وخشونته . ويحتمل أن يكون النبأ لقبيلة واحدة - والله أعلم - .

الثانى - فى قوله تعالى (بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ...) الآية ، ملاحظة المنة لله ، والفضل فى الهداية ، والقيام بواجب شكرها ، والاعتراف بها ، كما قال النبى ﷺ للأنصار يوم حنين^(١) : يا ممشر الأنصار ! ألم أجدكم ضالّاً فهداكم الله بي ، وكنتم متفرّقين فأتفكم الله بي . وكفتم عالة فأغناكم الله بي ؟ - كلما قال شيئاً ، قالوا : الله ورسوله أمن .

وما أطف قول أبى إسحاق الصابى فى طليعة كتاب له ، بعد الثناء على الله تعالى : وبعث إليهم رسلاً منهم يهدونهم إلى الصراط المستقيم ، والفوز العظيم ، ويمدّون بهم عن المسلك الذميم ، والمورد الوخيم ، فكان آخرهم فى الدنيا عصرًا ، وأولهم يوم الدين ذكرًا ، وأرجعهم عند الله ميزانًا ، وأوضحهم حجة وبرهانًا ، وأبعدهم فى الفضل غاية ، وأبهرهم بمجزة وآية ، محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً ، الذى اتخذهم صفيّاً وحبيباً ، وأرسله إلى عباده بشيراً ونذيراً ، على حين ذهابٍ منهم مع الشيطان ، وصدوف عن الرحمن ، وتقطيع للأرحام ، وسفك للدماء الحرام ، واقتراف للجرائم ، واستحلال للمآثم . أنوفهم فى المعاصى حمية ، ونفوسهم فى غير ذات الله أبية ، يدعون معه الشركاء ، ويضيفون إليه الأكفاء ، ويعبدون من دونه ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئاً . فلم يزل ﷺ يقذف فى أسماعهم فضائل الإيمان ، ويقرأ على قلوبهم قوارع القرآن ، ويدعوهم إلى عبادة الله بالاطف لما كان وحيداً ، وبالغنف لما وجد أنصاراً وجنوداً . لا يرى لكفر أثراً إلا طمسه وعماه ، ولا رسماً إلا أزاله وعفاه ، ولا حجة ممّوّهة إلا كشفها ودحضها ، ولا دعامة مرفوعة إلا حطها ووضعها ، حتى ضرب الحق بجمرانه ، وصدع ببياناه ، وسطع بمصباحه ، ونصع بأوضحاه ، واستنبت الله هذه الأمة من حضيض النار ، وعلّاهها إلى ذروة الصلحاء والأبرار ، واتصل حبيلها بعد البتات ،

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٥٦ - باب غزوة الطائف ، حديث

رقم ١٩٣١ ، عن عبد الله بن زيد بن عاصم .

والتأم شملها بعد الشتات ، واجتمعت بعد الفرقة ، وتوادعت بعد الفتنة ، فصلى الله عليه صلاة زاكية نامية ، راحة غادية ، منجزة عدته ، رافعة درجته .

الثالث - قال الرازي : هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق . وهي إما مع الله تعالى ، أو مع الرسول ﷺ ، أو مع غيرها من أبناء الجنس . وهم على صنفين : لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين ، وداخلين في رتبة الطاعة ، أو خارجاً عنها ، وهو الفاسق . والداخل في طائفتهم ، السالك لطريقتهم ، إما أن يكون حاضراً عندهم ، أو غائباً عنهم ، فهذه خمسة أقسام :

- أحدها - يتعلق بجانب الله .
- وثانيها - بجانب الرسول .
- وثالثها - بجانب الفاسق .
- ورابعها - بالمؤمن الحاضر .
- وخامسها - بالمؤمن الغائب .

فذكر الله تعالى في هذه السورة خمس مرات (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) ، وأرشد في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة .

فقال أولاً (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) ، وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله ، لأنها لا تعلم إلا بقول رسول الله . وقال ثانياً (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) لبيان وجوب احترام النبي ﷺ .

وقال ثالثاً (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ) لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم ، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بينكم ، وبين ذلك عند تفسير قوله (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا) .

وقال رابعاً (يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ) وقال (وَلَا تَفَارِقُوا)

لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين في حضورهم ، والإزراء بحالهم ومنصبهم .

وقال خامساً (يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ

إِثْمٌ) وقال (وَلَا تَجَسَّسُوا) وقال (وَلَا يَغْتَبِ بَمَعْضِكُمْ بَعْضًا) لبيان وجوب الاحتراز

عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته ، وذكر ما لو كان حاضراً لتأذى . وهو في غاية الحسن من الترتيب .

فإن قيل : لم لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة . الابتداء بالله

ورسوله ثم بالمؤمن الحاضر ثم بالمؤمن الغائب ثم الفاسق ؟

نقول : قدم الله ما هو الأهم على ما دونه ، فذكر جانب الله ، ثم جانب الرسول ،

ثم ذكر ما يفضى إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق ،

والاعتماد عليه ، فإنه يذكر كل ما كان أشد نفاراً للصدور . وأما المؤمن الحاضر أو الغائب

فلا يؤدي المؤمن إلى حِدِّ يفضى إلى القتال . ألا ترى أن الله تعالى ذكر عقيب نبي الفاسق ،

آية الاقتتال فقال (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا) ؟ انتهى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٠ - سُورَةُ ق

وتسمى سورة (الباسقات) . وهي مكية بالإجماع . وآيها خمس وأربعون آية .
قال ابن كثير: وهذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح ، وقيل: من الحجرات .
وأما ما يقوله العوام أنه من (عمّ) فلا أصل له ، ولم يقله أحد من العلماء المعبرين فيما نعلم .
والدليل ما رواه أوس بن حذيفة قال : سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن؟
فقالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ؛ وحزب المفصل
وحده . فإذا عدت ثمانياً وأربعين سورة فالتى بعدهن سورة (ق) بيانه :
ثلاث : البقرة وآل عمران والنساء .
 وخمس : المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة .
 وسبع : يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل .
 وتسع : سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان .
 وإحدى عشرة : الشعراء والزلزل والقصص والعنكبوت والروم ولقان وألم السجدة
وسبأ وفاطر ويس .
 وثلاث عشرة : الصافات وص والزمر وغافر وحّم السجدة وحّم عسق والزخرف
والدخان والجاثية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات .

ثم بعد ذلك الحزب المفصل ، كما قاله الصحابة رضى الله عنهم ، فتعين أن أوله سورة (ق) .

وروى الإمام أحمد^(١) ومسلم^(٢) وأهل السنن أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي : ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد ؟ قال : بـ (ق) و (اقتربت) .

وروى مسلم^(٣) وغيره ، عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : ما حفظت (ق) إلا من رسول الله ﷺ . كان يخطب بها كل جمعة . وفي رواية : كان يقرأها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس .

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في الجامع الكبار ، كالعيد والجمع ، لاسمائها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب . انتهى .

-
- (١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢١٧ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .
 - (٢) أخرجه مسلم في : ٨ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٥١٤ (طبعتنا) .
 - (٣) أخرجه مسلم في : ٧ - كتاب الجمعة ، حديث ٥٢٠٩ (طبعتنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (ق ، وَأَلْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ)

« ق » هو حرف من حروف التهجى المفتوح بها أوائل السور ، مثل : ص ، ون ، وآم ، وحَم ، ونحوها . علم على السورة ، على الصحيح من أقوال ، كما تقدم مراراً .

تنبيه :

قال ابن كثير : روى عن بعض السلف أنهم قالوا : (ق) جبل محيط بجميع الأرض ، يقال له (جبل قاف) . وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس ، لما رأى من جواز الرواية عنهم ، مما لا يُصدَّق ولا يكذب . وعندى أن هذا وأمثاله من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم ، كما افتترى فى هذه الأمة ، مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها ، أحاديث عن النبي ﷺ ، وما بالعهد من قدم . فكيف بأمة بنى إسرائيل ، مع طول المدى ، وقلة الحفاظ والنقاد فيهم ، وشرهم الخمر ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته ؟ وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله ^(١) (وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج) فيما قد يجوزه العقل . فأما فيما تحيله العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه ، فليس من هذا القبيل .

وقد أكثر كثير من السلف المفسرين ، وكذا طائفة كثيرة من الخلف ، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب ، تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ، والله الحمد والمنة .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٠ - باب ما ذكر عن بنى إسرائيل ،

حديث رقم ١٦٢٤ عن ابن عمر .

ثم ردّ ابن كثير ، رحمه الله ، ما قيل من أن المراد من (ق) قضى الأمر والله !
كقول الشاعر^(١) :

* قلت لها قنى فقالت قاف *

أى : إنى واقفة ، بأن فى هذا نظراً ، لأن الحذف فى الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف . انتهى .
« وَأَلْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ » أى : ذى المجد والشرف على غيره من الكتب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ)

« بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ » أى : لأن جاءهم منذر من جنسهم ، لا من جنس الملك ، أو من جلدتهم . وهو كما قال أبو السعود - إضراب عما ينبى عنه جواب القسم المحذوف ، كأنه قيل : والقرآن المجيد ، أنزلناه إليك ، لتنذر به الناس . حسبما ورد فى صدر سورة الأعراف ، كأنه قيل بعد ذلك : لم يؤمنوا به ، جعلوا كلا من المنذر والمنذر به عرضة للنسكير والتعجب ، مع كونهما أوفق شىء لقضية العقول ، وأقربه إلى التلقى بالقبول .

وقيل : التقدير : والقرآن المجيد ، إنك لمنذر . ثم قيل بعده إنهم شكوا فيه ، ثم أضرب عنه . وقيل : بل عجبوا ، أى لم يكتفوا بالشك والرد ، بل جزموا بالخلاف ، حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة . وقيل : هو إضراب عما يفهم من وصف القرآن بالمجيد ، كأنه قيل : ليس سبب اقتناعهم من الإيمان بالقرآن أنه لا مجدله ، ولكن لجهاهم .

« فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ » تفسير لتعجبهم ، وبيان لكونه مقارناً لغاية الإنكار ، مع زيادة تفصيل لمحل التعجب . وهذا إشارة إلى كونه عليه الصلاة والسلام منذراً بالقرآن . وإضمارهم أولاً ، للإشعار بتعنيهم بما أسند إليهم . وإظهارهم ثانياً ، للتسجيل عليهم

(١) لم أقف عليه .

بالكفر بموجبه . أو عطف لتعجبهم من البعث ، على تعجبهم من البعثة . على أن هذا إشارة إلى مبهم ، يفسره ما بعده من الجملة الإنكارية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (أَفَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ، ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)

« أَفَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا » تقرير للتعجب ، وتأكيده للإنكار . والعامل في (إذا) مضمر غنى عن البيان ، لغاية شهرته ، مع دلالة ما بعده عليه . أى : أحين نموت ونصير ترابا نرجع ، كما ينطق به النذير والمندر به . مع كمال التباين بيننا وبين الحياة ، حينئذ « ذَلِكَ » إشارة إلى محل النزاع « رَجْعٌ بَعِيدٌ » أى : عن الأوهام أو العادة أو الإمكان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ، وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ)

« قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ » أى : ما تأكل من أجسامهم بعد مماتهم . وهو رد لاستبعادهم ، وإزاحقه . فإن من عمّ علمه ولطف حتى انتهى إلى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى . وتأكل من لحومهم وعظامهم ، كيف يستبعد رجعه إياهم أحياء كما كانوا . وقيل : المعنى ما يموت فيدفن في الأرض منهم . « وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ » قال أبو السعود : أى حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ، أو محفوظ من التغير . والمراد : إما تمثيل لعلمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها ، بعلم من عنده كتاب محيط ، يتلقى منه كل شيء . أو تأكيده لعلمه تعالى بها ، بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ)

« بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ » وهو القرآن ، « لَمَّا جَاءَهُمْ » أى من غير تأمل وتفكر .

قال الزمخشري : إضراب أتبع الإضراب الأول ، للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أظلم من تعجبهم ، وهو التكذيب بالحق ، الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات ، في أول وهلة من غير تفكير ولا تدبر . وكونه أظلم ، للتصريح بالتكذيب من غير تدبر بعد التعجب منه . « فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ » أى مضطرب . يعنى . اختلاف مقالاتهم فيه ، من ادعاء أنه شعر أو سحر ونحوه ، تعنتاً وكبراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)
« أَفَلَمْ يَنْظُرُوا » أى هؤلاء المكذبون بالبعث ، المنكرون قدرتنا على إحيائهم بعد فنائهم ، « إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا » أى رفعناها بغير عمد ، « وَزَيَّنَّاهَا » أى بالنجوم ، « وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ » . قال ابن جرير^(١) : يعنى وما لها من صدوع وفتوح .
كقوله تعالى^(٢) (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ، مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ ، فَإِذْ جَعَلَ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ أَرْجَعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) أى كليل عن أن ترى عيباً أو نقصاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)
« وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا » أى بسطناها ، « وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ » أى جبلاً ثوابت ،
حفظاً لها من الاضطراب ، لقوة الجيشان فى جوفها ، « وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ » أى صنف ، « بَهِيجٍ » أى حسن المنظر ، يبتهج به لحسنه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٥١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٦٧ / المالك / ٤٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ)

« تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ » أى لتبصر وتذكر كل عبد منيب راجع إلى ربه ، مفسكر في بدائع صنعه . و (تَبْصِرَةً) و (ذِكْرَىٰ) منصوبان بالفعل الأخير على أنهما مفعولان له ، وإن كانتا علمتين للأفعال المذكورة معنى . أو بفعل مقدر . أى فعلنا ما فعلنا تبصيراً وتذكيراً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ)

[١٠] (وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ)

[١١] (رِزْقًا لِلْعِبَادِ ، وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْمَنًا ، كَذَلِكَ الْخُرُوجُ)

« وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ » أى المزن « مَاءً مُّبَارَكًا » أى كثير المنافع ، « فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ » أى أشجاراً ذوات أثمار ، « وَحَبَّ الْحَصِيدِ » أى الزرع المحصود من البر والشعير وسائر أنواع الحبوب . وتخصيص إنبات حبه بالذكر ، لأنه المقصود بالذات . « وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ » أى وأنبتنا بالماء الذى أنزلناه من السماء ، النخل طوالاً ، أو حوامل . من (أبسقت الشاة) إذا حملت ، فيكون من (أفعل) فهو (فاعل) . والقياس (مفعول) فهو من النوادر كالطوايح واللوايح ، فى أخوات لها شاذة . وإفرادها بالذكر مع دخولها فى (جَنَّاتٍ) لبيان فضلها بكثرة منافعها . وتوسيط الحب بينهما لتأكيد استقلالها وامتنيازها عن البقية ، مع ما فيه من مراعاة الفواصل . « لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ » أى متراكم بعضه فوق بعض . « رِزْقًا لِلْعِبَادِ » أى لرزقهم . قال أبو السعود : علة لقوله تعالى (فَأَنْبَتْنَا) . وفى تعليقه بذلك ، بعد تعليل أنبتنا الأول بالتبصرة والتذكير ، تنبيه على أن الواجب على العبد أن يكون انتفاعه

بذلك من حيث التذكر والاستبصار ، أهم من تمتعه به من حيث الرزق . وقيل : (رَزَقًا) مصدر من معنى (أَنْزَلْنَا) ، لأن الإنبات رزق . « وَأَخْيَيْنَا بِهِ » أى بذلك الماء « بَلَدَةً مَيِّتًا » أى أرضاً جديبة ، فأنبت أنواع النبات والأزهار . « كَذَلِكَ الْخُرُوجُ » أى خروجهم أحياء من القبور . شبه بث الأموات ونشرهم ، بقدرته تعالى بإخراج النبات من الأرض ، بعد وقوع المطر عليها ، ف (كَذَلِكَ) خبر (الْخُرُوجُ) . أو مبتدأ فالكاف بمعنى (مثل) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ)

[١٣] (وَعَادٌ وَفِرْعَوْنٌ وَإِخْوَانُ لُوطٍ)

[١٤] (وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ، كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ)

« كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ » أى قبل قريش « قَوْمُ نُوحٍ » قال أبو السعود : استئناف وارد لتقرير حقيقة البعث ، ببيان اتفاق كافة الرسل عليهم السلام عليها ، وتعذيب منكريها . « وَأَصْحَابُ الرَّسِّ » وهو بئر كانوا عنده ، يقال إنهم قوم شعيب عليه السلام . ويقال غير ذلك ، كما تقدم فى سورة الفرقان . « وَثَمُودُ » وهم الذين جادلوا صالحاً ، وقتلوا الناقة . « وَعَادٌ » وهم الذين جادلوا هوداً فى أصنامهم . « وَفِرْعَوْنُ » وهو الذى جادل موسى فيما أرسل به . قال الرازى : ولم يقل (وقوم فرعون) لأن فرعون كان هو المغتر المستخف بقومه ، المستبد بأمره . « وَإِخْوَانُ لُوطٍ » وهم الذين جادلوه فى إتيان الرجال . « وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ » أى أى الغيضة من الشجر ، المجادلون شعيباً فى الكيل والوزن . (وَقَوْمُ تُبَّعٍ) قال المهيئى : المجادلون إمامهم وعلماءهم فى الدين . ومضى الكلام على ذلك فى الحىجر والدخان ، « كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ » أى كل من هذه الأمم ، وهؤلاء القرون ، كذبوا رسولهم ،

ومن كذب رسولاً ، فكأنما كذب جميع الرسل ، كقوله تعالى^(١) (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) ، وإنما جاءهم رسول واحد ، فهم في نفس الأمر ، لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم - أفاده ابن كثير - وهو توجيه لجمع الرسل . وإفراد ضمير (كَذَّبَ) مراعاة للفظ (كُلُّ) فإنه مفرد وإن كان جمعاً معنى . « فَبِحَقِّ وَعِيدِ » أى فوجب لهم الوعيد الذى وعد به من كفر ، وهو العذاب والنقمة .

قال ابن جرير^(٢) : إنما وصف تعالى في هذه الآية ما وصف من إحلاله عقوبته بهؤلاء المكذبين الرسل ، ترهيباً منه بذلك مشركى قريش ، وإعلاماً منه لهم أنهم إن لم ينبؤوا من تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ أنه مُجِلٌّ بهم من العذاب مثل الذى أحل بهم . أى فهو تسليمة للرسول صلوات الله عليه ، وتهديد لهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ، بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)

« أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ » أى : أفعجزنا عن الإبداء ، حتى نعجز عن الإعادة ، فاهمزة للإنكار . قال الشهاب : العى هنا بمعنى العجز ، لا التعب . قال الكسائى : تقول (أعيت) من التعب و (عيت) من انقطاع الحيلة ، والعجز عن الأمر . وهذا هو المعروف والأفصح ، وإن لم يفرق بينهما كثير . و (الخلق الأول) هو الإبداء على ما ذكر ، ويحتمل أن يراد به خلق السموات والأرض ، لأن خلق الإنسان متأخر عنه . ويدل له آية^(٣) (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِ بِخَلْقِهِنَّ . . .) الآية .

وقوله « بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » عطف على مقدر ، يدل عليه ما قبله ،

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٠٥] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ٣٣] .

كأنه قيل : هم معترفون بالخلق الأول ، فلا وجه لإنكارهم للثاني ، بل هم اختلط عليهم الأمر والتبس ، لعدم فهمهم إعادة مامات وتفرق أجزاءه وإعراضهم عن سلطان القدرة الإلهية ، وسهولة ذلك في المقدورات الربانية .

لطيفة :

قال الناصر : في الآية أسئلة ثلاثة : لِمَ عرّف الخلق الأول ، ونكّر اللبس ، والخلق

الجديد ؟

فاعلم : أن التعريف لا غرض منه إلا تفخيم ما قصد تعريفه وتعظيمه ، ومنه تعريف الذكور في قوله ^(١) (وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ) ، ولهذا المقصد عرف الخلق الأول ، لأن الغرض جمعه دليلاً على إمكان الخلق الثاني بطريق الأولى . أى إذا لم يعنى تعالى بالخلق الأول ، على عظمته ، فالخلق الآخر أولى أن لا يعي به . فهذا سر تعريف الخلق الأول .

وأما التنكير فأمره منقسم : فمرة يقصد به تفخيم المنكر ، من حيث ما فيه من الإبهام ، كأنه أنخم من أن يخاطبه معرفة . ومرة يقصد به التقليل من المنكر ، والوضع منه . وعلى الأول ^(٢) (سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ) وقوله ^(٣) (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) ، و ^(٤) (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ) ، وهو أكثر من أن يحصى . والثاني : هو الأصل في التنكير ، فلا يحتاج إلى تمثيله . فتنكير (اللبس) من التعظيم والتفخيم ، كأنه قال : في لبس أى لبس . وتنكير (الخلق الجديد) للتقليل منه ، والتهوين لأمره ، بالنسبة إلى الخلق الأول . ويحتمل أن يكون للتفخيم ، كأنه أمر أعظم من أن يرضى الإنسان بكونه ملتبساً عليه ، مع أنه أول ما تبصر فيه صحته . انتهى .

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٩] .

(٢) [٣٦ / يس / ٨٥] . (٣) [٥ / المائدة / ٩] و [٤٩ / الحجرات / ٣] .

(٤) [٥٢ / الطور / ١٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ » أى تحدث به نفسه، وهو ما يخطر بالبال . وقوله تعالى « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » تمثيل للقرب المعنوى ، بالصورة الحسية المشاهدة . وقد جعل ذاك القرب أتم من غاية القرب الصورى ، الذى لا اتصال أشد منه فى الأجسام ، إذ لا مسافة بين الجزء المتصل به وبينه .

قال الشهاب : تجوز بقرب الذات عن قرب العلم ، لتزوجه عن القرب المكافئ ، إما تمثيلاً ، وإما من إطلاق السبب وإرادة السبب ، لأن القرب من الشئ سبب للعلم به وبأحواله فى العادة . والمعنى : أنه تعالى أعلم بأحواله ، خفيها وظاهرها ، من كل عالم . وقد ضرب المثل فى القرب بحبل الوريد ، لأن أعضاء المرء وعروقه متصلة على طريق الجزئية ، فهى أشد من اتصال ما اتصل به من الخارج . وخص هذا لأن به حياته ، وهو بحيث يشاهده كل أحد . والحبل : العرق . شبه بواحد الحبال . فإضافته للبيان أو لامية ، من إضافة العام للخاص . فإن أبقي الحبل على حقيقته ، فإضافته كالجبن الماء .

تنبيه :

تأول ابن كثير الآية على غير ما تقدم ، بجعل (نحن) كناية عن الملائكة ، وعبارته : يعنى ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه . قال : ومن تأوله على العلم ، فإنما فرقاً لئلا يلزم حلول أو اتحاد ، وهما منفيان بالإجماع ، تعالى الله وتقدس ، ولا يمكن اللفظ لا يقتضيه ، فإنه يقل (وأنا أقرب إليه) وإنما قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ) كما قال فى المحضر^(١) (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ) يعنى : ملائكته . وكما قال

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٥] .

تبارك وتعالى : ^(١) (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُو لَحَافِظُونَ) فالملائكة نزلت بالذكر وهو القرآن ، بإذن الله عز وجل . وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من جبل وريده ، بإقدار الله ، جل وعلا ، لهم على ذلك . فللملك لمّة من الإنسان ، كما أن للشيطان لمّة . ولذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم . ثم أيد ابن كثير رحمه الله ما ذكره ، بما ورد في الآية بعدها . والوجه الأول أدق وأقرب ، وفيه من الترهيب وتناهي سعة العلم ، مع التعريف بجلالة المقام الرباني ، ما لا يخفى حسنه . وليس تأويل من تأول بالعلم ، للفرار من الحلول والاتحاد فقط ، بل له ولما تقدم أولا . كما أن إيثار (نحن) على (أنا) لا يحسم ما نفاه ، لاحتمال إرادة التعميم ؛ (نحن) كما هو شائع ، فلا يتم له ذلك . نعم ! اللفظ الكريم يحتمل ما ذكره بأن يكون ورد ذلك تعظيما للملك ، لأنه بأمره تعالى وبإذنه ، ولكن لا ضرورة تدعو إليه ، مع ما عرف من أن الأصل الحقيقة . وقد عنى رحمه الله بمن فهم الحلول والاتحاد ، من قال في تفسير الآية كالفاساني - ما مثاله : وإنما كان أقرب مع عدم المسافة بين الجزء المتصل به وبينه ، لأن اتصال الجزء بالشيء يشهد بالبينونة والاثنيونية الراجعة للاتحاد الحقيقي . ومعيته وقربه من عبده ليس كذلك ، فإن هويته وحقيقته المندرجة في هويته وتحققه ليست غيره ، بل إن وجوده المخصوص المعين إنما هو بعين حقيقته التي هي الوجود ، من حيث هو وجود ، ولولاه لكان عدما صرفاً ولا شيئاً محضاً . انتهى كلام الفاساني . ولا يفهم من ذلك حلول ولا اتحاد بالمعنى المتعارف ، لأن هؤلاء اصطلاحاً معروفاً ، وهم أول من يتبرأ من الحلول والاتحاد ، كما أوضحت ذلك مع برهان استحقاقتهما ، في كتاب (دلائل التوحيد) الذي طبع بحمد الله من أمد قريب . فارجع إليه ، واستغفر لمصنفه .

أقول : رأيت ابن كثير بعد ، مسبقاً بما ذكره شيخه الإمام ابن تيمية ، فقد أوضح ذلك رحمه الله في كتابه (شرح حديث النزول) : ليس في القرآن وصف الرب تعالى بالقرب

من كل شيء أصلاً ، بل قربه الذي في القرآن خاص لا عام ، كقوله تعالى ^(١) (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) . فهو سبحانه قريب ممن دعاه . وكذلك ما في الصحيحين ^(٢) عن أبي موسى الأشعري ؛ أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر ، فسكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير ، فقال : (أيها الناس ! اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، وإنما تدعون سميماً قريباً . إن الذين تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته) . فقال : إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم ، لم يقل : إنه قريب إلى كل موجود . وكذلك قول صالح عليه السلام ^(٣) (فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) ومعلوم أن قوله (قَرِيبٌ مُجِيبٌ) مقرون بالتوبة والاستغفار . أراد به ، قريب مجيب لاستغفار المستغفرين التائبين إليه ، كما أنه رحيم ودود . وقد قرن القريب بالمجيب . ومعلوم أنه لا يقال مجيب لكل موجود ، وإنما الإجابة لمن سأله ودعاه ، فكذلك قربه سبحانه وتعالى ، وأسماء الله المطلقة كاسمه السميع والبصير والغفور والشكور والمجيب والقريب ، لا يجب أن تتعلق بكل موجود ، بل يتعلق كل اسم بما يناسبه . واسمه العليم ، لما كان كل شيء يصلح أن يكون معلوماً يتعلق بكل شيء . وأما قوله تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) فالمراد به قربه إليه بالملائكة . وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف . قالوا : ملك الموت أذن إلى من أهله ، ولكن لا تبصرون الملائكة . وقد قال طائفة (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ) بالعلم . وقال بعضهم : بالقدرة والرؤية . وهذه الأقوال ضعيفة ، فإنه ليس في الكتاب والسنة وصفه بقرب عام من كل موجود ، حتى يحتاجوا

(١) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

(٢) أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٣١ - باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير ، حديث رقم ١٤٢٣ .

وأخرجه مسلم في : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٤ - ٤٧ (طبعنا) . (٣) [١١ / هود / ٦١] .

أن يقولوا بالعلم والقدرة ، ولكن بعض الناس ، لما ظنوا أنه يوصف بالقرب من كل شيء ، تأولوا ذلك بأنه عالم بكل شيء ؛ قادر على كل شيء ، وكأنهم ظنوا أن لفظ القرب ، مثل لفظ المعية . وقد ثبت عن السلف أنهم قالوا في آية^(١) (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) هو معهم بعلمه ، مع علوه على عرشه . وقد ذكر ابن عبد البر وغيره ؛ أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين ، لم يخالفهم فيه أحد .

ثم قال : ولم يأت في لفظ القرب مثل ذلك أنه قال : هو فوق عرشه ، وهو قريب من كل شيء ، بل قال^(٢) (إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ) وقال^(٣) (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) .

وقد روى ابن أبي حاتم بسنده أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! أقرب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فسكت النبي ﷺ ، فأنزل الله تعالى (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي . .) الآية . ولا يقال في هذا قريب بعلمه وقدرته ، فإنه عالم بكل شيء ، قادر على كل شيء ، وهم لم يشكوا في ذلك ، ولم يسألوا عنه ، وإنما عن قربه إلى من يدعو ويُنَاجِيهِ ، فأخبر أنه قريب مجيب .

وطائفة من أهل السنة تفسر القرب في الآية والحديث بالعلم ، لكونه هو المقصود ، فإنه إذا كان يعلم ويسمع دعاء الداعي حصل مقصوده . وهذا هو الذي اقتضى أن يقول من يقول ، بأنه قريب من كل شيء ، بمعنى العلم والقدرة ، فإن هذا قد قاله بعض السلف ، وكثير من الخلف ، لكن لم يقل أحد منهم إن نفس ذاته قريب من كل موجود . وهذا المعنى يقرُّ به جميع المسلمين ، من يقول إنه فوق العرش ، ومن يقول إنه ليس فوق العرش .

ثم قال : وهؤلاء كلهم مقصودهم أنه ليس المراد أن ذات الباري جل وعلا قريبة من

(١) [٥٧ / الحديد / ٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ٥٦] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

وريد العبد ، ومن الميت . ولما ظنوا أن المراد قربه وحده دون الملائكة ، فسروا ذلك بالعلم والقدرة ، كما في لفظ المعية . ولا حاجة إلى هذا ، فإن المراد بقوله (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ) أى بملائكتنا ، في الآيتين : وهذا بخلاف المعية ، فإنه لم يقل : ونحن معه ، بل جعل نفسه هو الذى مع العباد ، وأخبر أنه ينبتهم يوم القيامة بما عملوا ، وهو نفسه الذى خلق السموات والأرض ، وهو نفسه الذى استوى على العرش ، فلا يجعل لفظ مثل لفظ ، مع تفريق القرآن بينهما .

ثم قال : وقوله تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) لا يجوز أن يراد به مجرد العلم ، فإن من كان بالشئ أعلم من غيره ، لا يقال إنه أقرب إليه من غيره ، بمجرد علمه به ، ولا بمجرد قدرته عليه . ثم إنه سبحانه عالم بما يُسرُّ من القول ، وما يجر به ، وعالم بأعماله ، فلا معنى لتخصيصه حبل الوريد بمعنى أنه أقرب إلى العبد منه ، فإن حبل الوريد قريب إلى القلب ، ليس قريباً إلى قوله الظاهر ، وهو يعلم ظاهر الإنسان وباطنه . قال تعالى ^(١) (يَعْلَمُ الْسِرَّ وَخَفَى) ومما يدل على أن القرب ليس المراد به العلم ، سياق الآية ، فإنه قال ^(٢) (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ) فأخبر أنه يعلم وسواس نفسه ، ثم قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) فأثبت العلم ، وأثبت القرب ، وجعلهما شيئاً ، فلا يجعل أحدهما هو الآخر ، وقيد القرب بقوله (إِذْ يَتَلَقَّى . . .) الآية .

وأما من ظن أن المراد بذلك قرب ذات الرب من حبل الوريد ، وأن ذاته أقرب إلى الميت من أهله ، فهذا في غاية الضعف . وذلك أن الذين يقولون إنه في كل مكان ، وإنه قريب من كل شئ بذاته ، لا يخصون بذلك شيئاً دون شئ ، ولا يمكن مسلماً أن يقول إن الله قريب من الميت دون أهله ، ولا أنه قريب من حبل الوريد دون سائر الأعضاء . وكيف يصح هذا الكلام على أصلهم ، وهو عندهم في جميع بدن الإنسان ، وهو في أهل الميت ، كما

(١) [٢٠ / طه / ٧] . (٢) [٥٠ / ق / ١٦] .

هو في الميت ، فكيف يكون (أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ) إذا كان معه ومعهم على وجه واحد ؟ وهل يكون أقرب إلى نفسه من نفسه ، وسياق الآيتين يدل على أن المراد الملائكة ، فإنه قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى ...) الآيتين . فقيد القرب بهذا الزمان ، وهو زمان تلقى المتلقين ، وهما المكان الحافظان اللذان يكتبان ، كما قال ^(١) (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ ...) الآية . ومعلوم أنه لو كان قرب ذات لم يخص ذلك بهذا الحال ، ولم يكن لذكر القعدين الرقيب والعقيد معنى مناسب . وكذلك قوله في الآية الأخرى ^(٢) (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ) فإن هذا إنما يقال إذا كان هناك من يجوز أن يبصر في بعض الأحوال ، لكن نحن لا نبصره ، والرب تعالى في هذه الحال لا يراه الملائكة ، ولا البشر . وأيضاً فإنه قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ) فأخبر عن هو أقرب إلى المحتضر من الناس الذين عنده في هذه الحال . وذات الرب سبحانه وتعالى إذا قيل هي في مكان ، أو قيل قريبة من كل موجود ، لا يختص بهذا الزمان والمكان والأحوال ، فلا يكون أقرب إلى شيء من شيء ، ولا يجوز أن يراد قرب الرب الخالص ، كما في قوله (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ) فإن ذاك إنما هو وقربه إلى من دعاه أو عبده . وهذا المحتضر قد يكون كافراً وفاجراً ، أو مؤمناً ومقرباً . ولهذا قال تعالى ^(٣) (فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ * فَسُوءُ السَّعَاتِ أَلَمٌ لَكَ مِنْهُمْ * وَنَصْلَةٌ جَهِيمٌ) . ومعلوم أن مثل هذا المكذب لا يخصه الرب بقرب منه ، دون من حوله ، وقد يكون حوله قوله مؤمنون . وإنما هم الملائكة الذين يحضرون عند المؤمن والكافر ، كما قال تعالى ^(٤) (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) وقال

(١) [٥٠ / ق / ١٨] . (٢) [٥٦ / الواقعة / ٨٣ - ٨٥] .

(٣) [٥٦ / الواقعة / ٨٨ - ٩٤] . (٤) [٤ / النساء / ٩٧] .

تعالى^(١) (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) وقال^(٢) (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) وقال تعالى^(٣) (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ) وقال تعالى^(٤) (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) . ومما يدل على ذلك أنه ذكره بصيغة الجمع فقال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) وهذا كقوله^(٥) سبحانه (نَقُلُوا عَلَيْنَا مِنْ نَبَأٍ مَوْسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) وقال^(٦) (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ) وقال^(٧) (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) فإن مثل هذا اللفظ إذا ذكره الله تعالى في كتابه، دل على أن المراد أنه سبحانه بجنوده وأعوانه من الملائكة . فإن صيغة (نحن) يقولها المتبوع المطاع المعظم الذي له جنود يتبعون أمره، وليس لأحد جند يطيعونه كطاعة الملائكة ربهم، وهو خالقهم وربهم، فهو سبحانه العالم بما توسوس به نفسه ، وملائكته تعلم ، فكان لفظ (نحن) هنا هو المناسب . وكذلك قوله (وَنَعْلَمُ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ) فإنه سبحانه يعلم ذلك، وملائكته يعلمون ذلك ، كما ثبت في الصحيحين^(٨) عن النبي ﷺ أنه قال : إذا هم العبد بحسنة كتبت

(١) [٨ / الأنفال / ٥٠] . (٢) [٦ / الأنعام / ٩٣] .

(٣) [٦ / الأنعام / ٦١] . (٤) [٣٢ / السجدة / ١١] .

(٥) [٢٨ / القصص / ٣] . (٦) [١٢ / يوسف / ٣] .

(٧) [٧٥ / القيامة / ١٧-١٩] . (٨) أخرجه البخاري في : ٨١ - كتاب الرقاق ،

٣١ - باب من هم بحسنة أو بسيئة . حديث ٢٤٣٥ ، عن ابن عباس .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٠٧ (طبعنا) .

له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر حسنات . وإذا هم بسيئة لم تكتب عليه ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة ، وإن تركها لله كتبت له حسنة . فالملك يعلم ما يهيم به العبد من حسنة وسيئة ، وليس ذلك من علمهم الغيب الذي اختص الله به .

ثم قال : وقوله ^(١) (وَنَعْلَمُ مَا تُوسُوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبَلٍ أَلْوَيْدٍ) يقتضى أنه سبحانه وجنده الموكلين بذلك ، يعلمون ما توسوس به للعبد نفسه ، كما قال ^(٢) (أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) فهو يسمع ، ومن يشاء من ملائكته . وأما الكتابة ، فرسله يكتبون كما قال هاهنا ^(٣) : (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْنَا رَقِيبٌ عَتِيدٌ) وقال تعالى ^(٤) (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ) وأخبر بالكتابة (نحن) لأن جنده يكتبون بأمره ، وفصل في تلك الآية بين السماع والكتابة ، لأنه يسمع بنفسه ، وأما كتابة الأعمال فتكون بأمره ، والملائكة يكتبون . فقوله (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ) مثل قوله (نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ) لما كانت ملائكته متقربين إلى العبد بأمره ، كما كانوا كاتبين عمله بأمره ، فإن ذلك قربه من كل أحد بتوسط الملائكة ، كتسليمه عبده بتوسط الرسل ، كما قال ^(٥) تعالى (وَمَا كَانَ لِنَبِئٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيدًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذِنِهِ مَا يَشَاءُ) فهذا تسليمه لجميع عبادته بواسطة الرسل ، وذلك قربه إليهم عند الاحتضار ، وعند الأقوال الباطنة في النفس والظاهرة . انتهى كلامه رحمه الله . وقوله تعالى :

(١) [٥٠ / ق / ١٦] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٨٠] .

(٣) [٥٠ / ق / ١٨] . (٤) [٣٦ / يس / ١٢] .

(٥) [٤٢ / الشورى / ٥١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ)

« إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ » أى ونحن أقرب إلى الإنسان من وريد حلقه حين يتلقى الملكان الحفيضان ما يتلفظ به . ف (إذ) ظرف (لأقرب) وفيه إيذان بأنه غنى عن استحفاظ الملكين ، فإنه أعلم منهما ، ومطلع على ما يخفى عليهما ، لكنه لحكمة اقتضته ، وهى إلزام الحجة فى الأخرى ، والتقدم إلى ما يرغبه ويرهبه فى الأولى .

وقال القاشانى : بين تعالى بهذه الآية أقربيته ليتنى القرب بمعنى الاتصال والمقارنة ، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : هو مع كل شىء ، لا بمقارنة ، إذ الشىء به ذلك الشىء ، وبدونه ليس شيئاً حتى يقارنه . أى : يعلم حديث نفسه الذى توسوس به نفسه وقت تلقى المتلقين ، مع كونه أقرب إليه منهما . وإنما تلقىهما للحجة عليه ، وإثبات الأقوال والأعمال فى الصحائف النورية ، للجزاء .

ثم قال : والمتلقى القاعد عن اليمين ، هو القوة العاقلة العملية المنتقشة بصور الأعمال الخيرية المرتسمة بالأقوال الحسنة الصائبة . وإنما قعد عن يمينه ، لأن اليمين هى الجهة القوية الشريفة المباركة ، وهى جهة النفس التى تلى الحق . والمتلقى القاعد عن الشمال هو القوة التخيلية التى تنتقش بصور الأعمال البشرية البهيمية والسبعية ، والآراء الشيطانية الوهمية ، والأقوال الخبيثة الفاسدة . وإنما قعد عن الشمال ، لأن الشمال هى الجهة الضعيفة الحسيسة المشؤومة ، وهى التى تلى البدن ، ولأن الفطرة الإنسانية خيرة بالذات ، لكونها من عالم الأنوار ، مقتضية بذاتها ، وغريزتها الخيرات . والشروع إنما هى أمور عرضت لها من جهة البدن وآلاته وهياته ، يستولى صاحب اليمين على صاحب الشمال ، فكما صدرت منه حسنة كتبها له فى الحال ، وإن صدرت منه سيئة منع صاحب الشمال عن كتابتها فى الحال انتظاراً للتسبيح ، أى التنزية عن الغواشى البدنية ، والهيآت الطبيعية ، بالرجوع إلى مقره الأصلى ، وسنخه

الحقيقى ، وحاله الغريزى ، لينمحي أثر ذلك الأمر العارضى ، بالنور الأصلى والاستغفار ، أى التنوير بالأنوار الروحية والتوجه إلى الحضرة الإلهية ، لينمحي أثر تلك الظلمة العرضية ، بالنور الوارد كما روى أن كاتب الحسنيات على يمين الرجل ، وكاتب السيئات على يساره ، وكاتب الحسنيات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرًا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب اليسار : دعه سبع ساعات ، لعله يسمح أو يستغفر ! انتهى .

وقد كثر فى كلام القاشانى رحمه الله تأويل الملك بالقوة الحادثة على الخير ، والشيطان بالمغوية على الشر . وسبقه إليه الحكماء . قال بعض الحكماء : هذا الشيء الذى أودع فىنا ونسميه قوة وفكرًا ، وهو فى الحقيقة معنى لا يدرك كنهه ، وروح لا تكفنه حقيقة ، لا يبعد أن يسميه الله تعالى ملكًا ، ويسمى أسبابه ملائكة ، أو ما شاء من الأسماء ، فإن التسمية لا حجر فيها على الناس ، فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة ، والسلطان النافذ ، والعلم الواسع .

وقد سبق الغزالى إلى هذا المعنى ، وعبر عنه بالسبب وقال : إنه يسمى ملكًا ، فإنه ، فى شرح عجائب القلب من كتاب (الإحياء) ، بعد ما قسم الخواطر إلى محمود ومذموم ، قال : وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان : فسبب الخاطر الداعى إلى الخير يسمى ملكًا ، وسبب الخاطر الداعى إلى الشر يسمى شيطانًا . الخ . والبحث كله غرر ، تجدر مراجعته .
لطيفة : (قَعِيدٌ) كجلميس ، بمعنى مجالس ، لفظًا ومعنى . وإنما أفرد رعاية للفواصل ، فحذف الأول لدلالة الثانى عليه ، كقوله (١) :

* فَإِنِ وَقِيَارٌ بِهَا غَرِيبٌ *

(١) قائله ضابئ بن الحارث البرجمي . وصدده : * وَمَنْ يَكُ أَمْسَى بِالْمَدِينَةِ رَحْلُهُ *
و (قِيَار) اسم جَمَلِهِ .

وذلك من أربعة أبيات ، أنشدها المبرد فى الكامل ، ص ١٨١ (طبعة أوربا) .

وقيل : يطلق (فعليل) للواحد والمتعدد ، كقوله ^(١) (وَالْمَدَامِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) ، وضعف بأنه ليس على إطلاقه ، بل إذا كان (فعليل) بمعنى (مفعول) بشروطه ، وهذا بمعنى (فاعل) ، فلا يصح فيه ذلك إلا بطريق الحمل على (فعليل) بمعنى (مفعول) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

« مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ » أى ملك يرقب عمله ، « عَتِيدٌ » أى حاضر . ولما ذكر استبعادهم للبعث ، وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه ، أعلمهم بأنهم يلاقون ذلك عن قريب ، ونبه على اقترابه بلفظ الماضي ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)

« وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ » أى شدته المحيرة الشاغلة للحواس ، المذهلة للعقل « بِالْحَقِّ » أى بالموعد الحق ، والأمر المحقق ، وهو الموت ، فالباء للملابسة . أو بالموعد الحق من أمر الآخرة ، والثواب والعقاب الذى غفل عنه ، فالباء للتعدية . أى أحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر ، وهى أحوالها الباطنة ، وأظهرتها عليه .

قال الشهاب : السكرة استعيرت للشدة ، ووجه الشبه بينهما أن كلا منهما مذهب للعقل ، فلاستعارة تصريحية تحقيقية . ويجوز أن يشبه الموت بالشراب على طريق الاستعارة المسكنية . وإنبات السكرة لها ، تخمیل . « ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » أى تفرّ . والجملة على تقدير القول . أى يقال له فى وقت الموت : ذلك الأمر الذى رأيت هو الذى كنت منه تحيد فى حياتك ، فلم ينفكك الهرب والفرار . وهل المشار إليه بذلك ، الحق أو الموت ؟

(١) [٦٦ / التحريم / ٤] .

قال الطيبي : إن اتصل قوله (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ . .) الخ بقوله (فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) وما معه ، فالشار إليه بذلك الحق ، والخطاب للفاجر . أى جاءك أيها الفاجر الحق الذى أنكرته . وإن اتصل بقوله (وَاقْدَرْ خَلْقَنَا إِلَى نَسْنٍ . .) الخ ، فالشار إليه الموت . والالتفات لا يفارق الوجهين . والثانى هو المناسب ، لقوله (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ) بعده ، وتفصيله ^(١) (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ) ^(٢) (وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ) انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ، ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ)

[٢١] (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ)

« وَنُفِخَ فِي الصُّورِ » يعنى : نفخة البعث « ذَلِكَ » أى النفخ « يَوْمُ الْوَعِيدِ » أى وقت تحقق الوعيد ، بشهود ما قدم من الأعمال وما أخر « وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ » قال ابن جرير ^(٣) : أى سائق يسوقها إلى الله ، وشاهد يشهد عليها بما عملت فى الدنيا من خير أو شر . وهل هما ملسكان ، أو ملك جامع للوصفين ، أو الأول ملك ، والثانى الإنسان نفسه يشهد على نفسه ، أو سائق من أعمالها ، إلى مكان جزائها ، وشهيد من أجزائها ؟ أقوال : وقال القاشانى : أى سائق من عمله ، وشهيد من عمله ، لأن كل أحد ينجذب إلى محل نظره ، وما اختاره بعلمه . والميل الذى يسوقه إلى ذلك الشئ إنما نشأ من شعوره بذلك الشئ ، وحكمه بملاءمته له ، سواء كان أمراً سفليةً جسمانيةً بعته عليه هواه ، وأغراه عليه وهمه وقواه ؛ أو أمراً علويةً روحانيةً بعته عليه عقله ، ومحبه الروحانية ، وحرصه عليه قلبه وفطرته الأصلية . فالعلم الغالب عليه سائقه إلى معلومه ، وشاهده بالميل الغالب عليه ، والحب الراسخ فيه ،

(١) [٥٠ / ق / ٢٤] . (٢) [٥٠ / ق / ٣١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٦١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

والعمل المكتوب في صحيفته يشهد عليه بظهوره على صور أعضائه وجوارحه ، وينطق عليه كتابه بالحق ، وجوارحه بهيأت أعضائه المتشكلة بأعماله . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

« لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ »
في المخاطب بهذا ، أقوال ثلاثة :

أحدها - أنه النبي ﷺ ، أتى بهذه الجملة معترضة في خلال أمر الغيا الأخرى ، تنوياً بمئة الإعلام بذلك ، والتعريف به ، ثم شدة نفوذ البصر به ، والوقوف على غوامضه ، بعد خلو ذهن عنه رأساً . والمعنى : لقد كنت في غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك ، فكشفنا عنك غطاءك بإزالته إليك ، فبصرك اليوم حديد ، نافذ قوى ، ترى ما لا يرون ، وتعلم ما لا يعلمون . ومثله آية (١) (مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ) .

وثانيها - أنه الكافر ، وأن الكلام على تقدير القول . أى : يقال له لقد كنت في غفلة من هذا الذى عاينت اليوم من الأحوال ، فكشفنا عنك غطاءك ، بأن جليتنا لك ، ذلك ، وأظهرناه لعينيك ، حتى رأيته وعاينته ، فزالت الغفلة عنك . ومثله عن الكفار آية (٢) (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) وآية (٣) (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا) .

وثالثها - أنه الإنسان مطلقاً ، لقوله (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ) ، والمقصود أنه كشف الغطاء عن البر والفاجر ، ورأى كل ما يصير إليه .

(٢) [١٩ / مريم / ٣٨] .

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

(٣) [٣٢ / السجدة / ١٢] .

وعول ابن جرير^(١) في الأولوية على الثالث .

قال الزمخشري : جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله ، أو غشاوة غطى بها عينيه ، فهو لا يبصر شيئاً . فإذا كان يوم القيامة تيقظ ، وزالت الغفلة عنه وغطاؤها ، فيبصر ما لم يبصره من الحق .

وقال القاساني في تأويل الآية : (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا) لاحتجابك بالحس والمحسوسات ، وذهولك عنه ، لاشتغالك بالظاهر عن الباطن (فَكَشَفْنَا عَنْكَ) بالموت (غِطَاءَكَ) المادى الجسماني ، الذى احتجبت به (فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) أى إدراكك لما ذهلت عنه ، ولم تصدق بوجوده ، قوى تعينه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٌ)

« وَقَالَ قَرِينُهُ » أى قرين هذا الإنسان الذى جىء به يوم القيامة معه سائق وشهيد ، وهو إما الملك الموكل عليه فى الدنيا لكتابة أعماله ، وهو الرقيب المتقدم ، أو الشيطان الذى قبض له مقارناً له بغويه ، وهو الأظهر - كما اعتمده الزمخشري - لآية^(٢) « نُقِصَ لَهُو شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُو قَرِينٌ » ويشهد له قوله تعالى^(٣) (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُو) « هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٌ » أى هذا شئ لدى حاضر معدّ محفوظ . والإشارة على الأول لما فى صفحه ، وعلى الثانى للشخص نفسه . أى هذا ما لدى عتيد لجهنم هيأته بإغوائى لها .

وقال القاساني : (وَقَالَ قَرِينُهُ) أى من شيطان الوهم الذى غره بالظواهر ، وحجبه عن البواطن . (هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٌ) مهياً لجهنم . أى ظهر تسخير الوهم إياه فى التوجه إلى

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٣٦] . (٣) [٥٠ / ق / ٢٧] .

الجهة السفلية ، وأنه ملوكه ، واستعبده في طلب اللذات البدنية ، حتى هياه لجهنم في قعر الطبيعة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ)

« أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ » خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد ، على أنهما ملكان ، لا ملك جامع للوصفين ، أو لملاكين من خزنة النار ، أو لواحد ، وتثنية الفاعل منزل منزلة تثنية الفعل ، وتكريره على أن أصله : ألق ، ألق ، ثم حذف الفعل الثاني ، وأبقى ضميره مع الفعل الأول ، ففنى الضمير للدلالة على ما ذكر . أو الألف بدل من نون التأكيذ ، لأنها تبديل ألفاً في الوقف ، فأجرى الوصل مجراه - أوجه ذكرها - .

وقال ابن جرير^(١) : أخرج الأمر للقرين ، وهو بلفظ واحد ، مَخْرَجَ خطاب الاثنين . وفي ذلك وجهان من التأويل :

أحدهما - أن يكون القرين بمعنى الاثنين ، كالرسول ، والاسم الذي يكون بلفظ الواحد في الواحد والتثنية والجمع . فردّ قوله (أَلْقِيَا) إلى المعنى .

والثاني - أن يكون كما كان بعض أهل العربية يقول . وهو أن العرب تأمر الواحد والجماعة بما تأمر به الاثنين ، فتقول للرجل : ويلك ! ارحلها ، وازجرها ، كما قال^(٢) :

فقلتُ لصاحبي لَا تَحْسِبَانَا بِنَزْعِ أَصُولِهِ وَاجْتَرَّ شَيْحَا

وقال أبو ترؤان^(٣) :

فإن تزجراني يا ابنَ عفانَ أَنْزِلْ جِرْ وإن تدعاني أَحْمَرِ عِرْضَا مَمْنَعًا

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) البيت لمضرّس بن ربيعة الفقعسي .

(٣) البيت لسويد بن كراع العكلي . وهو رابع أبيات ثلاثة أولها :

تقول ابنة العوفى ليلى : ألا ترى إلى ابن كراع لا يزال مُفَزَّعًا

وسبب ذلك منهم ، أن الرجل أدنى أعوانه في إبله وغنمه ، اثنان . وكذلك الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة . فجرى كلام الواحد على صاحبيه . ألا ترى الشعراء أكثر شيء قبيلاً : يا صاحبي ، يا خليلي . انتهى .

و (الكفار) المبالغ في جحده وحادانية الله تعالى ، وما جاء به رسوله صلوات الله عليه . و (العنيد) المعاند للحق ، وسبيل الهدى ، لا يسمع دليلاً في مقابلة كفره . وقد زاد على العناد بوصف :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (مَنَّاغٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ)

« مَنَّاغٍ لِلْخَيْرِ » أى السكى ، وهو الإسلام . أو المال . واستصوب ابن جرير^(١) أنه هنا كل حق وجب لله أو لآدمي في ماله ، لأنه لم يخص منه شيء ، فدل على أنه كل خير يمكن منعه طالبه « مُعْتَدٍ » أى متجاوز الحد في الاعتداء على الناس ، بالبذاء والفحش في المنطق ، ويده بالسطوة والبطش ظالماً ، كما قال قتادة : معتد في منطقته وسيرته وأمره . « مُرِيبٍ » أى شاك في الحق ، أو موقع صاحبه في الريب مع كثرة الدلائل .

وقال القاشاني : الخطاب في (أَلْقِيَا) للسائق والشهيد اللذين يوبقانه ويلقيانه ويهلكانه في أسفل غياهب مهواة الهيمولى الجسمانية ، وغياصة جب الطبيعة الظلمانية ، في نيران الحرمان . أو لما لك . والمراد بتثنية الفاعل تكرار الفعل ، كأنما قال : ألق ، ألق ، لاستيلائه عليهم في الإبعاد والإلقاء إلى الجحمة السفلية . ويقوى الأول : أنه عدد الرذائل الموبقة ، التي أوجبت استحقاقهم لعذاب جهنم ، ووقعهم في نيران الجحيم ، وبين أنها من باب العلم والعمل . والكفران ومنع الخير ، كلاهما من إفراط القوة البهيمية الشهوانية ، لانهما كها في لذاتها ، واستعمالها نعم الله تعالى في غير مواضعها من المعاصي والاحتجاب عن النعم بها ، ومن حقها

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أن تذكره، وتبعث على شكره، ومكالبتها عليها ، لفرط ولوعها بها، فتمنعها عن مستحقها .
وذكرها على بناء المبالغة ، ليدل على رسوخ الرذيلتين فيه ، وغلبتهما عليه ، وتعمقه فيهما ،
الموجب للسقوط عن رتبة الفطرة في قعر بئر الطبيعة . والعنود والاعتداء ، كلاهما من إفراط
القوة الغضبية ، واستيلائها ، لفرط الشيطنة ، والخروج عن حد العدالة . والأربعة من باب
فساد العمل . والريب والشرك . كلاهما من نقصان القوة النطقية ، وسقوطها عن الفطرة ،
بتفريطها في جنب الله، وقصورها عن حد القوة العاقلة . وذلك من باب فساد العلم . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ)

« الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » أى : عبد معه معبوداً آخر من خلقه « فَأَلْقِيَاهُ
فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ » أى عذاب جهنم .

لطيفة :

الموصول إما مبتدأ مضمن معنى الشرط ، وخبره (فَأَلْقِيَاهُ) أو مفعول لمضمر يفسره
(فَأَلْقِيَاهُ) أو بدل من (كل كفار) فيكون (فَأَلْقِيَاهُ) تكريراً للتوكيد . قيل على الأخير :
إنه يخالف لما ذكره أهل المعاني من أن بين المؤكد والمؤكد شدة اتصال تمنع من العطف .
وأجيب : بأنه من باب (وحقك ثم حقك) نزل التغاير بين المؤكد والمؤكد، والمفسر والمفسر ؛
منزلة التغاير بين الذاتين بوجه خطابي . ولو جعل (العذاب الشديد) نوعاً من عذاب جهنم
ومن أهواله ، على أنه من باب ^(١) (وَمَلَأْمِكْتَهُ وَرُسُلِهِ وَجَبْرِيلَ) كان حسفاً .

قال الشهاب (بعد نقله ما ذكر) : قال ابن مالك في (التسهيل) : فصلُ الجملتين في
التأكيّد . (ثم) إن أمن اللبس ، أجود من وصلهما . وذكر بعض النحاة الفاء . وذكر

(١) [٢ / البقرة / ٩٨] .

الرخشري في (الجاثية) الواو أيضاً . واتفق النحاة على أنه تأكيد اصطلاحى ، وكلام أهل المعاني في إطلاق منعه غير سديد . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (قَالَ قَرَيْنُهُ رَبَّنَا مَا أَطْفَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

« قَالَ قَرَيْنُهُ » أى قرين هذا الإنسان الكفار المناع للخير ، وهو شيطانه الذى كان موكلًا به فى الدنيا ، متبرئًا منه « رَبَّنَا مَا أَطْفَيْتُهُ » أى بالإرابة ومنع الإسلام ، وجعل إله آخر معك « وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ » أى فى طريق جائر عن سبيل الهدى ، جوراً بعيداً بنفسه .

قال القاسانى : وقول الشيطان (مَا أَطْفَيْتُهُ ...) الخ كقوله ^(١) (إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ) لأنه لو لم يكن فى ضلال عن طريق التوحيد ، بعيد عن الفطرة الأصلية بالتوجه إلى الجهة السفلية ، والتغشى بالغواشى المظلمة الطبيعية ، لم يقبل وسوسة الشيطان ، وقبل إلهام الملك . فالذنب إنما يكون عليه بالاحتجاب من نور الفطرة ، واكتساب الجنسية مع الشيطان فى الظلمة . انتهى .

وقال ابن جرير ^(٢) : وإنما أخبر تعالى عن قول قرين الكافر له يوم القيامة ، إعلاماً منه عباده ، تبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ)

« قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ » أى لا تختصموا اليوم فى دار

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٢] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٦٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

الجزاء ، وموقف الحساب ، فلا فائدة في اختصامكم ، وقد قدمت إليكم في الدنيا بالوعيد لمن كفر بي وعصاني ، وخالف أمرى ونهى في كتبي ، وعلى السن رسلي .

قال القاشاني : النهي عن الاختصام ليس المراد به انتهاءه ، بل عدم فائدته ، والاستماع إليه . كأنه قال : لا اختصام مسموع عندي . وقد ثبت وصح تقديم الوعيد ، حيث أمكن انتفاعكم به ، لسلامة الآلات ، وبقاء الاستعداد ، فلم تنتفعوا به ، ولم ترفعوا لذلك رأساً ، حتى ترسخت الهيآت المظلمة في نفوسكم ، ورائت على قلوبكم ، وتحقق الحجاب ، وحق القول بالعذاب . انتهى .

وعن ابن عباس : أنهم اعتذروا بغير عذر ، فأبطل الله حججهم ، ورد عليهم قولهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

« مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ » قال ابن جرير^(١) : أي ما يغير القول الذي قلته لكم في الدنيا وهو قوله (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) ، ولا قضائي الذي قضيته فيهم فيها .

« وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » أي فلا أعذب أحداً بذنب غيره ، ولكن بذنبه بعد قيام الحجة عليه .

وقال القاشاني : (وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ) حيث وهبت الاستعداد ، وأنبت على السكال المناسب له وهديتكم إلى طريق اكتسابه ، بل أنتم الظالمون أنفسكم باكتساب ما ينافيه ، وإضاعة الاستعداد بوضع النور في الظلمة ، واستبدال ما يفنى بما يبقى .

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

تنبيهات :

الأول - ظاهر الآيات أن هذا التقاؤل على حقيقته ، إذ لا مانع منها . وذهب بهـمـ المفسرين إلى أنها مجاز .

قال القاشاني : هذه المقاولات كلها معنوية ، مثلت على سبيل التخييل والتصوير ، لاستحكام المعنى في القلب ، عند ارتسام مثاله في الخيال . فادعاء الكافر الإطفاء على الشيطان ، وإنكار الشيطان إياه ، عبارة عن التنازع والتجاذب الواقع بين قوتيـه : الوهمية والعقلية ، بل بين كل اثنتين متضادتين من قواه : كالفضبية والشهوية مثلاً . ولهذا قال : (لَا تَخْتَصِمُوا) ولما كان الأمران في وجوده هما العقلية والوهمية ، كان أصل التخاصم بينهما . وكذا يقع التخاصم بين كل متجاورين متخاوضين في أمر ، اتوقع نفع أولدة ، يتوقفان ما دام مطلوبهما حاصلًا ، فإذا حرما أوقعا بسمعيهما في خسران وعذاب ، تدارءا ، أو نسب كل منهما التسبب في ذلك إلى الآخر ، لاحتجابيهما عن التوحيد ، وتبرؤ كل منهما عن ذنبه ، لمحبة نفسه . ولذلك قال حارثة رضى الله عنه للنبي عليه السلام : ورأيت أهل النار يتماورون . وصوب عليه السلام قوله . انتهى .

الثاني إن قلت : لم طرحت الواو من جملة (قَالَ قَرِينُهُ) وذكرت في الأولى ؟ قلت : لأنها استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاؤل ، كما رأيت في حكاية المقابلة بين موسى وفرعون .

فإن قلت : أين المقابلة ؟ قلت : لما قال قرينه (هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ) وتبعه قوله (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ) وتلاه (لَا تَخْتَصِمُوا) - علم أن ثمَّ مقابلة من الكافر ، لكنها طرحت للدلالة عليها من السياق كأنه لما قال القرين : هذا ما لدى عتيد ، قال الكافر : ربُّ هو أطغاني ، فلما قال الكافر ذلك ، قال القرين : ما أطغيته ، فلما حكى قول القرين والكافر ، كأن قائلاً يقول : فإذا قال الله تعالى ؟ فقيل : قال لا تخاصموا لدى . وذكر الواو في الجملة

الأولى لأنها أول المقابلة ، ولا بد من عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول ، أعني مجيء كل نفس مع الملائكين ، وقول قرينه ما قال له - هذا ما يخص ما في الكشف - .

الثالث - جوز قوله تعالى (يَا لَوَعِيدٍ) أن تكون الباء زائدة في المفعول ، وأن يكون حالاً من الفاعل أو المفعول ، والباء للملابسة ، أو المعية . والمعنى : قدمت هذا القول موعداً لكم به ، أو حال كون القول ملتبساً بالوعيد ، أو من (لَا تَخْتَصِمُوا) على تأويل تقديم الوعيد بالعلم به . أي : لا تختصموا عالمين به . وذلك لتصح الحالية ، ويكون بينها وبين عاملها مقارنة على اصطلاحهم .

الرابع - دل قوله تعالى (مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ) على أنه لاخلاف في إبعاد الله تعالى ، كما لا إخلاف في ميعاد الله . وهذا يرد على المرجئة ، حيث قالوا : ماورد في القرآن من الوعيد فهو تخويف ، لا يحقق الله شيئاً منه ، وقالوا : الكريم إذا وعد أنجز ووفى ، وإذا أوعد أخلف وعفا - أفاده الرازي - .

وجه الاستدلال أنه لو صح ما ذكره للزم تبديل قوله تعالى ، والخلف في أخباره - قدس عن ذلك - مع أن طبيعة الذنب تقتضي العقوبة ، إلا أن يتاب منه ، أو يشاء تعالى العفو عنه .

الخامس - ذكروا في سر المبالغة في (يَظْلِمُ) وجوهاً :
منها - أن (فَمَالًا) قد ورد بمعنى (فاعل) ، فهذا منه .
ومنها اعتبار كثرة الخلق .

ومنها - أن المنسوب في المعتاد إلى الملوك من الظلم تحت ظلمهم ، إن عظيمًا فعظيم ، وإن قليلاً فقليل . فلما كان ملك الله تعالى على كل شيء ملكه ، قدس ذاته عما يتوهم مخذول ، والعياذ بالله ، أنه منسوب إليه من ظلم تحت شمول كل موجود .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٣٠] (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ)

« يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ » قال ابن جرير^(١) : فيه

لأهل التأويل قولان :

الأول - أن معناه : مامن مزيد. فعن مجاهد قال: وعدها الله لئلا يملأها فقال: هلا وفيتك؟

قلت : وهل من مسلك ؟ !

الثاني - معناه : زدنى .

أى : فلا استفهام على الأول إنكارى . معناه النفي ، وأيد^(٢) بآية (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) والقرآن يفسر بمضه بمضاً . وعلى الثانى تقريرى ، دلالة على سمعها ، بحيث يدخلها من يدخلها ، وفيها فراغ وخلو ، كأنه يطلب الزيادة .

فإن قيل : الوجه الثانى ، وهو كونها فيها فراغ ، مناف لصريح النظم من قوله (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ . . .) الآية . قلت لا منافاة بينهما كما توهم ، لأن الامتلاء قد يراد به أنه لا يخلو طبقة منها عن يسكنها ، وإن كان فيها فراغ كثير . كما يقال : إن البلدة ممتلئة بأهلها ، ليس فيها دار خالية ، مع ما بينها من الأبنية والأفضية . أو هذا باعتبار حالين . فالفراغ فى أول دخول أهلها فيها ، ثم يساق إليها الشياطين ونحوهم فتمتلئ .

تنبيه :

ذهب جماعة إلى أن المقابلة فى الآية مجاز على طريق الاستعارة التمثيلية ، وأن جهنم لشدة توقدها وزفيرها . وتهافت الكفرة والمعصاة ، وقذفهم فيها ، كأنها طالبة للزيادة . وآخرون إلى أن ذلك حقيقة .

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

(٢) [١١ / هود / ١١٩] و [٣٢ / السجدة / ١٣] .

قال الناصر في (الانتصاف) : إنا نعتقد أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة، وأن الله تعالى يخلق فيها الإدراك بذلك بشرطه . وكيف نفرض ، وقد وردت الأخبار وتظاهرت على ذلك؟ منها هذا ، ومنها لجأ الجنة والنار ، ومنها اشتكاؤها إلى ربها ، فأذن لها في نفسين . وهذه وإن لم تكن نصوصاً ، فظواهر يجب حملها على حقائقها ، لأننا متعبدون باعتقاد الظاهر ، ما لم يمنع مانع ، ولا مانع ههنا ، فإن القدرة سالحة ، والعقل يجوز ، والظواهر قاضية بوقوع ما جوزه العقل . وقد وقع مثل هذا قطعاً في الدنيا ، كتسليم الشجر ، وتسريح الحصى في كف النبي ﷺ ، وفي يد أصحابه . ولو فتح باب المجاز والعدول عن الظاهر في تفاصيل المقالة ، لانسع الخرق ، وضل كثير من الخلق عن الحق . وليس هذا كالظواهر الواردة في الإلهيات مما لم يجوز العقل اعتقاد ظاهرها ، فإن العدول فيها عن ظاهر الكلام بضرورة الانقياد إلى أدلة العقل المرشدة إلى المعتقد الحق . انتهى .

قال الشهاب : وهو كلام حسن ، وأمور الآخرة لا ينبغي أن تقاس على أمور الدنيا . انتهى ولا تنس ما قلناه مراراً من أن اللغة لا تنحصر في الحقيقة ، وأن أكثر اللغة مجاز لا حقيقة ، كما أوضحه السيوطي في (المزهر) والجرجاني في (أسرار البلاغة) . وفي شواهد العرب الكثيرة ما يؤيد المجاز ، ولا محذور فيه ، عدا عن كونه أبلغ ، كما قررره . وبالجملة ، فالنظم الكريم يحتملها - والله أعلم - .

و (يوم) منصوب بـ (ظلام) أو بمضمر ، نحو : اذكر وأنذر . و (المزيد) إما مصدر كالحميد ، أو اسم مفعول كالبيع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَأَزْلِفَتْ أَلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ)

«وَأَزْلِفَتْ أَلْجَنَّةُ» أي قربت وأدنت «لِلْمُتَّقِينَ» أي الذين اتقوا ربهم فخافوا عقوبته ، بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه «غَيْرَ بَعِيدٍ» أي مكاناً غير بعيد . فهو صفة للظرف قام

مقامه ، أو حال من الجنة . وتذكيره لأنه صفة مذكر . أى : شيئاً غير بعيد . أو تأويل الجنة بالبستان . أو لكونها على زنة المصدر الذى من شأنه أن يستوى فيه المذكر والمؤنث ، فعمول معاملته ، وأجرى مجراه . وعلى كل فهو للتأكيد ، ودفع التجوز ، فلا يقال بعد ذكر كونها قربت ، لا يحتاج إلى كونها غير بعيدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ)

« هَذَا » أى الثواب أو الإزلاف « مَا تُوعَدُونَ » أيها المتقون « لِكُلِّ أَوَّابٍ » أى راجع عن معصية الله إلى طاعته ، تائب من ذنوبه « حَفِيظٍ » أى حافظ على فرائض الله وما ائتمنه عليه .

وقال القاشانى : أى محافظ على صفاء فطرته ونوره الأصلية ، كى لا يتكدر بظلمة النفس . و (لكل) بدل من (للمتقين) بإعادة الجار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ)

« مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ » أى خاف الله فى سره . وقال القاشانى : أى من اتصف بالخشية ، وصارت الخشية مقامه . و (من) بدل بعد بدل ، أو خبر لمحذوف . أى هم من خشى . أو مبتدأ خبره مابعد بتأويل (يقال لهم ادخلوها ... الخ) « وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ » أى جاء ربه بقلب تائب من ذنوبه ، راجع مما يكرهه تعالى إلى ما يرضيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ، ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ)

[٣٥] (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا ، وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

« أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ » أى يقال لهم ادخلوها هذه الجنة بأمان من الهم والحزن والخوف .

« ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا » أى مما تشتهيه نفوسهم ، وتلذذ أعينهم « وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » أى مما لا يخطر على بالهم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ

هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ » أى قبل هؤلاء المشركين من قريش « مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا » أى قوة ، كعاد وفرعون وثمود « فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ » أى فضربوا فيها وساروا وطافوا أقاصيها . قال امرؤ القيس ^(١) :

لَقَدْ نَقَبْتُ فِي الْأَفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ

« هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ » أى هل كان لهم ، بتفقيهم فى البلاد ، من معدل عن الهلاك الذى وعدوا به لتكذيبهم الحق . والضمير على هذا فى (نقّبوا) للقرن الذين هم أشد بطشاً . وجوز عوده لهؤلاء المشركين . أى ساروا فى أسفارهم فى بلاد القرون ، فهل رأوا لهم محيصاً حتى يتوقعوا مثله لأنفسهم ؟

قال ابن جرير ^(٢) : وقرأت القراء قوله (فَنَقَّبُوا) بالتشديد وفتح القاف ، على وجه

(١) من قصيدته التى مطلعها :

أَرَانَا مُوَضِّعِينَ لِأَمْرِ غَيْبٍ وَنُسَحَّرُ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ

انظر الصفحة رقم ٩٩ من الديوان (طبعة المعارف) .

الرواية فى جميع نسخ الديوان (طوّفت) وفى هامش شعراء النصرانية (وفى رواية نقبت) طوّفت : أ كثر الطواف والمشى فى نواحي الأرض حتى شق على ذلك . وصرت

أرى الرجوع إلى أهلى من غير ظفر ولا فائدة ولا غنيمة . والإياب : الرجوع .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

الخبر عنهم . وذُكر عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرأ (فَنَقَّبُوا) بكسر القاف ، على وجه التهديد والوعيد . أى طوفوا في البلاد وترددوا فيها ، فإنكم لن تفوتونا بأنفسكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)
« إِنْ فِي ذَلِكَ » أى فى إهلاك القرون التى أهلكت من قبل قريش « لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ » أى لتذكـرة يتذكر بها من كان له عقل من هذه الأمة ، فينتهى عن الفعل الذى كانوا يفعلونه من كفرهم بربهم ، خوفاً من أن يحل بهم مثل الذى حلّ بهم من العذاب .

« أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ » أى أصغى للأخبار ، عن هذه القرون التى أهلكت ، بسمعه .
« وَهُوَ شَهِيدٌ » أى حاضر القلب ، متفهم لما يخبر به عنهم ، غير غافل ولا ساه .
على أن (شهيد) من الشهود ، وهو الحضور . والمراد : المتفطن ، لأن غير المتفطن كالفاتى ، فهو استعارة أو مجاز مرسل . أو (شهيد) بمعنى شاهد ، وفيه مضاف مقدر . أى : شاهد ذهنه . أو هو من الشهادة ، والمراد : شاهد بصدقه ، أى : مصدق له ، لأنه المؤمن الذى ينتفع به . أو هو كناية عن المؤمن - نقله الشهاب - .

لطيفة :

قيل : (أو) لتقسيم المتذكر إلى نال وسامع ، أو إلى فقيه ومتعلم ، أو إلى عالم كامل الاستعداد لا يحتاج لغير التأمل فيما عنده ، وقاصر محتاج للتعلم فيتذكر إذا قبل بكليته ، وأزال الموانع بأسرها . وفى تفكير (القلب) وإبهامه ، تفخيم وإشعار بأن كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر ، كلا قلب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ »
 أى إعياء .

قال قتادة : أ كذب الله اليهود وأهل الفرقى على الله ، وذلك أنهم قالوا إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح يوم السابع ، وذلك عندهم يوم السبت ، وهم يسمونه يوم الراحة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ)

[٤٠] (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ)

« فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » يعنى : المشركين من إنكار البعث والتوحيد والنبوة ،
 « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ » أى أعقاب الصلوات . والمراد بالتسبيح إما ظاهره ، وهو قرين التحميد ، أو هو الصلاة ، من إطلاق الجزء ، أو اللازم على الكل ، أو الملزوم . فالصلاة قبل الطلوع ، الصبح . وقبل الغروب ، الظهر والعصر . ومن الليل ، العشآن والتهجد . وأدبار السجود . النوافل بعد المكتوبات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَأَسْتَمِعُ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ)

[٤٢] (يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ)

« وَأَسْتَمِعُ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ » أى استمع ، أى لما أخبرك به من أهوال القيامة . يوم ينادى مناديا من كل مكان قريب ، بحيث يصل نداؤه إلى الكل على سواء . قال القاضى : ولعله فى الإعادة نظير (كن) فى الإبداء . أى فهو تمثيل لإحياء الموتى بمجرد الإرادة ، وإن لم يكن نداء وصوت .

وفى ورود الأمر مطلقا ، ثم تبيينه بما بعده ، تهويل وتعظيم للمخبر به ، لما فى الإبهام ثم التفسير ، من التهويل والتفخيم لشأن المحدث عنه .

« يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ » أى صيحة البعث من القبور ، والحشر للجزاء « بِالْحَقِّ » قال ابن جرير^(١) : يعنى بالأمر بالإجابة لله إلى موقف الحساب .
« ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ » أى من القبور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ)

« إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ » أى فى الدنيا بإفاضة نور الحياة أو قطعه « وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ » أى مصير الجميع يوم القيامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ، ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ)

« يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا » أى فيخرجون منها مسرعين « ذَلِكَ حَشْرٌ

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

عَلَيْنَا يَسِيرٌ» أى ذلك الإخراج لهم جمع فى موقف الحساب ، علينا سهل بلا كلفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ)

« نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ » يعنى : مشركى مكة ، من فريتهم على الله ورسوله ، وإنكارهم قدرته تعالى على البعث . وهو تسليمة لرسول الله ﷺ ، وتهديد لهم . « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » أى بمسلط ومسيطر تقهرهم على الإيمان . « فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » أى بل إنما بعثت مذكراً ومبلغاً ، فذكر بما أنزل إليك من يخاف الوعيد الذى أوعده من عصى وطغى ، فإنه ينتفع به .

ومن دعاء قتادة : اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعدك ، يا بارّ يا رحيم !

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥١ - سُورَةُ الذَّرِّيَّاتِ

قال المهايمى : سميت بها لأنها مبدأ الخيرات ، فأشبهت العناية الإلهية . وهى مكية .
وآيها ستون .

يَسِّرْ لِلَّهِ الْحَمْلَ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالذَّارِيَّتِ ذُرْوًا)

« وَالذَّارِيَّتِ ذُرْوًا » يعنى : الرياح التى تذرو البخارات ذرواً . أى نوعاً من الذرو ليعقدها سحباً . أو النساء الولود ، فإنهن يذرين الأولاد ، مجازاً شبه تتابع الأولاد بما يتطير من الرياح . أو الأسباب التى تذرى الخلائق من الملائكة وغيرهم . وهو استعارة أيضاً ، شبهت الأشياء المدة للبروز من كون العدم ، بالرياح المفرقة للحبوب ونحوها . و « الذَّارِيَّتِ » اسم فاعل (ذرا) المعتل بمعنى فرق وبدد مرفعه عن مكانه . ويقال : أذرى أيضاً . وأما (ذرا) المهموز فبمعنى أنشأ وأوجد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (فَالْحَمِلَتِ وَقْرًا)

فَالْحَمِلَتِ وَقْرًا » أى السحب الحاملة للأمطار المنبتة للزروع والأشجار لإفادة الحبوب والثمار . كما قال زيد بن عمرو بن نفيل ^(١) :

وَأَسْلَمْتُ نَفْسِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ لَهُ الْمِزْنَ تُحْمَلُ عَذْبًا زُلَالًا

أو الرياح الحاملة للسحاب ، أو النساء الحوامل ، أو أسباب ذلك .

و (الوقر) بكسر الواو ، كالجل وزناً ومعنى . وقرى بفتح الواو على أنه مصدر سمي به المحمول .

(١) البيت من أربعة أبيات فى شعراء النصرانية (صفحة رقم ٦٢٢) . والرواية هناك :

* وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي . . . *

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (فَالْجَرِيدِ يَتِيسِرًا)

[٤] (فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا)

« فَالْجَرِيدِ يَتِيسِرًا » أى السفن الجارية فى البحر سهلاً . أو الرياح الجارية فى مهايقها . أو الكواكب التى تجرى فى منازلها . و (يُسْرًا) صفة مصدر محذوف . أى جرياً ذائس . « فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا » أى الملائكة التى تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها . أو ما يعمهم وغيرهم من أسباب القسمة . أو الرياح يقسمن الأمطار بتصرف السحاب .

تنبيهات :

الأول - ذكرنا أن هذه الأمور الأربعة يجوز أن تكون أموراً متباينة ، وأن تكون أمراً له أربعة اعتبارات . والأول هو الماثور عن على رضى الله عنه : أن الذاريات هى الرياح ، والحاملات هى السحاب ، والجاريات هى السفن ، والمقسمات هى الملائكة . واختار بعضهم فى (الجاريات) أنها الكواكب ، لىكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى : فالرياح فوقها السحاب ، والنجوم فوق ذلك ، والملائكة فوق الجميع ، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية . واستظهر الرازى أن الأقرب أن تكون صفات أربع للرياح ، وأطال فى ذلك . واللفظ متسع بجوهره للكل - والله أعلم - .

الثانى - فائدة (الفاء) إن قيل إنها صفات الرياح ، فليبان ترتيب الأمور فى الوجود . فإن الذاريات تنشى السحاب ، فتقسم الأمطار على الأقطار . وإن قيل إنها أمور أربعة ، فالفاء للترتيب الذكرى أو الرتبى .

الثالث - ذكر الرازى فى الحكمة فى القسم وجوهاً :

أحدها - أن الكفار كانوا فى بعض الأوقات يعترفون بكون النبى ﷺ غالباً فى إقامة

الدليل ، وكانوا ينسبونه إلى المجادلة ، وإلى أنه عارف في نفسه بفساد مايقوله ، وأنه يغلبنا بقوة الجدل ، لا بصدق المقال . كما أن بعض الناس إذا أقام عليه الخصم الدليل ، ولم يبق له حجة ، يقول : إنه غلبني لعلمه بطريق الجدل ، وعجزى عن ذلك . وهو يعلم في نفسه أن الحق بيدي ، فلا يبقى للمتكلم المبرهن طريق غير اليمين ، فيقول : والله ! إن الأمر كما أقول ، ولا أجادلك بالباطل . وذلك لأنه لو سلك طريقاً آخر من ذكر دليل آخر ، فإذا تمّ الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ما قال في الأول ، إن ذلك تقرير بقوة علم الجدل ، فلا يبقى إلا السكوت ، أو التمسك بالآيمان ، وترك إقامة البرهان .

ثانيها - أن العرب كانت تحتز عن الآيمان الكاذبة ، وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع . ثم إن النبي ﷺ أكثر من الآيمان بكل شريف ، ولم يزد ذلك إلا رفعة وثباتاً . وكان يحصل لهم العلم بأنه لا يحلف بها كاذباً ، وإلا لأصابه شؤم الآيمان ، ولناله المكروه في بعض الأزمان . ثالثها - أن الآيمان التي أقسم الله تعالى بها ، كلها دلائل أخرجها في صورة الآيمان . مثاله قول القائل لمنعمه : وحق نعمك الكثيرة إنى لا أزال أشكرك . فيذكر النعم ، وهي سبب مفيد لدوام الشكر ، ويسلك مسلك القسم . كذلك هذه الأشياء كلها دليل على قدرة الله تعالى على الإعادة .

فإن قيل : فلم أخرجها مخرج الآيمان ؟ نقول : لأن المتكلم إذا شرع في أول كلامه بحلف ، يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم ، فيصغى إليه أكثر من أن يصغى إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر ، فبدأ بالحلف ، وأدرج الدليل في صورة اليمين ، حيث أقبل القوم على سماعه ، فخرج لهم البرهان المبين ، والتبيان المتين ، في صورة اليمين . انتهى . وقوله تعالى : القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ)

[٦] (وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ)

« إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ » جواب القسم . و (ما) موصولة أو مصدرية . والموعود

هو قيام الساعة، وبعث الموتى من قبورهم. و (صادق) بمعنى صدق . فوضع الاسم مكان المصدر. أو هو من باب (عيشة راضية) . «وَإِنَّ الدِّينَ» أى الجزاء على الأعمال، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر «لَوَاقِعَ» أى لحاصل . قال قتادة : وذلك يوم القيامة، يوم يدين الله العباد بأعمالهم . القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ)

[٨] (إِنَّكُمْ لِنِ قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ)

[٩] (يُؤْتِكُمْ عَنْهُ مَنْ أَفْكُ)

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ » أى الطرق المختلفة التى هى دوائر سير الكواكب . و (الحبك) أصل معناها ما يرى كالطريق فى الرمل والماء ، إذا ضربته الريح . وكذلك حبك الشعر : آثار تثنيه وتكسره . و (الحبك) بضمين جمع حبك ، كئثال ومثل وكتاب وكتب . أو حبيكة كطريقة وطرق . قال زهير يصف غدير^(١) :

مكَلَّ بِأَصُولِ النِّجْمِ تَنْسِجُهُ رِيحٌ خَرِيْقٌ لِضَاحِي مَائِهِ حُبْكُ

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا وزودوك اشتياقاً ، أية سلكوا . قال الأصمعى : النجم : النبت الذى يقال له الثَّيْلُ . وقال غيره : الماء مكَلَّ بالنجم . وهو

كل شئ من النبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل .

ويقال : نَجَمَ البقلُ : إذا طلع . ومنه : نجم قرن الظبية إذا طلع .

ريح خارق ، يقال : هبت الثَّيْلُ خَرِيْقاً ، إذا هبت هبوباً شديداً .

لضاحي مائه : ما ضحا للشمس من الماء ، برز للشمس .

وحُبْكُ : طريق الماء . الواحد حَمِيْكُ .

يقول : إذا مرت به الريحُ نسجت الريح ذلك الماء . ونسجها إياه : مرّها عليه .

(انظر شرح الديوان ، صفحة ١٧٦ ، طبعة الدار) .

ويقال : ما أملح حباك هذه الحمامة ! وهو الخط الأسود على جناحها .
وعن الحسن ^(١) : (ذات الحبك) أى النجوم . قال : حُسِبَتْ بِالْخَلْقِ الحسن ،
حُسِبَتْ بالنجوم . وذلك لأنها تزين السماء ، كما يزين الثوب الموشى تحبيكه ، فشبهت النجوم
بطرائق الوشى مجازاً بالاستعارة .

وقال بعض علماء الفلك : الحبك جمع حبيكة ، بمعنى محبوكة ، أى : مربوطة . فمعنى
(ذَاتِ الْحُبُكِ) ذات المجاميع من الكواكب المربوط بعضها ببعض بحبال من الجاذبية ،
فإن كل حبيكة مجموعة من الكواكب المتجاذبة . فالآية الشريفة نص على تعدد المجاميع وعلى
الجاذبية التي يزعم الأفرنج أنهم مكتشفوها . وعليه ، فهي إحدى معجزات القرآن العالمة . انتهى .
« إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ » أى متخالف متناقض . قال ابن زيد : يتخرون
يقولون : هذا سحر ويقولون (إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ) «يُوفِّكُ» أى بصرف «عَنْهُ
مَنْ أُولَئِكَ» أى صرف عن الحق الصريح الصرف التام ، إذ لا صرف أشد منه .

وقد ذكر القاضي في مناسبة القسم به للمقسم عليه ، هو تشبيه أقوالهم في اختلافها ،
وتنافي أغراضها ، بالطرائق للسّموات في تباعدها ، واختلاف غاياتها .

ثم أشار إلى أنهم لم يؤفكوا لاتباعهم الدلائل ، بل لأخذهم بالحرص والتخمين ، بقوله تعالى :
القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ)

[١١] (الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ)

[١٢] (يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ)

[١٣] (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ)

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبري ، الصفحة رقم ١٨٩ من الجزء السادس والعشرين

(طبعة الحلبي الثانية) .

« قَتَلَ الْخَرَّصُونَ » أى لعن الآخذون بالتخمين ، مع ترك دلائل اليقين « الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ » أى فى جهل يغمرهم عن وجوب اتباع الدلائل القاطعة ، وترك الشبهات الواهية « سَاهُونَ » أى غافلون عما أتاهم ، وعما نزل إليهم ، بالانهماك فى اللذات البدنية ، واستئثار الحظوظ العاجلة « يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الَّذِينَ » أى متى يوم الجزاء ، ويوم يدين الله العباد بأعمالهم « يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ » أى يحرقون . وأصل الفتن إذابة الجوهر ليظهر غشه . ثم استعمل فى التعذيب والإحراق ونحوه .

قال القاضى : جواب للسؤال . أى يقع يوم هم على النار يفتنون ، وهو يوم هم .. الخ وفتح (يوم) لإضافته إلى غير متمكن ، ويدل عليه أنه قرئ بالرفع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تَسْتَعْجِلُونَ)

« ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ » أى مقولاً لهم : ذوقوا عذابكم الذى طلبتموه ، بل الذى استعجلتموه قبل وقته ، كما قال « هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تَسْتَعْجِلُونَ » أى حصوله فى الدنيا .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[١٦] (ءَاخِذِينَ مَآءَاتِلَهُمْ رَبَّهُمْ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)

[١٧] (كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)

[١٨] (وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[١٩] (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا الله بطاعته ، واجتناب معاصيه فى الدنيا ، وبتجنب

القول بالحرص والتخمين في الأمور الاعتقادية . « فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَاءَ أَمْهَمُ رَبَّهُمْ » قال ابن جرير^(١) : أى عاملين ما أمرهم به ربهم ، مؤدين فرائضه . وقال غيره : أى قابلين لما أعطاهم من النعيم الأخرى ، راضين به .

وهذا هو الوجه . ولذا قال ابن كثير : والذي فسر به ابن جرير فيه نظر ، لأن قوله تبارك وتعالى (ءَاخِذِينَ) حال من قوله (فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ) فالتقون في حال كونهم في الجنات والعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم . أى من النعيم والسرور والغبطة .

ثم أشار إلى سر استحقاقهم لذلك بقوله « إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ » يعنى : في الدنيا « مُحْسِنِينَ » أى قد أحسنوا أعمالهم لغلبة محبة الله على قلوبهم ، بظهور آثارها في أفعالهم وأقوالهم ، كلبينه بقوله سبحانه « كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » أى كانوا يهجمون هجوعاً قليلاً ، لتقوى نفوسهم على عبادته تعالى ، بنشاط .

روى ابن جرير^(١) عن أنس في الآية : أنهم كانوا يصلون ما بين هاتين الصلاتين ، ما بين المغرب والعشاء .

وعن محمد بن عليّ : كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة .

وعن مطرف : قلّ ليلة أتت عليهم ، إلا صلوا فيها من أولها أو من وسطها .

وعن الحسن قال : لا ينامون من الليل إلا أقله ، كابدوا قيام الليل .

وقرأ الأحف بن قيس هذه الآية فقال : لست من أهل هذه الآية .

وعن الضحاك : أن الوقف على قوله تعالى (كَانُوا قَلِيلًا) أى أن المحسنين كانوا قليلاً .

ثم ابتدئ فقيل (مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) . و (ما) نافية . أى لا يهجمون .

قال ابن كثير : هذا القول فيه بعد وتعسف .

(١) انظر الصفحة رقم ١٩٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

الطيفة :

في هذه الجملة الكريمة مباحات في وصف هؤلاء بقلة النوم ، وترك الاستراحة . وذلك ذكر القليل ، والليل الذى هو وقت النوم ، والهجوم الذى هو الخفيف من النوم ، وزيادة (ما) لأنها تدل على القلة . وبالجملة ، فى الآية استعجاب قيام الليل ، وذم نومه كله . والأحاديث على ذلك كثيرة شهيرة « وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » قال الفاضل : أى أنهم مع قلة هجوعهم ، وكثرة تهجدهم ، إذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار ، كأنهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم . قال الرازى : فى الآية إشارة إلى أنهم كانوا يتهجدون ويتهجدون ، ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك ، وأخلص منه ، فيستغفرون من التقصير . وهذا سيرة الكريم : يأتى بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ، ويعتذر من التقصير . واللئيم يأتى بالقليل ويستكثره ، ويمتنع به . وفيه وجه آخر أطف منه : وهو أنه تعالى ، لما بين أنهم يهجمون قليلاً ، والهجوم مقتضى الطبع ، قال (يَسْتَغْفِرُونَ) أى من ذلك القدر من النوم القليل . وفيه لطيفة أخرى نبيها فى جواب سؤال : وهو أنه تعالى مدحهم بقلة الهجوع ، ولم يمدحهم بكثرة السهر ، وما قال : كانوا كثيراً من الليل ما يسهرون ، فالحكمة فيه ؟ مع أن السهر هو السكفة والاجتهاد ، لا الهجوع ؟ نقول : إشارة إلى أن نومهم عبادة ، حيث مدحهم الله تعالى بكونهم هاجمين قليلاً ، وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى ، وهو الاستغفار ، فى وجوه الأسحار ، ومنهم من الإعجاب بأنفسهم والاستكبار .

ثم قال : والاستغفار يحتل طلب المغفرة بالذكر بقولهم : ربنا اغفر لنا . وطلب المغفرة بالفعل ، أى بالأسحار . يأتون بفعل آخر طامباً للغفران ، وهو الصلاة . والأول أظهر ، والثانى عند المفسرين أشهر . انتهى .

ويؤيد الثانى الإشارة إلى الزكاة فى الآية بمدحها . والزكاة قرينة الصلاة فى كثير من الآيات . وسر التعمير عن الصلاة بالاستغفار ، الإشارة إلى أنه ركنها المهم فى التهجد ، بل وفى غيره ،

فيكون من إطلاق الجزء على الكل . وقد ذكر في أذكار الصلاة الاستغفار في مواضع منها .
كالركوع والسجود وبين السجدين وآخر الصلاة ، كما أخرجه الشيخان وأهل السنن - وكان
ﷺ يطيل الركوع والسجود والتهجّد لذلك .

الطيفة :

قال الزمخشريّ في (أساس البلاغة) إنما سمي (السحر) استمارة ، لأنه وقت إدبار
الليل ، وإقبال النهار ، فهو متنفّس الصبح . انتهى .
« وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » أي الفقير المتعفف الذي يُظَنّ غنياً ،
فيحرم الصدقة .

قال قتادة : هذان فقيرا أهل الإسلام : سائل يسأل في كفه ، وفقير متعفف ، ولكليهما
عليك حق ، يا ابن آدم .

وفي الصحيح ^(١) عن النبي ﷺ : ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرّة
والتمرتان . ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يظنّ له فيصدق عليه .

وروى الإمام ^(٢) أحمد عن الحسين بن عليّ رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :
للسائل حق وإن جاء على فرس . ورواه أبو داود وأسفده عن عليّ كرم الله وجهه .

ويدخل في (المحروم) كل من لا مال له ، ومن هلك ماله بآفة ، ومن حرم الرزق
واححتاج ، إلا أن أهم أفراد المتعفف . ولذا عوّل عليه الأكثر .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : في أموالهم حق سوى الزكاة يصلون بها رحماً ، أو
يقرون بها ضيفاً ، أو يحملون بها كلاً .

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٤٨ - باب
لا يسألون الناس إلحافاً ، حديث رقم ٧٨٨ ، عن أبي هريرة .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٠١ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ١٧٩٠
(طبعة المعارف) .

ثم أشار تعالى إلى أنه لاجابة إلى الحرص والتخمين في باب الاعتقادات، لكثرة الآيات الواضحة ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

« وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ » أى عبر وعظات لأهل اليقين ، وهم الذين يقودهم النظر إلى ما تطمئن به النفس ، وينثليج له الصدر ، فيرون فيها مما ذرأ من صنوف النبات والحيوانات ، والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار ، عبراً وآيات عظاماً ، وشواهد ناطقة بقدرة الصانع ووحدانيته ، جل جلاله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

« وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » أى في حال ابتدائها وتقلعها من حال إلى حال ، واختلاف ألسنتها وألوانها ، وما جبلت عليه من القوى والإرادات ، وما بينها من التفاوت في العقول والأفهام ، وما في تراكيب أعضائها من الحكم في وضع كل عضو منها ، في المحل المقتدر إليه ، إلى غير ذلك مما لا يحصىه قلم كاتب ، ولا لسان بليغ .

أنشد الحافظ ابن أبي الدنيا في كتابه (التفكير والاعتبار) لشيخه أبي جعفر القرشي :

| | |
|----------------------------|--------------------------------|
| وإذا نظرتَ تريد معتبراً | فانظر إليك ، ففيك معتبرٌ |
| أنت الذى تسمى وتُصْبِحُ فى | دُنْيَا وكلُّ أمورِهِ عِبرٌ |
| أنت المصْرَفُ كان فى صغر | ثم استقلَّ بشخصك الكِبَرُ |
| أنت الذى تنعماء خلقتهُ | ينعماء منه الشَّعْرُ والبَشَرُ |
| أنت الذى تعطى وتسلب ، لا | ينجيه من أن يُسَلَبَ الحَذَرُ |
| أنت الذى لا شىء منه له | وأحقُّ منه بما له القَدَرُ |

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

«وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ» يعنى ب (السماء) المزن ، وب (الرزق) المطر ، فإنه سبب الأقوات . والمراد ب (مَا تُوعَدُونَ) العذاب السماوى ، لأن مؤاخذات المكذبين الأولين كانت من جهتها . والخطاب لمشركى مكة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)

«فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» أى الذى خلقهما للاستدلال بهما على حقيقة ما أخبر «إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ» أى مثل نطقكم . والضمير فى (إنه) عائد لما ذكر من أمر الآيات والرزق ، أو أمر النبى ﷺ ، أو إلى (مَا تُوعَدُونَ) ويؤيد الأخير ما تأثره من أنباء وعيد المكذبين ، وبدأ منها بنبا قوم لوط ، لأن قراهم واقعة فى ممرهم إلى فلسطين للاتجار ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ)

[٢٥] (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ)

[٢٦] (فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ)

[٢٧] (فَقَرَّبَهُو إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ)

[٢٨] (فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا لَا تَخَفْ ، وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ)

[٢٩] (فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ)

[٣٠] (قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ، إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَيْفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ » : يعنى : الملائكة الذين دخلوا عليه فى صورة ضيف . قال الزمخشري : فيه تفخيم للحديث ، وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله ﷺ ، وإنما عرفه بالوحى . وإكرامهم أن إبراهيم خدمهم بنفسه ، وأخدمهم امرأته ، وعجل لهم القرى ، أو أنهم فى أنفسهم مكرمون .

« إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ » : أى سلام عليكم « قَوْمٌ مُنْكَرُونَ أَيْ أَنْتُمْ قَوْمٌ لَا أَعْرِفُكُمْ . وهو كالسؤال منه عن أحوالهم ، ليعرفهم . فإن قولك لمن لقيته : أنا لا أعرفك ! فى قوة قولك : عرف لى نفسك ووصفها .

« فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ » : أى ذهب إليهم فى خفية من ضيوفه . ومن أدب المضيف أن يخفى أمره ، وأن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف ، حذراً من أن يكفه ويعذره - قاله الزمخشري - وأيده الناصر بما حكى عن أبي عبيد : أنه لا يقال راغ ، إلا إذا ذهب على خفية وأنه يقال روغ اللقمة إذا غمسها فرويت سمناً . قال الناصر : وهو من هذا المعنى ، لأنها تذهب مغموسة فى السمن حتى تخفى . ومن مقلوباته (غور الأرض) والجرح . وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى . انتهى .

« فَجَاءَ بِمِجَلِّ سَمِينٍ » : أى قد أنضجه شيئاً « فَقَرَّبَهُوَ إِلَيْهِمْ » : أى بأن وضعه بين أيديهم « قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ » : أى منه . قال القاضى : وهو مشعر بكونه حفيداً . والهمزة فيه للعرض ، والحث على الأكل على طريقة الأدب ، إن قاله أول ما وضعه . والإنكار ، إن قاله حينما رأى إعراضهم .

« فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً » : أى أضررها ، لظنه أنهم أرادوا به سوءاً « قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِنِعْلِمٍ عَلِيمٍ » : أى يبلغ ويكمل علمه « فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ » : أى صريحة « فَصَكَّتْ » : أى اطمت « وَجْهَهَا » : أى تمجباً ، على عادة النساء فى كل غريب عندهن ،

« وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ » أى عاقر ليس لى ولد « قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ » أى مثل الذى قلنا وأخبرنا به، قال ربك، فإنما نخبرك عن الله. فاقبلى قوله، ولا تتوهى عليه خلاف الحكمة، ولا الجهل، بعدم قبولك للولادة . « إِنَّهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ)

[٣٢] (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ)

[٣٣] (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّنَ طِينٍ)

[٣٤] (مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ)

[٣٥] (فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[٣٦] (فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ)

[٣٧] (وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

« قَالَ » أى إبراهيم لضيفه « فَمَا خَطْبُكُمْ » أى أمركم وشأنكم « أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * » قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ » أى مؤاخذتهم « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّنَ طِينٍ » أى رجماً لهم على فعلهم الفاحشة « مُّسَوَّمَةً » أى مرسله ، أو معلمة « عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ » أى المتعدين حدود الله ، الكافرين به « فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا » أى فى تلك القرية (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى بإيحاء الخروج إليهم على لسان الملائكة ، وهم لوط وابنتاه عليهم السلام . « فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ » يعنى بيت لوط عليه السلام « وَتَرَكْنَا فِيهَا » أى فى تلك القرية « آيَةً » أى علامة تدل على إهلاكهم الدينوى الدال على الأخرى « لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » أى فى الآخرة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)

[٣٩] (فَتَوَلَّىٰ بُرْكَانَهُ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

[٤٠] (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ)

« وَفِي مُوسَى » عطف على (فيها) بإعادة الجار ، لأن المعطوف عليه ضمير مجرور .
 أى وتركنا فى قصة موسى بإهلاك أعدائه ، آيةً وحجة تبين لمن رآها حقيقة دعواه .
 « إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ » أى ببرهان ظاهر « فَتَوَلَّىٰ بُرْكَانَهُ »
 أى فأعرض عن الإيمان . والركن : جانب الشيء . فـ (ركنه) جانب بدنه . فالتولى به
 كناية عن الإعراض . والباء للتعدي ، لأن معناه ثنى عطفه . أو للملابسة . أو الركن فيه
 بمعنى الجيش ، لأنه يركن إليه ، ويتقوى به ، والباء للمصاحبة أو للملابسة . « وَقَالَ
 سَاحِرٌ » أى هو ساحر * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .
 أى فأغرقناهم فى البحر « وَهُوَ مُلِيمٌ » أى آت بما يلام عليه من الكفر والعناد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ)

[٤٢] (مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّمِيمِ)

« وَفِي عَادٍ » أى وتركنا فى عاد ، قوم هود عليه السلام آيةً « إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
 الرِّيحَ الْعَقِيمَ » أى التى لا خير فيها من إنشاء مطر ، أو إلقاح شجر . وهى ريح الهلاك .
 « مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّمِيمِ » أى الشئء الهالك . وأصل الرميم :
 البالى المفتت ، من عظم أو نبات أو غير ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَفِي مَمْدُودٍ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ)

[٤٤] (فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِيقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)

[٤٥] (فَمَا أَسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ)

« وَفِي مَمْدُودٍ » أى وتركنا فى ممدود ، قوم صالح عليه السلام « إِذْ قِيلَ لَهُمْ » أى بعد عقرهم الناقة « تَمَتَّعُوا » أى فى داركم « حَتَّىٰ حِينٍ » يعنى : ثلاثة أيام ، كما بينته الآية الأخرى . « فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ » أى فاستكبروا عن امتثاله « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِيقَةُ » يعنى العذاب الحال بهم ، الممهود « وَهُمْ يَنْظُرُونَ » أى إليها . فإنها نزلت بهم نهاراً . « فَمَا أَسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ » أى نهوض ، فضلاً عن دفاع عذاب الله « وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ » أى ممتنعين من العذاب . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

« وَقَوْمَ نُوحٍ » قرئ بالجر عطفاً على (وَفِي مَمْدُودٍ) أو المجرورات قبل . وبالنصب مفعولاً لمضمر دل عليه السياق والسباق . أى وأهلكنا قوم نوح . أو عطفاً على مفعول (فَأَخَذَتْهُ) أو على محل (وَفِي مُوسَى) . « مِّنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ » أى : مخالفين أمر الله ، خارجين عن طاعته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

[٤٨] (وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيَّدُونَ)

« وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ » أى رفعناها بقوة « وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » أى لقادرون على

الإيساع ، كما أوسعنا ببناءها . « وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا » أى مهدناها ليتمتعوا بها « فَنِعْمَ الْمَهْدُونَ » أى لهم . وفى إشار صيغة فاعل من (مهد على فرش) إشارة إلى أن من المواد ما تختلف صيغته فى النظم فعلاً واسماً ، فيكون فى أحدها أرق وألطف وأفصح ، فيؤثر على غيره فى ظرف ، ويؤثر عليه غيره فى آخر . والمرجع الذوق - كما بسطه ابن خلدون وابن الأثير .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

« وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ » أى ذكراً وأنثى ، أو نوعين متقابلين .
قال ابن كثير : جميع المخلوقات أزواج : سماء وأرض . ليل ونهار . شمس وقمر . وبر وبحر . وضياء وظلام . وإيمان وكفر . وموت وحياة . وشقاء وسعادة . وجنة ونار . حتى الحيوانات والنباتات . انتهى . وهو مأخوذ من كلام ابن جرير فى تأييد تفسير مجاهد ، وعبرة ابن جرير^(١) :

وأولى القولين فى ذلك قول مجاهد : وهو أن الله تبارك وتعالى خلق لكل ما خلق من خلقه ثانياً له ، مخالفاً فى معناه . فكل واحد منهما زوج للآخر ، ولذلك قيل (خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) وإنما به جل ثناؤه بذلك من قوله (خَلَقِهِ) على قدرته على خلق ما يشاء ، وأنه ليس كالأشياء التى شأنها فعل نوع واحد دون خلافه ، إذ كل ما صفت به فعل نوع واحد دون ماعداه ، كالنار التى شأنها التسخين ولا تصلح للتبريد ، وكالثلج الذى شأنه التبريد ولا يصلح للتسخين ، فلا يجوز أن يوصف بالكمال ، وإنما كمال المدح للقادر على فعل كل ما شاء فعله من الأشياء المختلفة والمتفقة . انتهى .

« لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » قال ابن جرير^(٢) : أى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُوا وتعتبروا بذلك ، فتعلموا

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أيها المشركون بالله ، أن ربكم الذى يستوجب عليكم العبادة ، هو الذى يقدر على خلق الشئ وخلافه ، وابتداع زوجين من كل شئ ، لا ما لا يقدر على ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (فَفَرِّوْا إِلَى اللَّهِ ، إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« فَفَرِّوْا إِلَى اللَّهِ » أى فَرُّوا من عقابه إلى رحمته ، بالإيمان به ، واتباع أمره ، والعمل بطاعته . قال الشهاب : الأمر بالفرار من العقاب ، المراد به الأمر بالإيمان والطاعة ، لأنه لأمنه من العقاب بالطاعة ، كأنه فر لأمنه . فهو استعارة تشيلية . « إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى أنذركم عقابه ، وأخوفكم عذابه الذى أحلّه بهؤلاء الأمم الذين قص عليكم قصصهم ، والذى هو مذكّرهم فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » أى قد أبان النذارة . قال أبو السعود : وفيه تأكيد لما قبله من الأمر بالفرار من العقاب إليه تعالى ، لكن لا بطريق التكرير - كما قيل - بل بالنهى عن سببه ، وإيجاب الفرار منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ)

[٥٣] (أَتَوَاصَوْا بِهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

[٥٤] (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ)

« كَذَلِكَ » أى كما ذكر من تكذيبهم الرسول ، وتسميتهم له ساحراً أو مجنوناً ،

« مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ » يعنى تقليداً لآبائهم ، واقتداء لآثارهم ، فورد جهالتهم مؤتلف ، ومشرع تمنعهم متحد . وقوله تعالى « اتَّوَصَّوْا بِهِ » إنكار وتعجيب من حالهم وإجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة التى لاتكاد تخطر ببال أحد من العقلاء ، فضلاً عن التفوه بها . أى أوصى بهذا القول بعضهم بمضاً حتى اتفقوا عليه . وقوله تعالى « بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ » إضراب عن كون مدار اتفاقهم على الشر توصيهم بذلك ، وإثبات لكونه أمراً أقبح من التواصى وأشنع منه ، من الطغيان الشامل للكل ، الدال على أن صدور تلك الكلمة الشنيعة من كل واحد منهم ، بمقتضى جبلته الخبيثة ، لا بموجب وصية من قبلهم بذلك - أفاده أبو السعود .

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أى أعرض عن مقابلتهم بالأسوأ ، كقوله تعالى ^(١) (وَدَّعَ أَذُنَهُمْ) وقوله ^(٢) (وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) . « فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ » أى فى إعراضهم ، إذ لست عليهم بجبار ولا مسيطر ، وما عليك من حسابهم من شئ .

تنبيه :

قول بعض المفسرين هنا - (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) أى فأعرض عن مجادلتهم ، بعد ما كررت عليهم الدعوة - بعيد عن المعنى بمراحل ، لأن مجادلتهم مما كان مأموراً بها على المدى ، لأنها العامل الأكبر لإظهار الحق ، كما قال تعالى ^(٣) (وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) .

وكذا قول البعض فى قوله تعالى (فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ) أى فى إعراضك بعد ما بلغت . فإنه مناف للأمر بالذكرى بعد . فالصواب ما ذكرناه فى تفسير الآية ، لأنه المحاكى لنظائرها . وأقعد التفاسير ما كان بالأشياء والنظائر - كما قيل - : وخير ما فسرته بالوارد .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٨] . (٢) [٨٣ / الزمل / ١٠] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٥٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)

« وَذَكِّرْ » أى عظمهم « فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » أى من قدر الله إيمانه ، أو الذين آمنوا ، فإنهم المقصودون من الخلق ، لا من سواهم ، إذ هم العابدون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

« وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » أى لهذه الحكمة ، وهى عبادته تعالى بما أمر على لسان رسوله ، إذ لا يتم صلاح ، ولا نفال سعادة فى الدارين ، إلا بها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا)

[٥٨] (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)

« مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » بيان لعظمته عز وجل ، وأن شأنه مع عبده لا يقاس به شأن عبده الخلق معهم ، فإن عبدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسادة ، وبواسطة مكاسب عبدهم ، قدر أرزاقهم . والله تعالى لا يطلب من عباده رزقاً ولا إعطائاً ، بل هو الذى يرزقهم . وإنما يطلب منهم عبادته ليصرفوا ما أنعم به عليهم إلى ما خلقوا لأجله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ)

« فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا » أى ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بتكذيب الرسول ،

والإصرار على الشرك والبنى والفساد، « ذُنُوبًا » أى نصيباً وافرّاً من العذاب « مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ » أى مثل أنصباء نظرائهم من الأمم المحسنة . وأصل (الذنوب) الدلو العظيمة الممتلئة ماء ، أو القربة من الامتلاء . وهى تذكر وتؤنث ، فاستعيرت للنصيب مطلقاً، شراً كالنصيب من العذاب فى الآية ، أو خيراً كما فى العطاء فى قول عمرو بن شاس (١) :
 وفى كل حيٍّ قد خبطتَ بنعمةٍ فحقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذُنُوبُ
 وهو مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب ، فيعطى لهذا ذنوب ، ولآخر مثله .
 « فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ » أى لا يطلبوا منى أن أعجل به قبل أجله ، فإنه لا بد آتيهم ، ولكن فى حينه ، المؤخر لحكمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ « أى أوعدوا فيه نزول العذاب بهم ، ماذا يلقون فيه من البلاء والجهد . و (اليوم) إما يوم القيامة ، أو يوم بدر . قال أبو السعود : والأول هو الأنسب بما فى صدر السورة الكريمة الآتية . والثانى هو الأفق لما قبله ، من حيث إنهما من العذاب الدينوى - والله أعلم - .

(١) قائل البيت هو علقمة الفحل . من الفضلية رقم ١١٩ التى مطلعها :
 طَجَا بِكَ قَابٌ فِي الْحِسَانِ طَرُوبُ بُعَيْدَ الشَّبَابِ ، عَصَرَ حَانَ مَشِيبُ
 يقال : خبطه بخير : أعطاه من غير معرفة بينهما .
 وشأس : هو أخو علقمة بن عبدة .
 والذنوب الدلو . أراد حظاً ونصيباً .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٢ - سُورَةُ الطُّورِ

قال المهايي : سميت به لأنه لما تضمن تعظيم مهبط الوحي ، فالوحي أولى بالتعظيم ، فيمظم الاهتمام بالعمل ، لاسيما وقد عظم مصعد العمل وثمرته . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . وهي مكية ، وآيها تسع وأربعون .

روى الشيخان^(١) ومالك عن جبير بن مطعم قال : سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه .

وروى البخاري^(٢) عن أم سامة قالت : شكوت إلى رسول الله ﷺ إني أشتكي ! فقال : طوفي من وراء الناس وأنت راكبة . فطفت ورسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت ، يقرأ بالطور وكتاب مسطور .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٢ - سورة والطور ، ١ - حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث رقم ٤٦٥ . وأخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٧٤ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٢ - سورة والطور ، ١ - حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث رقم ٣٠٩ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (وَالطُّورِ)
- [٢] (وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ)
- [٣] (فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ)
- [٤] (وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ)
- [٥] (وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ)
- [٦] (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ)

« وَالطُّورِ » أى طور سينين ، جبل بحدّين ، سمع فيه موسى ، صلوات الله عليه ، كلام الله تعالى ، واندك بنور تجليه تعالى .

« وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ » أى مكتوب . والمراد به القرآن ، أو ما يعمّ الكتب المنزلة .
 « فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ » متعلق بـ (مسطور) . أى وكتاب سطرّ في ورق منشور يقرأ على الناس جهاراً . و (الرق) الصحيفة أو الجلد الذى يكتب فيه .

« وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ » أى الذى يمر بكثرة غاشيته . وهو السكبة المعمورة بالحجاج والعمار والطائفين والعاكفين والمجاورين . وروى أنه بيت فى السماء بحيال السكبة من الأرض . يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون فيه أبداً . والأول أظهر ، لأنه يناسب ما جاء فى سورة (التين) من عطف (الْبَلَدِ الْأَمِينِ) على (طُورِ سَيْنِينَ) والقرآن يفهم بعضه بعضاً ، لتشابه آياته ، وتماثلها كثيراً ، وإن تنوعت بلاغة الأسلوب .

قال المهايى : أورده بعد الكتاب الذى هو الوحى ، لأنه محل أعظم الأعمال المقصودة منه ، ولأنه مظهر الوحى ، ومصدر الرحمة العامة المهداة للعالمين ، ولأنه من أجل الآيات وأكبرها . كما دل عليه آية^(١) (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِّنَّا وَيُخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) وآيات أخر .

«وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ» يعنى السماء . وجعلها سقفاً ، لأنها للأرض كسماء البيت الذى هو سقفه .

«وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ» أى المملوء ، أو الذى يوقد ، أى يصير ناراً ، كقوله^(٢) (وَإِذَا الْيَحْيَارُ سُجِّرَتْ) قال ابن^(٣) جرير : والأول أولى . أعنى : أن معناه البحر المملوء المجموع ماؤه بعضه فى بعض ، لأن الأغلب من معانى (السَّجَر) الإيقاد أو الامتلاء . فإذا كان البحر غير موقد اليوم ، ثبتت له الصفة الثانية وهو الامتلاء ، لأنه كل وقت ممتلئ . ولاتنس ما قدمنا فى أوائل (الذَّارِيَاتِ) من أن هذه الأقسام كلها دلائل أخرجت فى صورة الأيمان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ)

[٨] (مَّا لَهُ مِنْ دَافِعٍ)

[٩] (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا)

[١٠] (وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا)

[١١] (فَوَيْلٌ لِلْيَكْذِبِينَ)

[١٢] (الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ)

(١) [٢٩ / المنكبات / ٦٧] . (٢) [٨١ / التيسير / ٦] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٢٠ و ١٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

- [١٣] (يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً)
 [١٤] (هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)
 [١٥] (أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ)
 [١٦] (أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ » أى يدفعه عن المكذبين ، فينقذهم منه إذا وقع . « يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا » أى تضطرب . « وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا » أى تسير عن وجه الأرض فتصير هباءً منثورًا « فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » أى بالحق ، الجاحدين له « الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ » أى من الاعتساف والاستهزاء « يَلْعَبُونَ » أى بآيات الله ودلائله « يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً » أى يدفعون إليها بعنف . يقال : دَعَعْتُ فى ففاه ، إذا دفعته فيه بإزعاج « هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ » أى يقال لهم ذلك « أَفَسِحْرُ هَذَا » أى الذى وردتموه الآن . والفاء للسببية ، لتسبب هذا عما قالوه فى الوحى « أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ » أى كما كنتم لا تبصرون فى الدنيا . قال الزمخشري : يعنى أم أنتم عمى عن الخبر عنه ، كما كنتم عمياً عن الخبر . وهذا تقريع وتهكم . « أَصْلَوْهَا » أى : ذوقوا حرَّ هذه النار . « فَاصْبِرُوا » أى على ألمها ، « أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ » أى الأمران . الصبر وعدمه سواء عليكم « إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى لاتعاقبون إلا على معصيتكم فى الدنيا لربكم ، وكفركم به .

قال الزمخشري : فإن قلت : لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ ...) الخ ؟ قلت لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع ، لنفعه فى العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير . فأما الصبر على العذاب الذى هو الجزاء ، ولا عاقبة له ولا منفعة ، فلا مزية له على الجزع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ)

[١٨] (فَلِكِهِمْ مِمَّا أَسَاءُوا رَبُّهُمْ وَوَقَّعَهُمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

[١٩] (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٢٠] (مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ ، وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)

«إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَلِكِهِمْ مِمَّا أَسَاءُوا رَبُّهُمْ» أى متلذذين بما لديهم من الفواكه الكثيرة «وَوَقَّعَهُمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ» جمع (عيفاء) ، وهى الواسعة العين ، فى حسن .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا

أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ)

«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ» أى اقتفت آثارهم فى الإيمان والعمل الصالح «أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» أى فى الجنات والنعيم . والخطاب ، لما كان مع الصحابة رضى الله عنهم ، وهم واثقون بوعد الله ، تم لهم البشارة بالموعود به ، بأنه ينال ذريتهم أيضاً ، إن اتبعوا آباءهم بإحسان . هذا هو المراد من الآية . وأما من قال فى معناها : إن المؤمن ترفع له ذريته فيلحقون به ، وإن كانوا دونه فى العمل ، فلا تقتضيه الآية تصريحاً ولا تلويحاً «وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» أى وما نقصناهم من ثواب عملهم شيئاً «كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ» أى بما عمل من خير أو شر مرتين به ، لا يؤخذ أحد بذنب غيره ، وإنما يعاقب بذنب نفسه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ)

[٢٣] (يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ)

[٢٤] (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ)

« وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ » أى زدناهم وقتاً بعد وقت ، ما ذكر .
 « يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا » أى يتعاطون فيها كأس الشراب ويتجاذبونها « لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ » أى لا يتكلمون فى أثناء الشرب بسقط الحديث وباطله ، ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله ، كما كان فى الدنيا . « وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ » أى مصون فى كِنٍ ، فهو أنقى له ، وأصفى لبياضه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

[٢٦] (قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ)

[٢٧] (فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَقَمْنَا عَذَابَ السَّمُومِ)

[٢٨] (إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ)

« وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » أى يتجاذبون أطراف الأحاديث المفضية إلى شكر المنعم ، والتحدث بالنعمة ، وذلك فى مساءلة بعضهم بعضاً عما مضى لهم فى الدنيا .
 « قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ » أى خائفين من عذاب الله « فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَقَمْنَا عَذَابَ السَّمُومِ » يعنى : عذاب النار . وأصل (السَّمُومِ) الريح الحارة التى تدخل المسام ، فسميت بها نار جهنم ، لمشابتها لها ، وإن كان وجه الشبه فى النار أقوى ، لكنه

في ربح السموم لمشاهدته في الدنيا ، أعرف . « إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ » أى نعبده
مخلصين له الدين « إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ » أى المحسن بمن دعاه « أَلَرَّحِيمُ » أى لمن عبده وخافه
بالهداية والتوفيق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ)

« فَذَكِّرْ » أى من أرسلت إليهم وعظهم « فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ »
أى تنكهن فيما تدعو إليه ، « وَلَا مَجْنُونٍ » أى له رأى من الجن يخبر عنه قومه
ما أخبر عنه ، كما يعتقد العرب في بعضهم ، ولكنك رسول الله حقاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ)

[٣١] (قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ)

« أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ » أى حوادث الدهر أو الموت ،
لأن (المنون) قد يراد به الدهر ، وريبه صروفه . وقد يراد به الموت ، وريبه نزوله .
« قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ » أى : حتى يأتى أمر الله فيكم . والأمر
للتحكم بهم والتهديد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهِذَا ، أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

[٣٣] (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ، بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ)

[٣٤] (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)

« أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهِذَا » أى عقولهم بهذا التناقض في القول ، « أَمْ » أى بل

« هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » أى مجاوزون الحد فى العناد، مع ظهور الحق « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُو » أى اختلق هذا القرآن من عند نفسه ، « بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لا يريدون أن يؤمنوا حسداً وتقليداً، فلذلك يرمونه بتلك الفرى . « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ » أى فى الهداية بذاك الأسلوب الذى ملك ناصية الفصاحة والبلاغة، كقوله ^(١) (قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ) . « إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » أى فى زعمهم ، فإنهم من أهل لسان الرسول صلوات الله عليه ، ولا يتعذر عليهم مضاهاة بعضهم لبعض ، فى ميدان التساجل والتراسل .
القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٣٥] (أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)
[٣٦] (أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، بَلْ لَا يُوقِنُونَ)
[٣٧] (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَّبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ)
[٣٨] (أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ، فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)
[٣٩] (أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ)
[٤٠] (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ)
[٤١] (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)
[٤٢] (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ)
[٤٣] (أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)
« أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ » قال ابن جرير ^(٢) : أى أخلق هؤلاء المشركون من غير

(١) [٢٨ / القصص / ٤٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

آباء ولا أمهات ، فهم كالجناد لا يعقلون ، ولا يفهمون لله حجة ، ولا يعتبرون له بديرة ، ولا يتعظون بموعظة . وقد قيل : إن معنى ذلك أم خلقوا لغير شيء ، كقول القائل : فعلت كذا وكذا من غير شيء ، بمعنى : لغير شيء « أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ » أى أنفسهم ، أو هذا الخلق ، فهم لذلك لا يأترون لأمر الله ، ولا ينتهون عما نهاهم عنه ، لأن للخالق الأمر والنهى « أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ » أى بوعيد الله ، وما أعد لأهل الكفر به من العذاب فى الآخرة ، فلذلك فعلوا ما فعلوا . « أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ » أى خزائن رزقه ، فهم لاستغنائهم معرضون « أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُونَ » أى الجبابرة المتسلطون « أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ أَسْلَمُوا مِنْهُ » أى المرتقى إلى السماء « يَسْتَمِعُونَ فِيهِ » أى الوحي ، فيدعون أنهم سمعوا هنا لك من الله أن الذى هم عليه حق . « فَلَيَأْتِيَنَّ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ » أى بحجة واضحة تصدق دعواه « أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ » أى حيث جعلوا ، لسفاهة رأيهم ، الملائكة إناثاً ، وأنها بناته تعالى ، مع أنه ^(١) « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ » « أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا » أى أجره على إبلاغك بإيهم رسالة الله تعالى ، « فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ » أى من التزام غرامة « مُثْقَلُونَ » أى من أوائمه ، حتى زهدهم ذلك فى اتباعك « أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ » أى منه ما شاءوا ، وينبئون الناس عنه بما أرادوا « أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا » أى بالرسول وما جاء به ، « فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ » أى الماكور بهم دونك ، فتق بالله ، وامض لما أمرك به « أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ » أى له العبادة على جميع خلقه « سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى : تنزيهاً له عن شركهم ، وعبادتهم معه غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] « وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ »

« وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ » هذا جواب لمشركي

(١) [١٦ / النحل / ٥٨] .

قريش الذين كانوا يستعجلون العذاب ، ويقترحون الآيات ، كقولهم ^(١) (اَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا) إلى قوله (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا) . قال الزمخشري : يريد أنهم لشدة طغيانهم وعنادهم ، لو أسقطناه عليهم لقالوا : هذا سحاب مكروم بعضه فوق بعض ، يعطرنا ، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

[٤٦] (يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)

« فَذَرَهُمْ » أى يخوضوا ويلعبوا ، ويلهمهم الأمل ، « حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ » أى يموتون « يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا » أى لا يدفع عنهم مكرهم من عذاب الله ، شيئاً « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ » أى دون يوم القيامة ، وهو إماعداب القبر ، أو الفحط ، أو النوازل التى تذهب بأموالهم وأنفسهم - أقوال للسلف - واللفظ صادق بالجميع « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى سنة الله فى أمثالهم من الفجرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ)

« وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » أى الذى حكم به عليك ، وامض لأمره ونهييه ، وبلغ رسالاته .

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٠-٩٢] .

« فَأَيْنَكَ بِأَعْيُنِنَا » قال ابن جرير ^(١) : أى بمرأى منا ، نراك ونرى عملك ، ونحن نحوطك ونحفظك ، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين .

وقال الشهاب : يعنى أن العين ، لما كان بها الحفظ والحراسة ، استمرت لذلك ، وللحفاظ نفسه ، كما تسمى (الربيئة) عيناً ، وهو استمهال فصيح مشهور . ونسكتة جمع (العين) هنا وإفرادها فى قصة السكيم ، عدا عن أنه جمع هنا لما أضيف لضمير الجمع ، ووحد ثمة لإضافته لضمير الواحد ، هو المبالغة فى الحفظ ، حتى كأن معه جماعة حفظه له بأعينهم ، لأن المقصود تصبير حبيبه على المكاييد ومشاق التكالييف والطاعة . فناسب الجمع ، لأنها أفعال كثيرة ، يحتاج كل منها إلى حارس بل حراس . بخلاف ما ذكر هناك من كلاءة موسى عليه السلام « وَسَمِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ » أى من منامك .

روى الإمام أحمد ^(٢) عن عبادة بن الصامت ، عن رسول الله ﷺ قال : من تعار من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . ثم قال : رب اغفر لى (أوقال : ثم دعا) استجيب له . فإن عزم فتوضاً ثم صلى ، قبلت صلاته . وأخرجه البخارى ^(٣) فى صحيحه وأهل السنن .

وورد من أذكار الاستيقاظ من النوم قول : سبحان الله وبحمده ، سبحان القدوس . و : لا إله إلا أنت ، سبحانك اللهم أستغفرك لذنبى ، وأسألك رحمتك . اللهم زدنى علماً . ولا ترغ قلبي ببد إذ هديتنى ، وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .
وقيل : حين تقوم إلى الصلاة - روى مسلم ^(٤) فى صحيحه عن عمر ؛ أنه كان يقول فى

- (١) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .
- (٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣١٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .
- (٣) أخرجه فى : ١٩ - كتاب التهجد ، ٢١ - باب حدثنا على بن عبد الله ، حديث رقم ٦٣٤
- (٤) أخرجه فى : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ٥٢ (طبعتنا) .

ابتداء الصلاة : سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك .
ورواه أحمد وأهل السنن عن أبي سعيد وغيره ، عن النبي ﷺ ؛ أنه كان يقول ذلك . وعن
بجاهد : حين تقوم من كل مجلس . وكذا قال عطاء وأبو الأحوص .

روى أبو هريرة ^(١) عن النبي ﷺ أنه قال : من جلس في مجلس ، فكثرت فيه لغطه ، فقال
قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أستغفرك
وأتوب إليك - إلا غفر الله ما كان في مجلسه ذلك - رواه الترمذي وصححه ، وكذا الحاكم .
وأخرج أبو داود ^(٢) والنسائي والحاكم عن أبي برزة الأسلمي قال : كان رسول الله ﷺ يقول
يقول بأخرة ، إذا أراد أن يقوم من المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا
أنت ، أستغفرك وأتوب إليك . فقال رجل : يا رسول الله ! إنك لتقول قولاً ما كنت تقول
فيما مضى ؟ قال : كفارة لما يكون في المجلس !

وقد أفرد الحافظ ابن كثير لهذا الحديث جزءاً على حدة ، ذكر فيه طرقه وألفاظه ،
وعلمه ، فرحمه الله .

ولا يخفى أن لفظ الآية يصدق بالمواضع المذكورة كلها ، وتدل الأحاديث المذكورة على
الأخذ بمعومها ، فإن السنة بيان للكتاب الكريم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ)

« وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ » أي اذكره واعبد بالتلاوة والصلاة بالليل ، كما قال تعالى ^(٣)
(وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٤٢٤ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ٢٧ - باب في كفارة المجلس ، حديث ٤٨٥٩

(٣) [١٧ / الإسراء / ٧٩] .

وقد روى في أذكار الليل من التسابيح ما هو معروف في كتب الحديث . وقد جمعت ذلك معمرى عن أسانيدھا في كتابی (الأوراد الماثورة) .

«وَأِدْبَرَ الْجُومَ» أى : وسبحه وقت إدارھا ، وذلك بميلھا إلى الغروب عن الأفق ، بانتشار ضوء الصبح . وقد عني بذلك إمافريضة الفجر أو نافلته ، أو ما يشملهما . قال قتادة : كننا نحدث أنهما الركعتان عند طلوع الفجر . وقد ثبت في الصحيحين^(١) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل ، أشدّ تماهداً منه على ركعتي الفجر . وفي لفظ لمسلم^(٢) : ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها .

قال الزخشرى : وقرئ (وَأَدْبَرَ) بالفتح ، بمعنى فى أعقاب الفجوم وآثارها إذا غربت .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) عن السكرمانى : إن بعض الفقهاء استدلل به على أن الإسفار بصلاة الصبح أفضل لأن النجوم لا إدارھا ، وإنما ذلك بالاستتار عن العيون . انتهى . وهو استدلال متين .

(١) أخرجه البخارى فى : ١٩ - كتاب التهجد ، ٢٧ - باب تماهد ركعتي الفجر ،

حديث ٦٣٨ .

وأخرجه مسلم فى : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٩٥٠٩٤ (طبعنا) .

(٢) أخرجه فى : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٩٦ (طبعنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٣ - سُورَةُ النَّجْمِ

مكية . وآيها ثنتان وستون آية .

روى البخارى^(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة (وَالنَّجْمِ) . قال : فسجد رسول الله ﷺ ، وسجد من خلفه ، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب ، فسجد عليه ، فرأيت به بعد ذلك قتل كافراً ، وهو أمية بن خلف . ووقع في رواية غيره ، تسمية غير أمية - كما بسطه ابن حجر في (الفتح) - .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة والنجم ، ٤ - باب
فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا ، حديث ٥٨٨ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ)

[٢] (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ)

« وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ » أى إذا غرب وغاب عن الأبصار ، أو انتثر يوم القيامة . أو انقض . « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ » يعنى : محمداً ﷺ . والخطاب لقريش . أى ما حاد عن الحق ، ولا زال عنه . « وَمَا غَوَىٰ » أى ما صار غويًا ، ولكنه على استقامة وسداد ورشد وهدى . وفيه تعريض بأنهم أهل الضلال والغى . وذكره ﷺ بعنوان (صاحبهم) للإعلام بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة ، وإحاطتهم بحاسن شئونه المنيفة . فهو تبكيت لهم على وجه أبلغ من أن يصرح باسمه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ)

[٤] (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)

« وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ » أى وما ينطق بهذا القرآن عن هواه ورأيه . وفيه تعريض بهم أيضاً « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ » أى ما هذا القرآن إلا وحى من الله يوحى إليه . وجملة (يُوحَىٰ) صفة مؤكدة لـ (وَحْيٌ) رافعة لاحتمال المجاز ، مفيدة للاستمرار التجددى . والضمير للقرآن ، لفهمه من السياق ، ولأن كلام المنكرين كان فى شأنه . وأرجعه بعضهم إلى ما ينطق به مطلقاً . واستدل على أن السنن القولية من الوحى ، وقوَاه بما فى (مراسيل) أبى داود عن حسان بن عطية قال: كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة ، كما ينزل عليه

بالقرآن ، وبعلمه إياها ، كما يعلمه القرآن . واستدل أيضاً على منع الاجتهاد له ﷺ . والصواب هو الأول . أعني : كون مرجع الضمير للقرآن ، لما ذكرنا ، فإنه ردّ لقولهم (أَفْتَرَبَهُ) والقرينة من أكبر المخصصات . وجلى أنه ﷺ كثيراً ما يقول بالرأى في أمور الحرب ، وأمور أخرى . فلا بد من التخصيص قطعاً ، وبأنه لا قوة في المراسيل ، لما تقرر في الأصول . وبأن الآية لا تدل على منع الاجتهاد المذكور ، ولو أعيد الضمير لما ينطق مطلقاً . لأن الله تعالى إذا سوغ له الاجتهاد ، كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحياً ، لانطقاً عن الهوى . لأنه بمنزلة أن يقول الله لنبيه ﷺ (متى ما ظننت كذا فهو حكمي) أى كل ما ألقىته في قلبك فهو مرادى ، فيكون وحياً حقيقة ، لاندراجها تحت الإذن المذكور ، لأنه من أفرادها . فما قيل عليه من أن الوحي الكلام الخفى المدرك بسرعة ، فلا يندرج فيه الحكم الاجتهادى إلا بعموم المجاز . مع أنه يأباه قوله ^(١) (عَلَّمَهُو شَدِيدُ الْقُوَى) غير وارد عليه ، بعدما عرفت من تقريره - نقله في (العناية عن الكشف) - وتفصيل المسألة في مطولات الأصول .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (عَلَّمَهُو شَدِيدُ الْقُوَى)

«عَلَّمَهُو شَدِيدُ الْقُوَى» أى علم محمداً ﷺ ملكٌ شديد قواه ، يعنى جبريل عليه السلام . كما قال ^(٢) (إِنَّهُو لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ) و (الْقُوَى) جمع قوة ، بضم القاف . ومن العرب من يكسر ها كالرثا بكسر الراء في جمع رشوة بضمها ، والحبأ في جمع حُبوة - نقله ابن ^(٣) جرير .

(١) [٥٣ / النجم / ٥] . (٢) (٨١ / التكوير / ٢٠ و ١٩) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ)

[٧] (وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ)

« ذُو مِرَّةٍ » بكسر الميم . أى متانة وإحكام فى علمه ، لا يمكن تغيّره ونسيانه . والعرب تقول لكل قوى العقل والرأى (ذُو مِرَّةٍ) من (أمررت الحبل) إذا أحكمت فتله « فَاسْتَوَىٰ » وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ » قال الزمخشري : فاستقام على صورة نفسه الحقيقية ، دون الصورة التى كان يتمثل بها ، كما هبط بالوحى . وكان ينزل فى صورة دحية .

فالفاء - كما قال شراحه - سببية ، لأن تشككه يتسبب عن قوته وقدرته على الخوارق . أو عاطفة على (عَلَّمَهُ) أى علمه على غير صورته الأصلية ، ثم استوى على صورته الأصلية . وقيل : (استوى) بمعنى (استولى) بقوته على ما أمر بمباشرته من الأمور - حكاه القاضى - . قال الشهاب : الأفق الناحية ، وجمعه آفاق . والمراد الجهة العليا من السماء المقابلة للناظر ، لامصطلح أهل الحياة . انتهى .

وقال ابن كثير : وقوله تعالى (فَاسْتَوَىٰ) يعنى جبريل عليه السلام - قاله الحسن ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس (وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ) يعنى جبريل استوى فى الأفق الأعلى . قاله عكرمة وغير واحد .

ثم قال ابن كثير : وقد قال ابن جرير^(٤) ههنا قولاً لم أره لغيره ، ولا حكاه هو عن أحد . وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى فاستوى ، أى هذا الشديد القوى وصاحبكم محمد ﷺ ، بالأفق الأعلى ، أى استويا جميعاً بالأفق الأعلى ، وذلك ليلة الإسراء - كذا قال - ولم يوافقه أحد على ذلك . ثم شرع يوجه ما قاله من حيث العربية فقال : وهو كقوله^(٢) (أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا

(١) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٢٧ / النمل / ٦٧] .

وَأَبَاؤُنَا) فغطف بالآباء على السكتى (كُنَّا) من غير إظهار (نحن) فكذلك قوله (فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ) . قال : وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده :

أَلَمْ تَرَ أَنفَ النَّبْعِ يَصْلُبُ عُودُهُ وَلَا يَسْتَوِي وَالْخِرُوعُ الْمُتَقَصِّفُ

وهذا الذى قاله من جهة العربية متجه ، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك ، فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء ، بل قبلها ، ورسول الله ﷺ فى الأرض ، فهبط عليه جبريل عليه السلام ، وتدلّى إليه ، فاقترّب منه وهو على الصورة التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح . ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، يعنى ليلة الإسراء ، وكانت هذه الرؤية الأولى فى أوائل البعثة ، بعد ما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة ، فأوحى الله إليه صدر سورة (أُفْرَأُ) ثم فترة الوحي فترة ذهب النبىّ صلى الله عليه وسلم فيها مراراً ليردى من رؤوس الجبال ، فكلماهم بذلك ناداه جبريل من الهواء : يا محمد ! أنت رسول الله حقاً ، وأنا جبريل ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقر عينه . وكما طال عليه الأمر ، عاد لمثلها حتى تبدى له جبريل ، ورسول الله ﷺ بالأبطح فى صورته التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ، قد سدّت عظم خلقه الأفق ، فاقترّب منه ، وأوحى إليه عن الله عز وجل ما أمره به ، فعرف عند ذلك عظمة الملك الذى جاءه بالرسالة ، وجلالة قدره ، وعلو مكانته عند خالقه الذى بعثه إليه . انتهى .

أقول : قد وافق القاشانى ابن جرير فى تأويل الآية ، وعبارته :

(فَاسْتَوَىٰ) فاستقام على صورته الذاتية ، والنبىّ بالأفق الأعلى ، لأنه حين كَوَّنَ النبىّ

بالأفق المبين لا ينزل على صورته ، لاستحالة تشكّل الروح المجرد فى مقام القلب ، إلا بصورة تناسب الصور المتمثلة فى مقامه ، ولهذا كان يتمثل بصورة دحية السكبيّ ، وكان من أحسن الناس صورة ، وأحبهم إلى رسول الله ﷺ . إذ لو لم يتمثل بصورة يمكن انطباعها فى الصدر ، لم يفهم القلب كلامه ، ولم ير صورته . وأما صورته الحقيقية التى جبل عليها فلم تظهر للنبىّ ﷺ إلا مرتين : عند عروجه إلى الحضرة الأحدية ووصوله بمقام الروح فى الترقى ، وعند نزوله عنها ورجوعه إلى المقام الأول عند سدرة المنتهى فى التدلّى . انتهى .

وكذا المهايى وافقهما وعبارته :
(فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ) أى صاحبكم عند استواء نفسه ، صار (بِالْأَفُقِ الْأَعْلَى)
الروحانى . انتهى .

وكذا الفخر الرازى وعبارته :
المشهور أن (هو) ضمير جبريل ، وتقديره : استوى كما خلقه الله بالأفق الشرقى ،
فسد الشرق لمظلمته . والظاهر أن المراد محمد ﷺ . معناه : استوى بمكان ، وهو بالمكان
العالى رتبة ومنزلة فى رفعة القدر ، لا حقيقة فى الحصول فى المكان .

(فإن قيل : كيف يجوز هذا والله تعالى يقول ^(١) (وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفُقِ الْمُبِينِ) إشارة
إلى أنه رأى جبريل بالأفق المبين ؟ نقول : وفى ذلك الموضع أيضاً نقول كما قلنا ههنا ؛ أنه ﷺ
رأى جبريل وهو بالأفق المبين . يقول القائل : رأيت الهلال ، فيقال له : أين رأيته ؟ فيقول :
فوق السطح . أى : إن الرأى فوق السطح ، لا المرئى . و (المبين) هو الفارق ، من (أبان)
أى فرق . أى هو بالأفق الفارق بين درجة الإنسان ، ومنزلة الملك ، فإنه ﷺ انتهى ، وبلغ
الغاية ، وصار نبياً ، كما صار بعض الأنبياء نبياً يأتيه الوحي فى نومه ، وعلى هيأته ، وهو
واصل إلى الأفق الأعلى ، والأفق الفارق بين المنزلتين .

فإن قيل : ما بعده يدل على خلاف ما تذهب إليه ، فإن قوله (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) إلى غير
ذلك ، وقوله تعالى (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ) كل ذلك يدل على
خلاف ما ذكرته ؟ نقول : سنبين موافقته لما ذكرنا إن شاء الله تعالى فى مواضعه ، عند ذكر
تفسيره .

فإن قيل : الأحاديث تدل على خلاف ما ذكرته ، حيث ورد فى الأخبار أن جبريل
عليه السلام أرى النبي ﷺ نفسه على صورته ، فسد الشرق . فنقول : نحن ما قلنا إنه لم يكن

(١) [٨١ / التكوير / ٢٣] .

وليس في الحديث أن الله تعالى أراد بهذه الآية تلك الحكاية ، حتى يلزم مخالفة الحديث ، وإنما نقول إن جبريل أرى النبي ﷺ نفسه مرتين ، وبسط جناحيه ، وقد ستر الجانب الشرقى وسدّه ، ولكن الآية لم ترد لبيان ذلك . انتهى كلام الرازي .

وفي القرطبيّ حكاية أقوال آخر ، وعبارته :

(فَاسْتَوَى) أى ارتفع جبريل ، وعلا إلى مكانه في السماء ، بعد أن علم محمداً ﷺ

- قاله سعيد بن المسيّب وابن جبير - .

وقيل : (فَاسْتَوَى) أى قام وظهر في صورته التي خُلق عليها .

وقول ثالث : أن معنى (فَاسْتَوَى) أى استوى القرآن في صدره . وفيه على هذا وجهان :

أحدهما - في صدر جبريل حين نزل به عليه السلام .

الثاني - في صدر محمد ﷺ حين نزل عليه .

وقول رابع : أن معنى (فَاسْتَوَى) فاعتدل . يعنى محمداً في قوّته ، والثاني في رسالته

- ذكره الماوردي - .

وعلى الأول يكون تمام الكلام (ذُو مِرَّةٍ) ، وعلى الثاني (شَدِيدُ الْقُوَى) .

وقول خامس : أن معناه فارتفع ، وفيه على هذا وجهان :

أحدهما - أنه جبريل ارتفع إلى مكانه ، على ما ذكرناه آنفاً .

الثاني - أنه النبي ﷺ ارتفع بالمعراج .

وقول سادس : (فَاسْتَوَى) يعنى الله عز وجل . أى استوى على العرش - على قول

الحسين - انتهى .

هذا ما وقفنا عليه الآن من الأقوال في الآية ، وسيأتى في أول التنبيهات إيضاح

ما اخترناه منها ، وإنما أخرجنا ذكره لارتباطه بالآيات الآتية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى)

[٩] (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى)

« ثُمَّ دَنَا » أى ثم بعد استوائه ، اقترب جبريل من محمد ﷺ « فَتَدَلَّى » أى إليه . قال ابن جرير^(١) : هذا من المؤخر الذى معناه التقسيم ، وإنما هو ثم تدلى فدنا ، ولكنه حسن تقديم قوله (دَنَا) إذ كان الدنو يدل على التدلى ، والتدلى على الدنو . كما يقال : زارنى فلان فأحسن ، وأحسن إلى فرارنى .

وقال الشهاب : التدلى مجاز عن التعلق بالنبي بعد الدنو منه ، لا بمعنى التزل من علو ، كما هو المشهور . أو هو دنو خاص بحالة التعلق ، فلا قلب ولا تأويل بـ (أراد الدنو) - كما فى الإيضاح - .

« فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » أى كأن مسافة ما بينهما مقدار قوسين . أى بقدرهما إذا مُدَّا أو أقرب . أو الضمير لجبريل . أى كأن قربه قدر ذلك .

قال الشهاب : وقاب القوس وقيبه : ما بين الوتر ومقبضه . والمراد به المقدار ، فإنه يقدر بالقوس ، كالذراع .

وقد قيل : إنه مقلوب ، أى قابى قوس ، ولا حاجة إليه . فإن هذا إشارة إلى ما كانت العرب فى الجاهلية تفعله . إذا تحالفوا أخرجوا قوسين . ويلصقون إحداها بالأخرى ، فيكون القاب ملاصقاً للآخر ، حتى كأنهما ذوا قاب واحد ، ثم يترعانهما معاً ويرميان بهما سهماً واحداً ، فيكون ذلك إشارة إلى أن رضا أحدهما رضا الآخر ، وسخطه سخطه ، لا يمكن خلافه - كذا قال مجاهد ، وارتضاء عامة المفسرين - انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال السمين : وقوله تعالى (أَوْ أَدْنَى) كقوله ^(١) : (أَوْ يَزِيدُونَ) لأن المعنى : فكان بأحد هذين المقدارين في رأى الرأى . أى لتقارب ما بينهما ، يشك الرأى في ذلك . فهو تمثيل لشدة القرب ، وتحقيق استماعه لما أوحى إليه بأنه في رأى العين ، ورأى الواقف عليه ، كما مر في (أَوْ يَزِيدُونَ) فإن المعنى : إذا رآهم الرأى يقول هم مائة ألف أو يزيدون . وقيل : (أَوْ) بمعنى (بَلْ) أى بل أدنى .
و (أَدْنَى) أفعل تفضيل ، والمفضل عليه محذوف . أى : أو أدنى من قاب قوسين .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ)

« فَأَوْحَىٰ » أى جبريل « إِلَىٰ عَبْدِهِ » أى عبد الله تعالى ، وهو النبي ﷺ . وإنما أخصر اسمه تعالى لعدم اللبس ، وغاية ظهوره . أو : فأوحى الله عز وجل بواسطة جبريل الذى تدلى إليه « مَآ أَوْحَىٰ » أى مما أمره به . وفيه تفخيم للموحى به ، إذ الإلهام يفيد التعظيم ، كأنه أعظم من أن يحيط به بيان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ)

« مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ » أى ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رآه من الملك الذى جاءه بالوحي من ربه . يعنى : أنه رآه بعينه ، وتيقنه بقلبه ، ولم يشك في أن ما رآه حق وصدق . وقرئ (ما كَذَّب) بالتشديد . أى صدقه ولم يشك أنه ملك ربانى ، لا خيال شيطانى ، كما قال ^(٢) (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ) . وقد ذكر ابن كثير أن هذه الرؤية في أوائل البعثة ، كما تقدم النقل عنه .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٤٧] . (٢) [٨١ / التكوثر / ٢٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (أَفْتُمِرُّوهُوَ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ)

« أَفْتُمِرُّوهُوَ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ » أى أفتجادلونه وتلاحونه على ما يراه معاينة من رؤية الملك المنزل عليه .

قال القاشانى : أى أفتخاصموناه على شىء لا تفهمونه ولا يمكنكم معرفته وتصوره ، فكيف يمكنكم إقامة الحجة عليه ؟ وإنما المحاصمة حيث يمكن تصور الأمر المختلف فيه ، ثم الاحتجاج عليه بالنفى والإثبات ، فحيث لا تصور ، فلا محاصمة حقيقة . انتهى . وذلك لأن رؤية الملك وتنزله حالة خاصة بالنبي ﷺ وإخوانه الأنبياء عليهم السلام ، لا يمكن لغيرهم اكتناهاها ، وإنما عليهم الإيمان بها ، والإذعان لها ، لقيام الدليل عليها . وبالجملة ، فالمراد أنه لا يصح المجادلة فى المرئى ، لأنه لا يجوز الجدل فى المحسوسات ، لاسيما إذا تعددت المشاهدة لها كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ)

[١٤] (عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ)

[١٥] (عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ)

[١٦] (إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ)

[١٧] (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ)

[١٨] (لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ)

« وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ » أى مرة أخرى من النزول ، وتأکید الخبر عن الرؤية

الثانية هذه ، لنفى الريبة والشك عنها أيضاً ، وأنه لم يكن فيها القباس واشتباه .
«عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى» أى موضع الانتهاء ، أو الانتهاء . (المنتهى) : اسم مكان ، أو مصدر ميمي . وقد جاء فى الصحيح^(١) أنها شجرة نبق فى السماء السابعة ، إليها ينتهى ما يرج به من أمر الله من الأرض ، فيقبض منها . وما يهبط به من فوقها ، فيقبض منها .

قال القاضى : ولعلها شبت بالسدر ، وهى شجرة النبق ، لأنهم يجتمعون فى ظلها .
يعنى أن شجر النبق يجتمع الناس فى ظله ، وهذه يجتمع عندها الملائكة ، فشبت بها ، وسميت (سدر) لذلك . فإطلاقها عليها بطريق الاستعارة . سكن ورد فى الحديث^(٢) أن كل نبقة فيها كقلة من قلال هجر ، فهى على هذا حقيقة ، وهو الأظهر - قاله الشهاب - .

«عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى» أى التى يأوى إليها أرواح المقرّبين . «إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى» قال القاشانى : أى من جلال الله وعظمته . معناه أنه رأى جبريل عليه السلام عند سدر المنتهى حينما كانت الأرواح والملائكة تغشاها ، وتهبط عليها ، وتحف من حولها .
«مَا زَاغَ الْبَصَرُ» أى ما مال بصر رسول الله ﷺ عما رآه . «وَمَا طَفَى» أى ما تجاوز مرئيه المقصود له ، بل اثبت ما رآه إثباتاً مستيقناً صحيحاً لا شبهة فيه . وفيه وصف لأدبه ﷺ وتمكّنه ، إذ لم يتجاوز ما أمر برؤيته . «لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى»
يعنى الملك الذى عاينه وأخبره برسائله . وفيه غاية التفخيم لمقامه ، وأنه من الآيات الكبرى .
قال الفاصر : ويحتمل أن تكون (الْكُبْرَى) صفة لآيات ، ويكون المرئى محذوفاً لتفخيم الأمر وتعظيمه ، كأنه قال : لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى أموراً عظيماً لا يحيط بها الوصف . والحذف فى مثل هذا أبلغ وأهول .

(١) أخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٧٩ (طبعة تفتا) .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار ، ٤٢ - باب المعراج ، حديث

١٥١٣ ، عن مالك بن صعصعة .

تنبيهات :

الأول - قدمنا في تفسير قوله تعالى (فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ) ما قاله المفسرون من الأقوال العديدة . ولا يخفى ما في بعضها من التكلف والتعسف ، كتوجيه ابن جرير والرازي ومن وافقهما ، وبعض أقوال حكاهما القرطبي . والأقرب في معنى الآية ما ذكره الإمام ابن كثير ، كما نقلناه عنه ، لكثرة الأحاديث الواردة فيما يفسرها بذلك . ونحن نقول في تأييده إن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، لتشابه آياته الكريمة وتماثلها . والآية هذه مشابهة لما في سورة التكويد تمام المشابهة ، فقد قال تعالى ^(١) : (إِنَّهُ وَلَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) فتري هذه الآيات مشابهة للآيات هنا ، وإن كان فيما هنا زيادة رؤية ، وبيان دنو واقتراب لم يذكر في (التكويد) . وسر الزيادة هو ارتقاء النبي ﷺ في معارج السموات وقتاً فوقتاً . وسورة النجم مما نزل بعد التكويد ، كما حكاه في (الإتقان) عن ابن عباس وغير واحد من السلف ، فلذلك كان في (النجم) زيادة هذا التكرير والتفضيل . وحاصل المعنى : أن ما ينطق به من هذا القرآن ليس عن هواه ، وإنما هو وحى علمه إياه ملك كريم ، جم المناقب ، لأنه شديد القوى ، ذو مرة ، رفيع المكانة بالأفق الأعلى . ثم لما شاء تعالى إزال وحيه على نبيه تنزل من الأفق ، ودنا إليه ، وكان في غاية القرب منه ، والتمسكن من رؤيته ، وتلقى الوحي عنه . وذلك كله حق وصدق لا مزية فيه . وكيف يمارى من يرى ببصره ما يصدق فؤاده فيه ولا يكذبه ، لاسيما ولم تسكن رؤياه له مرة واحدة ، بل رآه نزلة ثانية ، نزل إليه بالوحى في مكان معين لا يشبهه على رائييه ، وهو سدره المنتهى . وبالجملة ، فتوافق هذه الآيات لآيات (التكويد) وتفسير بعضها بعضاً ، أمر لا خفاء به عند المتدبر ، وكاه رد على المشركين المفتريين ، وإقسام على حقيقة الوحي والتنزيل ، وصدق ما يخبر به ، لاسيما وهو صادق عندهم لا يكذبونه . فما بقى بعد التعنت

(١) [٨١ / التكويد / ١٩-٢٣] .

والجحد إلا انتظار سنة الله في أمثالهم من الأمم الكافرة الجاحدة ، كما أشار له في آخر السورة .
هذا ملخص معنى الآيات ، وما عدها فتوسع وحمل اللفظ على ما تجوزة مادته . وكل ما يتسع له اللفظ هو المراد - والله الموفق - .

الثاني - ما قدمناه من رجوع الضمائر في قوله تعالى (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) الخ إلى جبريل عليه السلام ، هو الذى عوّل عليه عامة المفسرين ، وقد أيدناه بما رأيت .

قال الإمام ابن تيمية : الدنو والتدلى في سورة النجم هو دنو جبريل وتدليّه - كما قالت عائشة وابن مسعود - والسياق يدل عليه ، فإنه قال (عَلَّمَهُو شَدِيدُ الْقُوَى) وهو جبريل ، (ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى) . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوى ، وهو ذو المرة أى القوة ، وهو الذى استوى بالأفق الأعلى ، وهو الذى دنا فتدلى ، فكان من محمد ﷺ قدر قوسين أو أدنى ، وهو الذى رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، رآه على صورته مرتين ، مرة فى الأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى . انتهى .
وروى البخارى ^(١) فى هذه الآيات عن ابن مسعود قال : رأى جبريل له ستمائة جناح .
وروى الترمذى ^(٢) عن عائشة رضى الله عنها أنه ﷺ رأى جبريل ، ولم يره فى صورته إلا مرتين ، مرة عند سدرة المنتهى ، ومرة فى جياذ - مكان بمكة - له ستمائة جناح ، قد سدّ الأفق .

وأما ما وقع فى حديث شريك فى البخارى ^(٣) من قوله (ودنا الجبار رب العزة فتدلى ،

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة النجم ، ١ - حدثنا

بجي بن وكيع ، حديث رقم ١٥٢٦ .

(٢) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة النجم ، ٣ - حدثنا

ابن أبى عمر .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٣٧ - باب قوله وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى

تَكْلِيمًا ، حديث رقم ١٦٨٤ ، عن أنس بن مالك .

حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى) ، فإن لم يكن ذلك من زيادة شريك ، على ما ذهب إليه الإمام مسلم وغيره ، فهو دنوٌ وتدلّ غير ما في سورة النجم ، تؤمن به . ونقوض كيفيته إليه تعالى ، كسائر أخبار الصفات .

قال ابن كثير : قد تسكّم كثير من الناس في رواية شريك ، فإن صح فهو محمول على وقت آخر ، وقصة أخرى ، لا أنها تفسير لهذه الآية ، فإن هذه كانت ورسول الله ﷺ في الأرض ، لا ليلة الإسراء . ولهذا قال بعده (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى) ، فهذه هي ليلة الإسراء ، والأولى كانت في الأرض . انتهى .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : وقع في حديث شريك في الإسراء زيادة على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى الله عز وجل . وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤية جبريل ، أصح .

قال العماد بن كثير : وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة ، هو الحق ، فإن أبا ذرّ قال : يارسول الله ! رأيت ربك ؟ قال : نورٌ أنى أراه . وفي رواية : رأيت نوراً - أخرجه مسلم ^(١) .

وقوله (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) إنما هو جبريل عليه السلام ، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن عائشة ^(٢) وعن ابن مسعود ^(٣) . وكذلك هو في صحيح مسلم ^(٤) عن أبي هريرة ، ولا يعرف لهم

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩١ و ٢٩٢ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة النجم ، ١ - حدثنا

يحيى حدثنا وكيع ، حديث رقم ١٥٢٨ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٧ (طبعنا) .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة النجم ، ١ - حدثنا

يحيى حدثنا وكيع ، حديث رقم ١٥٢٦ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٠ (طبعنا) .

(٤) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٨٣ (طبعنا) .

مخالف من الصحابة في تفسير هذه بهذا . انتهى .

وقال شمس الدين بن القسيم في (زاد المعاد) : اختلف الصحابة أن رسول الله ﷺ هل رأى ربه تلك الليلة أم لا ؟ فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه ، وصح عنه أنه قال : رآه بفؤاده ، وصح عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك ، وقال : إن قوله تعالى (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى) إنما هو جبريل . وصح عن أبي ذر أنه سأله : هل رأيت ربك ؟ قال : نوراً أنى أراه . أى حال بينى وبين رؤيته النور ، كما في لفظ آخر : رأيت نوراً .

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على أنه لم يره .

قال الإمام ابن تيمية : وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضاً لهذا ، ولا قوله رآه بفؤاده . وقد صح عنه أنه قال : رأيت ربي تبارك وتعالى ، لكن لم يكن هذا في الإسراء ، ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح ، ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه . وعلى هذا بنى الإمام أحمد وقال : نعم رآه حقاً ، فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد . وأما قول ابن عباس : رآه بفؤاده مرتين . فإن كان استناده إلى قوله تعالى (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) ثم قال : (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى) والظاهر أنه مستفده ، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئي جبريل ، رآه مرتين في صورته التي خلق عليها . انتهى .

وقال ابن كثير : أما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : رأيت ربي عز وجل ، فإنه حديث إسناده على شرط الصحيح ، لكنه مختصر من حديث المنام ، كما رواه الإمام أحمد^(١) أيضاً عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ قال : أنا نرى ربي الليلة في أحسن صورة (أحسبه ، يعني في النوم) فقال : يا محمد ! أتدرى فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٦٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٣٤٨٤ (طبعة المعارف) .

قال قلت : لا . فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي (أو قال نحري) فعملت ما في السموات وما في الأرض . ثم قال : يا محمد ! هل تدري فيم يختصم الملائ الأعلى ؟ قال قلت : نعم ! يختصمون في الكفارات والدرجات . قال : وما الكفارات ؟ قال قلت : المسكت في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإبلاغ الضوء في المكاره ! من فعل ذلك عاش بخير ، ومات بخير . وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه . وقال : قل يا محمد إذا صليت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة ، أن تقبضني إليك غير مفنون .

قال : والدرجات بذل الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام . ثم قال ابن كثير : وقوله تعالى ^(١) (لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) كقوله ^(٢) (لِنُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى) أى الدالة على قدرتنا وعظمتنا ، وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة ، أن الرؤية تلك الليلة لم تقع . لأنه قال (لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ، ولقال ذلك للناس . انتهى .

الثالث - ذهب بعضهم إلى أن هذه السورة أنزلت لإثبات المعراج النبوي ، أعنى : عروجه ﷺ ، وصعوده وارتقائه إلى ما فوق السموات السبع ، كما ذكر في أحاديث المعراج من سدره المفتحى فوق السموات ، ومشاهدة جبريل على صورته .

قال القليوبي : لما كان الإسراء مقدماً في الوجود على المعراج ، لأنه كالوسيلة والبرهان ، إذ يلزم من التصديق بخوارق العادة فيه ، التصديق بالمعراج وما فيه . وكان ما في المعراج من الخوارق أعظم وأكثر ، صدره تعالى بالقسم الدال على تأكيد ثبوته ، والرد على منكريه والطاعنين فيه ، واستطرد مع ذلك الرد على من نسب إليه ﷺ ما لا يجوز عليه ، فقال « وَالنَّجْمِ ... » الخ انتهى .

(١) [٥٣ / النجم / ١٨] . (٢) [٢٠ / طه / ٢٣] .

ومما قدمنا يظهر أن نزول السورة لتأييد الرسالة النبوية، وتحقيق الوحي، بأنه تعليم ملك كريم، مرئي للحضرة النبوية رؤية تدفع كل لبس، لا لإثبات المعراج.

ثم من الغرائب أيضاً هنا، قول بعضهم محاولاً سرّ إفراء الإسراء عن المعراج، وذكر كلّ في سورة، ما مثاله: إن الإسراء أنزل أولاً وحده، حملاً للمشرّكين على تسليم ما وضع صدقه ﷺ فيه، توصلاً للتصديق بما وراءه فإنه ﷺ أرشد أن يخبر المشرّكين أولاً بالإسراء إلى المسجد الأقصى، لأن قريشاً تعرفه، فيسألونه عنه، فيخبرهم بما يعرفون، مع علمهم بأنه ﷺ لم يدخل بيت المقدس قط، فتقوم الحجة عليهم. وكذلك وقع، كما ذكر في الروايات. وعلى أثر هذا الإخبار أنزل بيان الإسراء، ثم ألهم ﷺ أن يخبرهم بالمعراج إلى ملكوت السموات، ورؤية جبريل عليه السلام، وأنزل الله تصديقه في سورة النجم. انتهى. فكل هذا مما لا سفل له، نعم! روى البيهقي وابن أبي حاتم وابن جرير في حديث مطول؛ أنه ﷺ أصبح بمكة يخبرهم بالأعاجيب. إني أتيت البارحة بيت المقدس، وعرج بي إلى السماء ورأيت كذا وكذا. إلا أن يقال ليس هذا من مرويات الصحيحين، ولا حجة في الأخبار إلا مرويهما. وبالجملة، فالمعول عليه هو أن المعراج لم يرد له ذكر في القرآن مطلقاً، وما ورد في هذه السورة وسورة التكويد، فلا علاقة له بالمعراج، وإنما هي رؤية النبي صلوات الله عليه لجبريل من الأرض على صورته الحقيقية كما تقدم. وأما المعراج فإنما كان رؤيا منامية روحانية.

لصريح حديث البخاري في ذلك من طرق التي عن أنس ومالك بن أبي صعصعة. قال بعضهم ولذلك لم يذكر في حديث المعراج، بحسب رواية البخاري التي هي أصح الروايات بالإجماع، أن النبي ﷺ سار أولاً إلى بيت المقدس، بل المذكور فيه أنه سار مباشرة من مكة إلى السماء الأولى، وكذلك لم يذكر فيه أن جبريل فارقه، ثم ظهر له عند سدرة المنتهى بصورته الحقيقية، بل المذكور أنه كان مصاحباً له من أول المعراج إلى آخره على صورة واحدة، وذلك يدل على أن ما ذكر في القرآن مما وقع يقظة، هو غير ما ذكر في الحديث، مما وقع مناماً في وقت آخر،

والأندكرا معا في سياق واحد ، إما في القرآن ، وإما في أصح الأحاديث ، وهو الأمر الذي لم يحصل إلا في بعض روايات لا يعول عليها ، وهي من خلط بعض الرواة الحوادث بعضها ببعض . انتهى - والله أعلم .

ثم قال تعالى مفكراً على المشركين عبادتهم الأوثان ، واتخاذهم لها البيوت ، مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن لعبادة تعالى وحده ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ)

[٢٠] (وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَىٰ)

« أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ » قال ابن كثير : هي صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش .

قال ابن جرير^(١) : وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله ، فقالوا (اللَّات) يعنون مؤنثة من لفظه تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، كما قالوا : عمرو وعمرة .

وقال الزمخشري : هي فعلة من (لوى) لأنهم كانوا يلوون عليها ، ويعكفون للعبادة ، أو يلتوون عليها ، أى يطوفون .

وحكى عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرأوا (اللات) بتشديد التاء ، وفسروه بأنه كان رجلاً يلت للحجيج في الجاهلية السويق ، فلما مات عكفوا على قبره وعبدوه . « وَالْعُزَّىٰ » وهي شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، وهي بين مكة والطائف .

قال ابن جرير : اشتقوا اسمها من اسمه تعالى (العزيز) وقال الزمخشري : أصلها تأنيث الأعز .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَى » وهى صخرة كانت بالمشلل عند قديد ، بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتها يعظمونها ، ويهلون منها للحج إلى الكعبة .
روى البخارى عن عائشة نحوه .

قال ابن جرير^(١) : وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول : اللات والعزى ومناة الثالثة ، أصنام من حجارة كانت فى جوف الكعبة يعبدونها . انتهى .

تنبيهات :

الأول - قال القاضى : (مناة) فعلة ، من مناه إذا قطعه . فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين . ومنه سميت (منى) لأنه يعنى فيها القرابين ، أى ينحدر .
وقال الزمخشري : وكانت اسميت (مناة) لأن دماء المناسك كانت تمنى عندها ، أى تراق .
وقرى (مناة) مفعلة من (النوء) ، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها .
فإن قيل : كونها ثالثة وأخرى مغايرة لما تقدمها ، معلوم غير محتاج للبيان .
وأجيب : بأنهما صفتان للتأكيد ، أو (الثَّالِثَةِ) للتأكيد ، و (الْآخَرَى) بيان لها ، لأنها مؤخرة رتبة عندهم ، عن اللات والعزى .

قال الناصر : (الْآخَرَى) ما ثبتت آخرًا ، ولا شك أنه فى الأصل مشتق من التأخير الوجودى ، إلا أن العرب عدلت به عن الاستعمال فى التأخير الوجودى ، إلى الاستعمال ، حيث يتقدم ذكر مغاير لا غير حتى سلبته دلالة على المعنى الأصلى ، بخلاف (آخر) و (آخرة) ، على وزن فاعل وفاعلة ، فإن إشعارها بالتأخير الوجودى ، ثابت لم يغير ، ومن ثم عدلوا عن أن يقولوا ربيع الآخر ، على وزن الأفعل ، وجمادى الأخرى ، إلى ربيع الآخر على وزن فاعل ، وجمادى الآخرة على وزن فاعلة ، لأنهم أرادوا أن يفهموا التأخير الوجودى ، لأن (الأفعل) و (الفعل) من هذا الاشتقاق مسلوب الدلالة على غرضهم ، فعدلوا عنها إلى الآخر

(١) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

والآخرة والتزموا ذلك فيهما. وهذا البحث مما كان الشيخ أبو عمرو بن الحاحب رحمه الله تعالى قد حرره آخر مدته ، وهو الحق إن شاء الله تعالى ، وحينئذ يكون المراد الإشعار بتقديم ما في الذكرك مع ما نعتده في الوفاء بفاصلة رأس الآية . انتهى .

الثاني - قال ابن كثير : كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخرت عظمها العرب كعظيم الكعبة ، غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز . وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها .

قال ابن إسحاق في السيرة : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها كعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ، ويهدى لها كما يهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنجر عندها ، وهي تعرف فضل الكعبة عليها ، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده . فكافت لقريش ولبنى كنانة (العُزَي) بنخلة ، وكانت سدنتها وحجابها بنى شيبان من سليم حلفاء بنى هاشم . وبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول :

يَا عَزَّ كُفْرَانُكَ لَا سُبْحَانَكَ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ

روى النسائي عن أبي الطفيل قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة ، وكانت بها العزى ، فأتاها خالد ، وكانت على ثلاث سمرة ، فقطع السمرة ، وهدم البيت الذي كان عليها ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال : ارجع ، فإنك لم تصنع شيئاً . فرجع خالد ، فلما أبصر السدنة وهم حجبها ، أمعنوا في الحيل وهم يقولون : يا عَزَّى ! يا عَزَّى ! فأتاها خالد ، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها . تحفن التراب على رأسها ، فغمسها بالسيف حتى قتلها . ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال : تلك العزى !

قال ابن إسحاق : وكانت اللات لثقيف بالطائف ، وكان سدنتها وحجابها بنى معتب . وقد بعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبه وأبا سفيان صخر بن حرب فهدماها ، وجعلها مكانها مسجداً بالطائف .

قال ابن إسحاق : وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر ، من ناحية المشلل بقديد ، فبعث رسول الله ﷺ إليها أبا سفيان ، صخر ابن حرب فهدمها . ويقال : علي بن أبي طالب . انتهى .

الثالث - قال ابن جرير^(١) : اختلف أهل العربية في وجه الوقف على (اللات) و(منات) فكان بعض نحوِّي البصرة يقول : إذا سكّ قلت اللات ، وكذلك مناة ، تقول منات . وقال : قال بعضهم : اللات ، فجعله من اللت الذي يلت . وأمة العرب يسكتون على ما فيه الهاء بالتاء ، يقولون : رأيت طلحت . وكل شيء مكتوب بالهاء فإنها تقف عليه بالتاء ، نحو نعمة ربك ، وشجرة . وكان بعض نحوِّي السكوفة يقف على (اللات) بالهاء . وكان غيره منهم يقول : الاختيار في كل مالم يضاف ، أن يكون بالهاء^(٢) (رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي)^(٣) (وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ) . وما كان مضافاً فجاز بالهاء والتاء ، فالتاء للإضافة ، والهاء لأنه يفرد ويوقف عليه دون الثاني ، وهذا القول الثالث أفشى اللغات وأكثرها في العرب ، وإن كان للأخرى وجه معروف . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أَلَكُمُ اللَّهُ كُرُوءَ لَهُ الْأُنثَىٰ)

[٢٢] (تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ)

« أَلَكُمُ اللَّهُ كُرُوءَ لَهُ الْأُنثَىٰ » قال الزمخشري : كانوا يقولون : إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله ، وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى ، مع وأدهم البنات ، ف قيل لهم : (أَلَكُمُ اللَّهُ كُرُوءَ لَهُ الْأُنثَىٰ) ؟ ويجوز أن يراد أن اللات والعزى ومنات إناث ،

(١) انظر الصفحة رقم ٥٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [١٨ / الكهف / ٩٨] . (٣) [٢٣ / المؤمنون / ٢٠] .

وقد جعلتموهن لله شركاء ، ومن شأنكم أن تحترقوا الإناث ، وتستنكفوا من أن يولدن لكم ، وينسبن إليكم ، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أنداداً لله ، وتسمونهن آلهة ؟ انتهى .
لطفية :

قال الشهاب : قد مرّ مراراً الكلام في (أَرَأَيْتَ) وأنها بمعنى (أخبرني) وفي كيفية دلالتها على ذلك ، واختلاف النحاة في فعل الرؤية فيه ، هل هو بصرى ؟ فتكون الجملة الاستفهامية بعدها مستأنفة لبيان المستخبر عنه . وهو الذي اختاره الرضى . أو علمية ، فنكون في محل المفعول الثانى ، فالرابط حينئذ أنها في تأويل : أهي بقات الله ؟
قال السمين : وكان أصل التركيب : ألكم الذكر ، وله هن ، أى : تلك الأصنام . وإنما أوتر هذا الاسم الظاهر لوقوعه رأس فاصلة .

وقوله تعالى « تِلْكَ » إشارة إلى القسمة المفهومة من الجملة الاستفهامية « إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى » أى جائزة ، غير مستوية ، ناقصة غير تامة ، لأنكم جعلتم لربكم من الولد والندّ ماتكرهون لأنفسكم ، وآثرتم أنفسكم بما ترضونه .
قال ابن جرير^(١) : والعرب تقول (ضِيزْتُهُ حَقَّهُ) بكسر الضاد ، و (ضُرْتُهُ) بضمها ، فأنا أضيزه وأضوزه ، وذلك إذا نقصته حقه ومنعته .

تنبيه :

قال السمين : قرأ ابن كثير (ضِيزَى) بهمزة ساكنة ، والباقون بياء مكائها . وقرأ زيد بن على (ضِيزَى) بفتح الضاد والياء الساكنة . فأما قراءة العامة فتحتمل أن تكون من (ضازة يضيزه) إذا ضامه وجار عليه ، فعنى (ضيزى) جائزة . وعلى هذا فتحتمل وجهين : أحدهما - أن تكون صفة على (فُعِلَ) بضم الفاء ، وإنما كسرت الفاء لتصحح الياء .
كبيض .

(١) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

فإن قيل : وأى ضرورة إلى أن يقدر أصلها ضم الفاء ، ولم لا قيل (فعلى) بالكسر ؟ .
 فالجواب : أن سيبويه حكى أنه لم يرد في الصفات (فعلى) بكسر الفاء ، وإنما ورد
 بضمها ، نحو جبل وأنثى ورُبِّي وما أشبهه ، إلا أن غيره حكى في الصفات ذلك . حكى ثعلب :
 مشية حيكي ، ورجل كيكي ، وحكى غيره : امرأة عزهى وامرأة سملى ، وهذا لا ينفقض على
 سيبويه لأنه يقول في (حيكي وكيكي) كقوله في (ضيزى) لتصح الياء . وأما عزهى وسملى
 فالشهور فيهما عزهاة وسملاة .

والوجه الثانى - أن تكون مصدراً كذا كرى . قال الكسائى : يقال ضاز يضيز ضيزى ،
 كذا كرى يذكر ذكر كرى . ويحتمل أن يكون من (ضأزه) بالهمز كقراءة ابن كثير ، إلا أنه
 خفف همزها ، وإن لم يكن من أصول القراء كلهم إبدال مثل هذه الهمزة ياء ، لكنها لغة
 التزمت ، فقرأوا بها . ومعنى ضأزه يضأزه بالهمزة ، نقصه ظلماً وجوراً ، وهو قريب من
 الأول . و (ضيزى) في قراءة ابن كثير مصدر وصف به ، ولا يكون وصفاً أصلياً ، لما
 تقدم عن سيبويه .

فإن قيل : لم لا قيل في (ضئزى) بالكسر والهمز ، أن أصله ضيزى بالضم فكسرت
 الفاء ، لما قيل فيها مع الياء ؟ .

فالجواب : أنه لا موجب هنا للتغيير ، إذ انضم مع الهمز لا يستثقل استثقاله مع الياء
 الساكنة وسمع منهم (ضؤزى) بضم الضاد مع الواو والهمزة .
 وأما قراءة زيد فيحتمل أن تكون مصدراً وصف به ، كدعوى ، وأن تكون صفة
 كسكرى وعطشى . انتهى .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مِمَّا أُنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى)

« إِنْ هِيَ » أى الأَصْنَامُ المذكورة باعتبار الألوهية التى يدعونها لها « إِلَّا أَسْمَاءٌ » أى محضة ليس تحتها مما تنبئ هى عنه من معنى الألوهية ، شىء ما أصلاً . أى ليس لها نصيب منها إلا إطلاق تلك الأسماء عليها .

قال الشهاب : والمراد لانصيب لها أصلاً ، ولا وجه لتسميتها بذلك ، ولو كانت الألوهية متحققة بمجرد التسمية كانت آلهة ، فهو من نفى الشىء بإثباته ، أو هو ادعاء محض لا طائل تحته . « سَمَّيْتُمُوهَا » أى جعلتموها أسماء مع خلوها عن السميات « أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ » أى بمقتضى أهوائكم ، وتقليد التابع للمتبع « مِمَّا أُنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ » أى برهان يتعلق به « إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ » أى إلا توهم أن ما هم عليه حق « وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ » أى تشهيه أنفسهم .

قال ابن جرير (١) : لأنهم لم يأخذوا ذلك عن وحى جاءهم من الله ، ولا عن رسول من الله أخبرهم به ، وإنما هو اختلاق من قبل أنفسهم ، أو أخذوه عن آبائهم الذين كانوا من الكفر بالله على مثل ما هم عليه منه « وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى » أى الدليل الواضح ، والبيان بالوحى ؛ أن عبادتها لا تنبغى وأنه لا تصالح العبادة إلا له تعالى وحده .

قال أبو السعود : والجملة حال من فاعل (يَتَّبِعُونَ) أو اعتراض . وأياً ما كان ، ففيه تأكيد لبطلان اتباع الظن ، وهوى النفس ، وزيادة تقبيح لحالهم ، فإن اتباعهما من أى شخص كان ، قبيح . ومن هداه الله تعالى بإرسال الرسول ﷺ وإنزال الكتب ، أقبح .

(١) انظر الصفحتين رقم ٦١ و٦٢ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

تنبيه :

قال السيوطي في (الإكليل) : استدل بقوله (إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ . . .) الخ على أن اللغات توقيفية . ووجهه أنه تعالى ذمهم على تسمية بعض الأشياء بما سموها به ، ولولا أن تسمية غيرها من الله توقيف ، لما صح هذا الذم ، لكون السكل اصطلاحاً منهم .
واستدل بقوله تعالى (إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ . . .) الخ على إبطال التقليد في العقائد .
واستدل به الظاهرية على إبطاله مطلقاً ، أو إبطال القياس .
أخرج ابن أبي حاتم عن عمر قال : احذروا هذا الرأي على الدين ، فإنما كان الرأي من رسول الله ﷺ مصيباً لأن الله كان يريه ، وإنما هو منا تكلف وظن ، وإن الظن لا يعنى من الحق شيئاً . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى)

« أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » أى ليس له ما يشتهي من الأمور التي منها طمعه الفارغ في شفاعة الأنداد ، وتمنّته في دفاع اليقين بالظن ، وتركه نفسه وهواها بلا شرع يقيده ، ولا مهيمين يزعه . فإن ذلك من المحالات في نظر العقل السليم ، كقوله ^(١) (لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى)

« فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى » أى فخير الأمر فيهما له تعالى ، لا للإنسان حسب ما تسول له نفسه الأماراة بالسوء ، كما قال ^(٢) (وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ

(١) [٤ / النساء / ١٢٣] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٧١]

وَالْأَرْضُ . . .) الخ ، ولذا أرسل له الرسل ، وإنزل الكتب ، قطعاً للمعاذير . ونبهه بالعقل على سبيل السعادة التي لا تخفى على بصير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى)

« وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى » هذا توبيخ من الله تعالى لعبدة الأوثان ، بإقناطهم عما علقوا به أطعاهم من شفاعاة أوثانهم ، بأن ملائكته السكرام لا يتفوهون بالشفاعة إلا من بعد إذنه ورضاه . فأثني لهذه الطواغيت أن تفتات على هذا المقام ، ولها من الذلة والصفار ما يبعدها عنه بألف منزل .

ثم أشار إلى طغيان آخر للمشركين ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى)

« إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى » أي تسمية الإناث ، وذلك أنهم كانوا يقولون : هم بنات الله . فالأنثى بمعنى الإناث ، لأنهم اسم جنس يتناول الكثير والقليل . وقيل : بمعنى الطائفة الأنثى . وقيل : منصوب بنزع الخافض على التشبيه ، فلا تمس الحاجة إلى الجمعية . وقيل : أفرد لرعاية الفاصلة . وقيل : الملائكة في معنى استغراق المفرد ، أي ليسمون كل واحد منهم بفتاً ، وهي تسمية الأنثى ، على وزان (كسانا الأميرحلة) أي كسا كل واحد منا حلة ، والإفراد لعدم اللبس .

قال أبو السعود : وفي تعليقه بعدم الإيمان بالآخرة ، إشعار بأنها في الشفاعة والفضاعة ، واستتباع العقوبة في الآخرة ، بحيث لا يجترى عليها إلا من لا يؤمن بها رأساً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[۲۸] (وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)

[۲۹] (فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

« وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا » أى لا يفيد فائدته ، ولا يقوم مقامه ، وذلك لأن حقيقة الشيء وما هو عليه ، إنما تدرك إدراكاً معتدلاً به ، إذا كان عن يقين ، لا عن ظن وتوهم « فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أى من هؤلاء الكفرة الذين يرون غاية سعادتهم النعم بلذائذها ، لقصر نظرهم على المحسوسات . والمراد من (الإعراض) هجرهم هجراً جميلاً ، وترك إيذائهم . وقول الزمخشري : أى أعرض عن دعوة من رأته معرضاً عن ذكر الله ... الخ - لا يصح . لأن الصدع بالحق لا تسامح فيه ، لاسيما والدعوة للمعرضين . وهى تستلزم أن يحاجوا به بمنتهى الطاقة لقوله ^(۱) تعالى (وَجَاهِدْهُمْ بِهِ فِي جِهَادٍ كَبِيرٍ) وإنما معنى الآية : فاصفح عنهم ودع أذاهم ؛ فى مقابلة ما يبجلون به عليك ، كما بين ذلك فى مواضع من التثزيل ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[۳۰] (ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ)

« ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ » يعنى أمر الدنيا منتهى علمهم ، لا علم لهم فوقه . ومن كان هذا أقصى معارفه ، فما على داعيه إلا الصفح عنه ، والصبر على جهله .

(۱) [۲۵ / الفرقان / ۵۲] .

و (مبلغ) اسم مكان مجازاً ، كأنه محل وقف فيه علمهم ادعاء - كما حققه الشهاب - والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها من قصر الإرادة على الحياة الدنيا ، ثم علل الأمر بالإعراض بقوله سبحانه « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى » أى : ولا بد أن يعاملهم بموجب علمه فيهم ، فيجزي كلًّا بما يقتضيه عمله ، وتقدير العلم بمن ضل ، لأنهم المقصودون من الخطاب ، والسياق فيهم . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » تنبيه على سعة ملكه ، وعظمة قدرته ، وأن ما فيهما من قبضته ، فلا يعجزه جزاء هؤلاء الفجرة ، كما قال « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » أى بالثوبة الحسنى ، وهى الجنة . ثم بين صفات هؤلاء المحسنين ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَاسَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ، إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ، فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

« الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَاسَ الْإِثْمِ » أى ما كبر الوعيد عليه من المفاهى « وَالْفَوَاحِشَ » يعنى ما فحش منها . والعطف إما من عطف أحد المترادفين أو الخاص على العام . « إِلَّا اللَّمَمَ » أى الصغائر من الذنوب . ومثله أبو هريرة بالقبلة والغمزة والنظرة - فيما رواه ابن جرير (١) -

(١) انظر الصفحة رقم ٦٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وأصل معناه : ما قل قدره . ومنه : لمة الشعر ، لأنها دون الوفرة . وقيل : معناه الدنو من الشيء دون ارتكاب له . والاستثناء منقطع على ما ذكر . أى إلا اللوم بما دون الكبائر والفواحش ، فإنه عفو . وقيل : متصل ، والمراد مطلق الذنوب . وقيل : إنه لا استثناء فيه أصلاً ، و(إلا) صفة بمعنى غير - وتفصيله في (العناية) - .

وحكى ابن جرير^(١) عن ابن عباس وغيره : أن معنى (اللهم) ما قد سلف لهم مما ألوا به من الفواحش والكبائر في الجاهلية قبل الإسلام ، وغفرها لهم حين أسلموا . وعن ابن عباس أيضاً قال : هو الرجل يلج بالفاحشة ثم يتوب ولا يعود . قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيَّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا

وقال الحسن : (اللهم) أن يقع الوقعة ثم ينتهى . وكل هذا مما يتناوله اللفظ الكريم والأقوى في معناه هو الأول ، ولذا استدل بالآية على تكفير الصغائر باجتنب الكبائر ، كما قال تعالى^(٢) (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَمِيَّاتِكُمْ) .

« إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ » قال ابن جرير^(٣) : أى واسع عفوه للمذنبين الذين لم تبلغ ذنوبهم الفواحش وكبائر الإنم « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » قال^(٤) ابن جرير : أى أحدثكم منها بخلق أبيكم آدم منها « وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ » أى حينما يصوركم في الأرحام « فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ » أى تشهدوا لها بأنها زكية بريئة من الذنوب والمعاصي . والمراد به الثناء تمدحاً أو رياء « هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَنْتَقَى » أى بمن اتقاء

(١) انظر الصفحة رقم ٦٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٤ / النساء / ٣١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٤) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

فعمل بطاعته ، واجتنب معاصيه وأصلح. وهذا كقوله تعالى^(١) (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا) .

وفي الصحيحين^(٢) عن أبي بكرة قال: مدح رجل رجلاً عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله ﷺ : ويلك ! قطعت عنق صاحبك (مزاراً) إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه للاحالة ، فليقل : أحسب فلاناً ، والله حسبي ، ولا أزكى على الله أحداً ، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى)

[٣٤] (وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى)

[٣٥] (أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهَوْا يَرَى)

« أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى » أى عن الذكر بعد إذ جاءه ، كما قال تعالى^(٢) (فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى) « وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى » أى قطع العطاء بخلاً وشحاً « أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهَوْا يَرَى » أى يراه حتى يحكم على نفسه بالتركية والنجاة والفوز ؟ .

(١) [٤ / النساء / ٤٩] . (٢) أخرجه البخارى فى : ٧٨ - كتاب الأدب ،

٩٥ - باب ما جاء فى قول الرجل ويلك ، حديث رقم ١٢٩٣

وأخرجه مسلم فى : ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٦٥ و٦٦ (طبعنا) .

(٣) [٧٥ / القيامة / ٣١ و٣٢] .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٣٦] (اَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى)

[٣٧] (وَاِبراهيمَ الَّذِى وَفَّى)

« اَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَاِبراهيمَ الَّذِى وَفَّى » اى بالغ فى الوفاء بما عاهد الله عليه ، كما قال ^(١) (وَاِذْ اُبْتَلِىْ اِبراهيمَ رَبُّهُ وَبَكَلِمَتِ فَاَتَمَّهُنَّ) .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٣٨] (اَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

« اَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » اى لا تؤاخذ نفس بذنب غيرها . بل كل آثمة ، فإن إنعمها عليها .

قال القاشانى : لأن العقاب يترتب على هيآت مظلمة رسخت فى النفس بتكرار الأفاعيل والأقاويل السيئة التى هى الذنوب ، وكذلك الذنوب . وكذلك الثواب ، إنما يترتب على أضدادها من هيآت الفضائل ، كما قال تعالى :

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَاَنْ لِّئِنْ لِّلْاِنْسَانِ اِلَّا مَا سَعَى)

« وَاَنْ لِّئِنْ لِّلْاِنْسَانِ اِلَّا مَا سَعَى » اى : إلا سعيه وكسبه .

تنبيهات :

الأول - قال ^(٢) ابن جرير : إنما عنى بقوله (اَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) الذى

(١) [٢ / البقرة / ١٢٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

ضمن للوليد بن المغيرة أن يتحمل عنه عذاب الله يوم القيامة ! يقول: ألم يخبر قائل هذا القول، وضامن هذا الضمان ، بالذي في صحف موسى وإبراهيم مكتوب : أن لا تأثم آثمة إثم أخرى غيرها (وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى) أى: وأنه لا يجازى عامل إلا بعمله ، خيراً كان أو شراً . انتهى .

وظاهر السياق يشعر بنزول الآيات ردّاً على ما كانوا يتخرسونه ويتمنونه ، ويتحككون فيه على الغيب لجأجأ وجهلاً . ومع ذلك ففهموها الشمولى جليّ .

الثانى - قال السيوطى فى (الإكمال) : استدل به على عدم دخول النيابة فى العبادات عن الحى والميت . واستدل به الشافعى على أن ثواب القراءة لا يلحق الأموات . انتهى .

وقال ابن كثير : ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعى رحمه الله ومن تبعه ؛ أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتي ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ، ولا حشهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إجماع . ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ، ولو كان خيراً لسبقونا إليه . وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء . فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولها ، ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ . إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم يُنتفع به - فهذه الثلاثة فى الحقيقة هى من سميه وكده وعمله ، كما جاء فى الحديث (٢) : إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه . والصدقة الجارية - كالوقف

(١) أخرجه مسلم فى : ٢٥ - كتاب الوصية ، حديث رقم ١٤ (طبعنا) .

(٢) أخرجه النسائى فى : ٤٤ - كتاب البيوع ، ١ - باب الحث على الكسب ،

ونحوه - هي من آثار عمله ووقفه ، وقد قال ^(١) تعالى (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ . . .) الآية . والعلم الذي نشره في الناس ، فاقتدى به الناس بعده ، هو أيضاً من سعيه وعمله .

وثبت في الصحيح ^(٢) : من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعهم ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً . انتهى .

الثالث - قال الرازي : المراد من الآية بيان ثواب الأعمال الصالحة ، أو بيان كل عمل . نقول : المشهور أنها لكل عمل ، فالخير مثاب عليه ، والشر معاقب به ، والظاهر أنه لبيان الخيرات ، يدل عليه اللام في قوله تعالى (لِلْإِنْسَانِ) فإن اللام لعود المنافع ، و(على) لعود المضار . نقول : هذا له ، وهذا عليه ؛ ويشهد له ، ويشهد عليه ، في المنافع والمضار . وللقائل الأول أن يقول بأن الأمرين إذا اجتمعا غلب الأفضل ، كجموع السلامة تذكر ، إذا اجتمعت الإلثام مع الذكور . وأيضاً يدل عليه قوله تعالى (ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى) و(الأوفى) لا يكون إلا في مقابلة الحسنة ، وأما في السيئة فالثلث أو دونه ، أو العفو بالكلية . انتهى .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ)

[٤١] (ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ)

« وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ » أي يراه ، ويعرض عليه ، ويكشف له . من (أريت الشيء) أو يرى للخلق وللملائكة . ففيه بشارة للمؤمن ، وإفراح له ، ونذارة للكافر ، وإرهاب له ، أو هو من (رأى) المجرد . أي يراه ، كقوله تعالى ^(٣) (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَىٰ

(١) [٣٦ / يس / ١٢] .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٧ - كتاب العلم ، حديث رقم ١٦ (طبعتمنا) .

(٣) [٩ / التوبة / ١٠٥] .

اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ) «نُمَّ يُجْزَى لَهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى» أى يجزى سعيه جزاء وافراً لا يبخس منه شيئاً .

قال الشهاب : أصله يجزى الله الإنسان سعيه ، ف (الجزاء منصوب بنزع الخافض ، و (سعيه) هو المفعول الثانى ، وهو يقعدى له بنفسه . نحو : جزاك الله خيراً . وجزاؤه سعيه بمعنى جزائه بمثله . أو هو مجاز . وقيل : المنصوب بنزع الخافض الضمير ، والتقدير : بسعيه أو على سعيه - كما فى (الكشاف) - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ)

[٤٣] (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)

[٤٤] (وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا)

[٤٥] (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ)

[٤٦] (مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ)

[٤٧] (وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ)

[٤٨] (وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ)

[٤٩] (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّرَعَىٰ)

«وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ» أى انتهاء الخلق ، ورجوعهم لمجازاتهم . والمحاطب ! إما عام ، أى أيها السامع أو العاقل ، ففيه وعد ووعد ؛ أو خاص بالنبي صلوات الله عليه ، ففيه تسليمة عما كان يلاقيه من جفاء قومه وجهلهم .

ثم أشار إلى بعض آياته الدالة على انفراده بالالوهية ، بقوله تعالى «وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ

وَأَبْكَى^١ « أى خلق قوتي الضحك والبكاء ، أو أضحك أهل الجنة فى الجنة ، وأبكى أهل النار فى النار ، أو من شاء من أهل الدنيا ، أو أعم .

قال الرازى : اختار هذين الوصفين لأنهما أمران لا يمالان ، فلا يقدر أحدهما الطبيعيين أن يبدى فى اختصاص الإنسان بهما سبباً ، وإذا لم يعمل بأمر ، فلا بد له من موجد ، وهو الله تعالى . وأطال فى ذلك وأطاب ، رحمه الله تعالى .

« وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا » أى أمات من شاء من خلقه ، وأحيى من شاء . قال ابن جرير^(١) : وعنى بقوله (أَحْيَا) نفخ الروح فى النطفة الميتة ، فجعلها حية بتصويره الروح فيها « وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى » أى ابتدع إنشاءهما من نطفة إذا تدفق فى الرحم . « وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى » أى إعادة الخلق بعد مماتهم فى نشأة أخرى لا تعلم ، كما قال^(٢) (وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ) وذلك للحساب والجزاء ، المرتب على أعمال الخير والشر ، بالمصير إلى الجنة أو النار « وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى » أى أغنى من شاء بالمال . و (أقناه) أى جعل له قنية ، وهو ما يدخره من أشرف أمواله . « وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّرْعَى » وهو نجم مضى خاف الجوزاء ، وكان بعض أهل الجاهلية يعبد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى)

[٥١] (وَنَمُودًا فَمَا أَبْقَى)

[٥٢] (وَقَوْمٌ نُوْجٍ مِّن قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى)

(١) انظر الصفحة رقم ٧٥ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

(٢) [٥٦ / الواقعة / ٦١] .

[٥٣] (وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ)

[٥٤] (فَفَشَّهَا مَا غَشَّىٰ)

[٥٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ)

[٥٦] (هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ)

« وَأَنَّهُ وَاَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ » يعنى قوم هود. وسميت (الأولى) لتقدمها فى الزمان. « وَتَمُودًا » أى قوم صالح « فَمَا أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ » أى أشد فى كفرهم « وَأَطْفَىٰ » أى أشد طغياناً وعصياناً من الذين أهلكوا بعدهم ، لتمردهم على الكفر ، وردّ دعوته ، فى طول مدته بينهم ، وهى أطول مدد الأنبياء عليهم السلام . « وَالْمُؤْتَفِكَةَ » أى قرى قوم لوط التى انتفكت بأهلها ، أى انقلبت . « أَهْوَىٰ » أى أهواها على أهلها ودمرها . « فَفَشَّهَا مَا غَشَّىٰ » أى من العذاب السماوى الذى صب عليها . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ » أى نعمائه . « تَتَمَارَىٰ » أى ترتاب وتشك وتجادل فى أنها ليست من عنده ، وهو الذى أنعم بالإغناء والإقناء وإرسال الرسل ، وقهر أعدائهم . « هَٰذَا » أى القرآن « نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ » أى إنذار من جنس الإنذارات الأولى التى أنذر بها من قبلكم . أو هذا الرسول نذير من جنس من تقدمه ، ليس بدعاً من الرسل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (أَزِفَتِ الْأَزِفَةُ)

[٥٨] (لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ)

« أَزِفَتِ الْأَزِفَةُ » أى قربت القيامة الموصوفة بالقرب . فاللام فى (الأزفة) للعهد . وقيل : الأزفة علم بالغلبة للساعة هنا ، لئلا يلزم وصف القريب بالقرب .

قال الشهاب : وفيه نظر ، لأن وصف القريب بالقرب يفيد المبالغة في قربهِ ، كما يدل عليه الافتعال في (اقتربت) .

« لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ » أى ليس لقيامها غير الله مبيّن لوقته ، كقوله^(١) (لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَّتِهَا إِلَّا هُوَ) و (كَاشِفَةٌ) صفة محذوف ، أى نفس كاشفة ، أو حال كاشفة . أو التاء للمبالغة . أو هو مصدر بنى على التأنيث و (مِنْ دُونِ اللَّهِ) بمعنى غير الله ، أو إلا الله . وقيل : السكشف بمعنى الإزالة . أى ليس لها نفس كاشفة إذا وقعت ، إلا هو تعالى ، من (كشف الغطاء) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ)

[٦٠] (وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ)

[٦١] (وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ)

[٦٢] (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا)

(سجدة)
(لغير مالك)

« أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ » يعنى القرآن الذى قص ما تقدم ، وأنذر بما أخبر « تَعْجَبُونَ » أى : تعجب إنكار مع أن ما حواه مما يلجىء إلى الإذعان والإقرار ، بل مما يفيض لحقيقته الدمع المردار ، كما قال « وَتَضْحَكُونَ » أى استهزاء « وَلَا تَبْكُونَ » أى بما فيه من وعيد للعصاة ، ومما فرط منكم قبل سماع ذكراه كما يفعله الموقنون به ، المحدث عنهم فى آية^(٢) (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) « وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ » أى لاهون عما فيه من العبر ، معرضون عن آياته كبراً .

قال مجاهد : كانوا يمرّون على النبي ﷺ غضاباً مبرطمين ، أى : شاخين .

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٧] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١٠٩] .

وعن ابن عباس : هو الغناء : كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا، وهي لغة أهل اليمن .
يقولون : اسمد لنا : تغنّ لنا . والمآل واحد ، وإن اختلفت العبارة عنه . ولا ريب أن كل ذلك مما كان يصدر عن المشركين .

قال في (الإكمال) : فيه استجباب البكاء عند القراءة ، وذم الضحك والغناء ، واللاهو واللعب والغفلة ، كما فسر بالأربعة قوله (سَمِدُونَ) وفسره السدي بالاستكبار .
« فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا » أى واعبدوه دون من سواه من الأوثان، فإنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلا له ، فلا تجعلوا له شريكاً في عبادته .

وعن عبد الله بن مسعود قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة (وَالنَّجْمِ) فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسجد من خلفه . . . الحديث . وتقدم في أول السورة .
وروى الإمام أحمد^(١) عن المطلب بن وداعة قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم - فسجد ، وسجد من عنده ، فرفعت رأسي فأبيت أن أسجد - ولم يكن أسلم يومئذ المطّاب - فكان بعد ذلك لا يسمع أحداً قرأها إلا سجد معه - ورواه النسائي - .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٢٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٤ - سُورَةُ الْقَمَرِ

وتسمى سورة (أُقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) وهي مكية . وآيها خمس وخمسون .
قال ابن كثير : ورد في حديث أبي واقد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ (قاف)
و (وَأُقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) في الأضحى والفطر . وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار ، لاشتمالهما على
ذكر الوعد والوعيد ، وبدء الخلق وإعادته ، والتوحيد ، وإثبات النبوات ، وغير ذلك من
المقاصد العظيمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ)

« أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ » أى دنت الساعة التى تقوم فيها القيامة . كما قال ^(١) (أَنْتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) وقال ^(٢) (أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) . قال ابن جرير ^(٣) : وهذا من الله تعالى إنذار لعباده بدنو القيامة ، وقرب فناء الدنيا ، وأمرهم بالاستعداد لأحوال القيامة ، قبل هجومها عليهم ، وهم عنها فى غفلة ساهون . « وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ)

« وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ » قال ابن جرير ^(٣) : كان ذلك ، فيما ذكر ، على عهد رسول الله ﷺ وهو بمكة ، قبل هجرته إلى المدينة . وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية ، فأراههم ﷺ انشقاق القمر حجة على صدق قوله ، وحقيقة نبوته . فلما أراهم أعرضوا وكذبوا ، وقالوا هذا سحر مستمر ، سحراً نأ محمد . ثم روى ذلك عن أنس وابن مسعود وابن عباس ، وغير واحد من التابعين .

وقال القاضي عياض فى (الشفا) أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضى ، وإعراض الكفرة عن آياته . وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه ، ثم سرد الآثار فى ذلك .

(١) [١٦ / النحل / ١] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٨٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وزعم ابن كثير أن أحاديثه متواترة ، إلا أن الشهاب نقل عن الإمام الخطابي أن معجزاته ﷺ ، غير القرآن ، لم تتواتر . والحكمة فيه أنها لو تواترت كانت عامة ، والمعجزة إذا عمت أهلك الله من كذبها ، كما جرت به العادة الإلهية ، والنبي ﷺ بعث رحمة ، وأمن الله أمته من عذاب الاستئصال .

ثم قال : وسبب تعرضهم للتواتر طعن بعض الملاحدة بأن القمر يشاهده كل أحد ، فلو انقسم قطعتين تواتر وشاع في جميع الناس ، ولم يخف على أحد . والطبائع حريصة على إشاعة ما لم يعهد مثله ، ولا أغرب من هذا . مع أن الملازمة غير لازمة ، لأنه في الليل ، وزمان الغفلة ، ولا يلزم امتداده ، ولا أن يرى إذ ذاك في جميع الآفاق ، لاختلاف المطالع . انتهى . وقد ذكر ابن قتيبة في (تأويل مختلف الحديث) أن الذي طعن في تلك الآثار المروية عن ابن مسعود هو النظام ، إلا أنه لم ينقل تأويله للآية على رأيه ، ولعله هو القول الثاني الذي حكاه الزحشرى والبيضاوى ، ورواه أبو السعود عن عثمان بن عطاء عن أبيه أن المعنى : وسينشق القمر ، يعنى يوم القيامة إذا انكسرت النجوم وانتثرت . والمراد بالآية إما القرآن أو ما يقترحونه لو أجيبوا إلى طلبه .

ومعنى (مُسْتَمِرٌّ) دائم مطرد ، أو محكم قوى ، من (مررت الجبل) إذا أحكمت قتله . أو مازاذهب لا يبقى ، تعليلاً لأنفسهم بالأمانى الفارغة . أو منفور عنه لشدة مرارته مجازاً . وجملة (وإن يروا) مستأنفة أو حالية .

قال الشهاب : ولو كانت هذه الجملة حالية ، والمعنى . أن الساعة اقتربت ، وانشقاق القمر فيها دنا زمانه ، وظهرت آثاره ، والحال أنهم مصرون على العناد - كان منتظماً أتم انتظام ، ولا ضير فيه سوى مخالفته للمنقول عن السلف في تفسيرها ، فتأمل . انتهى .

أقول : ولى ههنا كلمة لا بد من التنبيه عليها ، وهى أن الرمي بالإلحاد لمفكر حديث غير مجمع على تواتره ، جنسية كبرى ، وزلة عظيمة . فإن باب التفسير والتضليل ، ليس بالأمر

القليل . ولأجله صنف حجة الإسلام الغزالي كتابه (فيصل التفرقة) ودمغ بحججه أولئك المتعصبين الذين سهل عليهم الرى لمن خالفهم بالزندقة . ولعمر الحق إن هذا ممافرق السكامة ، ونقر حملة العلم عن تعرف المشارب والآراء ، حتى أصبح باب التوسع فى العلم مرتجأ ، ومحيطه بعد مده منحسراً ، إذ هجرت كتب الفرق الأخرى بل أحرقت ، وأهين من يتأثر بها ، ورمى بالابتداع أو التزندق ، كما يمر كثير من مثل هذا بمطالع كتب التاريخ وطبقات الرجال ، فلا جرم نسيت الأقوال الباقية ، وعدت من الشاذ غير المقبول . وإذا ألصق اسم الإلحاد بقائلها ، فإذا يكون حالها ؟ وهذا ، كما لا يخفاك ، حيف على قواعد العلم ، وغل للأفكار . نعم ! تفلت منهم علم الأصول ، فلم تزل الأقوال الغريبة تتراعى على صفحاته ، وإن كان مما يغمز كثير منها ، إلا أنها سارت تلج آذانهم ، ويحتج بها عليهم . وقد تنبه كثير من المحققين لما ذكرناه ، وأشاروا له فى مواضع ، فقررروا فى كتب العقائد أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة .

وقال العلامة الفناى فى (فصول البدائع) : ولا يضلل جاحد الآحاد .

وقال الإمام ابن تيمية : الصواب أن من رد الخبر الصحيح ، كما كانت الصحابة ترده ، لا اعتقاد غلط الناقل أو كذبه ، لا اعتقاد الراد أن الدليل قد دل على أن الرسول لا يقول هذا ، فإن هذا لا يكفر ولا يفسق ، وإن لم يكن اعتقاده مطابقاً . فقد رد غير واحد من الصحابة غير واحد من الأخبار التى هى صحيحة عند أهل الحديث . انتهى .

وذكر الغزالي فى (الإحياء) فى كتاب آداب تلاوة القرآن فى الباب الثالث فى أعمال الباطن فى التلاوة ؛ أن من أركانها التغللى عن موانع الفهم . قال : فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معانى القرآن لأسباب وحجب أسد لها الشيطان على قلوبهم ، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن . وحجب الفهم أربعة . إلى أن قال :

وثانيها - أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد ، وجد عليه ، وثبت فى نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة . فهذا شخص قيده معتقده

عن أن يجاوزه ، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده ، فصار نظره موقوفاً على مسموعه ، فإن لمع برق على بمد وبداله معنى من المعانى التى تبين مسموعه ، حمل عليه شيطان التقليد حملة ، وقال : كيف يخطر هذا ببالك ، وهو خلاف معتقد آبائك ؟ فىرى أن ذلك غرور الشيطان فيتباعد منه ، ويحترز عن مثله . ثم قال :

رابعها - أن يكون قرأ تفسيراً ظاهراً ، واعتقد أنه لا معنى لسكلمات القرآن إلا ماتناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأى ، وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار ، فهذا أيضاً من الحجب العظيمة . ثم قال :

وسنين معنى التفسير بالرأى ، وأن ذلك لا يناقض قول على رضى الله عنه : إلا أن يؤتى الله عبداً فهماً فى القرآن . وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول ، لما اختلف الناس فيه .

ثم ذكر بعد ، عليه الرحمة ، أن النهى عن التفسير بالرأى ينزل على أحد وجهين : أحدهما - أن يكون له فى الشيء رأى ، وإليه ميل من طبعه وهواه ، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ، ليحتج على تصحيح غرضه ، كالحتمج على تصحيح بدعة بتأويل يخترعه تلبساً على خصمه ، وكالجاهل المتقحم يتأول ما شاء هواه .

وثانيهما - أن يتسارع إلى التأويل بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بفرائب التنزيل . انتهى .

ويأتى مثل البحث فى كثير من المواضع التى فسرها بعض السلف بشيء ، أروى فيها ما أنكره غيره لما قام لديه . ولا ملام فى معترك الأفهام - وبالله التوفيق - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ، وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ)

« وَكَذَّبُوا » أى بآيات الله بعد ما أتتهم حقيقتها « وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » أى مازين لهم من دفع الحق مما وجدوا عليه آباءهم « وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ » أى كل أمر لابد أن يصير

إلى غاية يستقر عليها . تعريض بأن أمر الرسول لابد أن يستقر إلى غاية، هي الظهور والنصرة؛ وأمر مكذبيه إلى الخذلان والشقاوة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ)

[٥] (حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ)

« وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ » أى عن القرون الخالية ، والحقائق الكونية ، مما يستحيل أن يأتي به أى غيره صلوات الله عليه « مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ » أى مرتدع عما هم مقيمون عليه من التكذيب والغفلة واللغو « حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ » أى بلغت غايتها من الأحكام والتنزه عن الخلل ، ومن الاشتغال على البراهين القاطعة والحجج الساطعة . وهو بدل من (ما) أو خبر محذوف ، أى هو حكمة بالغة « فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ » جمع نذير . و (ما) نافية ، أو استفهامية . أى : أى غناء تغنى عن قوم آثروا الضلالة على الهدى ، فأعرضوا عنه ، وكذبوا به . وجوز أن تكون (حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ) جملة مستأنفة للمعجب من حالهم ، مع ما جاءهم مما يقود إلى الإيمان بآدى بدء . وهو ما يفهم من تأويل ابن كثير . وعبارته : (حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ) أى فى هدايته تعالى لمن هداه ، وإضلاله لمن أضله (فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) يعنى أى شئ تغنى النذر عن كتب الله عليه الشقاوة ، وختم على قلبه . فن ذا الذى يهديه من بعد الله ؟ وهذه الآية كقوله تعالى^(١) (وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّ لَكُمْ أَجْمَعِينَ) وكذا قوله تعالى^(٢) (وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) .

(٢) [١٠ / يونس / ١٠١] .

(١) [١٦ / النحل / ٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ)

[٧] (خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ)

[٨] (مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ، يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ)

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أى اصفح عن أذاهم ، وانتظر ما يأتيهم من الوعيد الشديد ، كما قال :
 « يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ » أى داعى الله إلى موقف القيامة ، وهو ملك . أو الدعاء تمثيل للإعادة
 كالأمر فى قوله (كُنْ فَيَكُونُ) تمثيل للإبداء ، والداعى هو الله تعالى « إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ » أى
 فظيع تنكره النفوس ، وهو موقف الحساب والجزاء والبلاء « خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ » أى من
 الذل والصغار « يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ » أى قبورهم « كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ » أى فى
 الكثرة والتموج والانتشار . والجراد مثل فى الكثرة « مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ » أى مسرعين .
 ماذى أعناقهم إليه . « يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ » أى لشدة أهواله و (يَوْمٌ يَدْعُ)
 ظرف لـ (يَقُولُ) وقيل : بمضمر ، وقيل : بـ (يَخْرُجُونَ) والأول أظهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ)

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ » أى زجر
 عن الإنذار والتبليغ بشدة وقساوة ، كما يدل عليه صيغة (افتعل) .

قال الفانصر : وليس قوله (فَكَذَّبُوا) الثانى تكراراً ، لأن الأول مطلق ، والثانى مقيد .
 وهو كقوله فى السورة ^(١) (فَتَعَاطَىٰ قَعْقَرَىٰ) فإن تعاطيه هو نفس عقره ، ولكن ذكره من
 جهة عمومه ، ثم من ناحية خصوصه إسمه ، وهو بمثابة ذكره مرتين . وجواب آخر هنا ،

(١) [٥٤ / القمر / ٢٩] .

وهو أن المكذب أولاً محذوف ، دل عليه ذكر نوح ، فكأنه قال : كذبت قوم نوح نوحاً ، ثم جاء بتكذيبهم ثانياً مضافاً إلى قوله (عَبْدَنَا) فوصف نوحاً بخصوص العبودية . وأضافه إليه إضافة تشريف . قالت المكذوب المخبر عنه ثانياً ، أبشع عليهم من المذكور أولاً ، لتلك اللوحة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فَدَعَا رَبَّهُ وَ- أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرُ)

« فَدَعَا رَبَّهُ وَ- أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرُ » أى غلبنى قوى تمرداً وعتواً ، فلم يسمعوا منى . واستحكم اليأس منهم ، فانتقم منهم بعذاب ترسله عليهم . ثم أشار إلى استجابته تعالى دعاءه : بالطوفان الذى هلكوا فيه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ)

[١٢] (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)

[١٣] (وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ)

[١٤] (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ)

[١٥] (وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

[١٦] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ)

« فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ » أى مندفق . وفيه استعارة تمثيلية ، بتشبيهه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت لها أبواب السماء ، وشق لها أديم الخضراء . « وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا » أى وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تنفجر . « فَالْتَقَى الْمَاءُ »

أى ماء السماء وماء الأرض « عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ » أى على حال قدره الله وقضاه، وهو هلاك قوم نوح . « وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ » يعنى السفينة . أقيمت صفاتها مقامها ، لتأديتها مؤداها . وهو من يدعى الكلام - كما بسطه فى (الكشاف) - .

(وَدُسْرٍ) جمع دِسَار بكسر الدال ، أو دَسْر كسقف وسقف ، وهى أضلاعها ، أو حبالها التى تشد فيها ، أو مساميرها .

« تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا » أى برأى منا . كناية عن حفظها بحفظه تعالى وعنايته . « جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ » أى كفر به ، وهو الله تعالى ، أو نوح وما جاء به ، فهو من (الكفر) ضد الإيمان . أو هو نوح عليه السلام لأنه نعمة كفروها ، فهو متعبد بنفسه ، استعير لفوح النعمة بطريق الكناية ، ونسب الكفران تخميلاً أو حقيقة . « وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا » أى قصة نوح « آيَةً » أى جعلناها عِبرَةً يُعْتَبَرُ بِهَا . « فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » ؟ أى معتبر ومتعظ . وأصله (مذتكر) . « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ » أى عذابى لهؤلاء الكفرة ، قوم نوح ، وإنذاراتى بما أحللت بهم ، ليحذر أمثالهم وينتهوا عما يقتربونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ » أى سهّلناه للادّكار والانعاظ ، لكثرة ما ضرب فيه من الأمثال الكافية الشافية « فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ » أى فيعتبر بما فيه ، ويشوب إلى رشده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ)

[١٩] (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ)

[٢٠] (تَنْزِيعُ النَّاسِ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ)

[٢١] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ)

[٢٢] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ)

« كَذَّبَتْ عَادٌ » أى نبيهم هوداً عليه السلام ، بمنزل ما كذبت به قوم نوح « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَرًا » أى شديدة الهبوب ، لها صرير ، أو باردة ، « فِي يَوْمٍ نَحْسٍ » أى شر وشؤم عليهم « مُسْتَمِرٍّ » أى استمر عليهم ودام حتى أهلكهم ، أو شديد المראה لعظم بلائه . « تَنْزِيعُ النَّاسِ » أى تقلعهم عن أماكنهم . « كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ » أى أصول نخل منقطع عن مغارسه . وأصل (مُنْقَعِرٍ) ما أخرج من القمر . « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي » كرّره للتحويل وللتنبية على فرط عتوهم . أى فكيف كان عذابى لقومه ، وإنذارى لهم على لسانه ؟ « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ؟ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ)

[٢٤] (فَقَالُوا أَبَشَرًا مِمَّنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُوَ - إِنَّا إِذَا لَبِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

[٢٥] (أَأَلْقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ)

[٢٦] (سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُّ)

[٢٧] (إِنَّا مُرْسِلُوا النِّفَاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَأَرْتَبْنَهُمْ وَأَصْطَبِرْ)

[٢٨] (وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ، كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌّ)

[٢٩] (فَنادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ)

[٣٠] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ)

[٣١] (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ)

[٣٢] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ » أى بما أنذرهم به نبيهم صالح عليه السلام . « فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ » إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَلٍ وَسُعُرٍ « أى جنون ، أو عناء . فهو اسم مفرد . وقيل : جمع سدير ، كأنهم عكسوا عليه ، فرتبوا على اتباعهم إياه مراتبه على اتباعهم له .

قال الزخشرى قالوا : (أَبَشَرًا) إنكاراً لأن يتبعوا مثلهم فى الجنسية ، وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر ، وهم الملائكة . وقالوا (مِنَّا) لأنه إذا كان منهم كانت المائلة أقوى . وقالوا (وَاحِدًا) إنكاراً لأن تتبع الأمة رجلاً واحداً ، أو أرادوا واحداً من أفئدتهم ليس بأشرفهم وأفضلهم . ويدل عليه قولهم « أَلْقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا » يعنون : الوحي والنبوة . أى وفينا من هو أحق بها على زعمهم ، لكونه أعز مالا ونفراً « بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرٌ » أى متكبر ، حمله كبره على استبعادنا له . « سَيَعْلَمُونَ غَدًا » أى عند نزول العذاب بهم ، أو يوم القيامة « مِّنَ الْكَذَابِ الْأَشَرِ » أى المتكبر عن الحق ، البطر له « إِنَّا مَرْسُلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ » أى آية وحجة لصالح على قومه امتحاناً لهم وابتلاء « فَأَرْبَقِيَهُمْ » أى انتظرهم وتبصر ما هم صانعوه بها « وَأَصْطَبِرْ » أى على دعوتهم « وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ » أى الذى يردونه لشرب مواشيهم « قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ » أى مقسوم بينهم ، لها شرب يوم ، ولهم شرب يوم « كُلُّ شَرِبٍ مَّحْتَضَرٌ » أى يحضره صاحبه فى نوبته و (الشرب) النصيب من الماء .

ثم أشار تعالى إلى عقوبهم عن أمر ربهم بقوله « فَنادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى » فتناول الناقة بيده « فَمَقَرَّ » أى فمقرها وقتلها « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ * » إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ « أى كالشجر اليابس المتكسر ، الذى يتخذ

من يعمل الحظيرة للغنم ونحوها . أو كالحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لما شيته في الشتاء . وقرئ بفتح الظاء ، اسم مكان . أى كهشيم الحظيرة ، أو الشجر المتخذ لها . وهو تشبيه لإهلاكمهم وإفنائهم ، وأنهم بادوا عن آخرهم ، لم تبق منهم باقية ، وخمدوا وهمدوا ، كما يهدم ويبمس الزرع والنبات بعد خضرة ورقه ، وحسن نباته .

قال ابن زيد : كانت العرب يعملون حظاراً على الإبل والمواشى من بيس الشوك . وعن سفيان : الهشيم ، إذا ضربت الحظيرة بالعضا ، تهشم ذاك الورق فيسقط ، والعرب تسمى كل شيء كان رطباً فيبس ، هشيماً « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلَّذِي كَرِهَ مِنْ مَّذَكَّرٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي نُذِرُوا)

[٣٤] (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ ، نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ)

[٣٥] (نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ، كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ)

[٣٦] (وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذِي نُذِرُوا)

[٣٧] (وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ)

[٣٨] (وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ)

[٣٩] (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ)

[٤٠] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلَّذِي كَرِهَ مِنْ مَّذَكَّرٍ)

« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي نُذِرُوا * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا » أى ملكاً يرميهم بالحصاء

والحجارة . أورياً تحصيهم بالحجارة ، أى ترميهم « إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ » أى

في سحر . أو (الباء) للملابسة ، أو المصاحبة . وذلك أنه تعالى أوحى إليهم أن يخرجوا من آخر الليل ، فنجوا مما أصاب قومهم . ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ، ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، وقد أصابها ما أصابهم . وخرج نبي الله لوط عليه السلام وبنات له ، من بين أظهرهم سالمين لم يمسهن سوء « تَعْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا » أى إنعاماً مفاً ، وهو علة (لنجينا) « كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ » أى فإطاع ربه ، وانتهى إلى أمره ونهيهِ . و (الشكر) صرف العبد جميع ما أنعم عليه ، إلى ما خلق لأجله « وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ » أى لوط « بِطُغْيَانِهِ » أى أخذتنا بالعباد « فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ » أى بإبذاراته ، تكذيباً له « وَلَقَدْ رَاَوْدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ » أى طالبوه بإتيان الفاحشة معهم ، وهم الملائكة الذين وردوا عليه في صورة شباب مُرْدٍ حسان ، محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته المعجوز السوء إلى قومها تملهم بأضيافه عليه السلام ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فتملقاهم يناديهم الله أن لا ينجزوه في ضيفه ، فأبوا عليه ، وجاءوا ليدخلوا عليه ، فأعصى الله أبصارهم ، فلم يروه ، كما قال « فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ » أى يدوم بهم إلى النار . « فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي * وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْكُرُوءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّدَّكِرٍ » قال الزخشرى : فإن قلت : ما فائدة تكرير قوله (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي) (وَلَقَدْ يَسْرْنَا ...) الخ ؟ قلت : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين أذكراً وأماظاً ، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً ، إذا سمعوا الحث على ذلك ، والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات ، ويقعق لهم الشن تارات ، لئلا يغلبهم السهو ، ولا تستولى عليهم الغفلة . وهكذا حكم التكرير كقوله ^(١) (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) عند كل نعمة عدها في سورة (الرحمن) . وقوله ^(٢) (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) عند كل آية أوردها في

(١) [٥٥ / الرحمن / ١٣] . (٢) [٧٧ / الرسائل / ١٥] .

سورة (والمرسلات) . وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها ، لتكون العبر حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية في كل أوان . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ)

[٤٢] (كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ)

« وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ » يعنى موسى وهرون ، وجمعهما للتعظيم ، أو هو جمع نذير بمعنى الإنذار « كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا » يعنى الآيات التسع ، أو الأدلة والحجج التى أتتهم ناطقة بوحدانيته تعالى . « فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ » أى عاقبناهم عقوبة شديدة لا يغالب « مُّقْتَدِرٍ » أى عظيم القدرة لا يعجزه شئ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ)

[٤٤] (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ)

« أَكْفَارُكُمْ » يا معشر قريش « خَيْرٌ مِّنْ أَوْلَائِكُمْ » أى الكفار المحدثين الذين حلت النعمة حتى يأمنوا جانبها « أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ » أى براءة من عقابه تعالى ، وأمان منه ، مع أنكم على شاكلة من مضى نبؤهم « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ » أى ممتنع لا يرام . أو منتصر ممن أراد حربنا ، وتفرق كلمتنا . أو متناصر ، ينصر بعضنا بعضاً ، فالافتعال بمعنى التفاعل ، كالاختصام بمعنى التخاصم . وإفراد (مُّنتَصِرُونَ) مراعاة لللفظ (جَمِيعٌ) لخفة الأفراد ، ولرعاية الفاصلة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيَوْتُونَ الدُّبُرَ)

[٤٦] (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ)

«سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ» يعنى جمع كفار قريش «وَيَوْتُونَ الدُّبُرَ» أى يوتون أديبارهم المؤمنين بالله ، عند انهزامهم. وإفراد (الدُّبُرُ) لإرادة الجنس، أو رعاية الفواصل، ومشاكلة قرائنه . وقد وقع ذلك يوم بدر . وهو من دلائل النبوة ، لأن الآية مكية ، ففيها إخبار عن الغيب، وهو من معجزات القرآن . «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ» قال ابن جرير^(١) : ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من أنهم لا يبعثون بعد مماتهم ، بل الساعة موعدهم للبعث والعقاب . «وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ» أى أعظم داهية ، وهى الأمر المفكر الذى لا يهتدى لدوائه . وأمرٌ مذاقاً ، أو أشد عليهم من الهزيمة التى سيهزمون بها ، إذا التقوا مع المؤمنين للقتال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

[٤٨] (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ)

«إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ» أى عن الحق فى الدنيا «وَسُعُرٍ» أى نيران فى الآخرة . وقال القاشانى : أى فى ضلال عن طريق الحق ، لعمى قلوبهم بظلمة صفات نفوسهم . و (سُعُرٍ) أى جنون ووله ، لاحتجاب عقولهم عن نور الحق بشوائب الوهم ، وحيرتها فى الباطل .

«يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ» أى يجرون عليها . «ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ» أى حرها وألمها . والاستعارة فى المس تحقيقية . أوفى (سَقَرَ) مكنية ، وفى (المس) تحييلية .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أو المس مجاز مرسل بعلاقة السببية للألم . واستعارة الذوق مشهورة ، واستعمال الذوق في المصائب بمنزلة الحقيقة . و (سَقَر) من أسماء جهنم - أعاذنا الله منها - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

« إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » أى بمقدار استوفى فيه مقتضى الحكمة ، وترتب الأسباب على مسبباتها . ومنه خلق دار العذاب ، لما كسبت الأيدي ، وإذافة ألها جزاء الزيف عن الهدى . وهذه الآية كآية^(١) (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرُهُ وَتَقْدِيرًا) ، وآية^(٢) (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) أى قَدَّرَ قَدْرًا ، وهدى الخلائق إليه . ولا مانع أن تكون هذه الآية وما بعدها إلفاتاً اعظمته تعالى ، وكبير قدرته ، وأن من كانت له تلك النعوت المثل للجدير أن يُعبد وحده ، ويُرهَب بأسه ، ويُتَّقَى بطشه ، لاسيما وقد صدع الداعي بإنذاره ، ومن أنذر فقد أعذر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)

« وَمَا أَمْرُنَا » أى الذى به الإيجاد « إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » أى كلمة واحدة يكون بها كل شيء ، بمقتضى استعداده ، كلمح بالبصر في السرعة .

قال القاشانى : (إِلَّا وَاحِدَةٌ) أى تعلق المشيئة الأثرية الموجبة لوجود كل شيء في زمان معين ، على وجه معلوم ، ثابت في لوح القدرة ، المسمى في الشرع بـ (كُنْ) ، فيجب وجوده في ذلك الزمان ، على ذلك الوجه دفعة . انتهى .

وقيل : معنى الآية ، معنى قوله تعالى^(٣) (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحٍ الْبَصَرِ) .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢] . (٢) [٨٧ / الأعلى / ١ - ٣] . (٣) [١٦ / النحل / ٧٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّرِكٍ)

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ » أى أشباهكم فى الكفر من الأمم السالفة .
قال الشهاب : أصل معنى (الأشياء) جمع شيمة ، وهم من يتقوى بهم المرء من الأنباع .
ولما كانوا فى الغالب من جنس واحد ، أريد به ما ذكر ، إما باستعماله فى لازمه ، أو بطريق الاستعارة .

« فَهَلْ مِنْ مُدَّرِكٍ » أى متعظ بذلك ينزجر به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ)

« وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ » أى الكتب التى أحصتها الحفظة عليهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ)

« وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ » أى من الأعمال « مُسْتَطَرٌّ » أى مسطور لا يحصى ولا ينسى ،
كما قال تعالى ^(١) (وَيَقُولُونَ يَبُولَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) وقوله سبحانه ^(٢)
(وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) .

وروى الإمام أحمد ^(٣) عن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ كان يقول :

(١) [١٨ / الكهف / ٤٩] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١٣ و ١٤] .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٧٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

يا عائشة ! إِيَّاكَ وَمَحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ ، فَإِنْ لَهَا مِنْ اللَّهِ طَالِبًا .

قال ابن كثير : ورواه النسائي وابن ماجة من طريق سميد بن مسلم بن ماهر المديني ، وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم وغيرهم . وقد رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة سميد بن مسلم هذا ، من وجه آخر . ثم قال سميد : فحدثت بهذا الحديث عامر بن هشام فقال لي : ويحك يا سميد ! لقد حدثني سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنباً فاستصغره ، فأتاه آتٍ في منامه ، فقال له : يا سليمان !

| | |
|--|--|
| لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ صَغِيرًا | إِنَّ الصَّغِيرَ غَدًا يَعُودُ كَبِيرًا |
| إِنَّ الصَّغِيرَ ، وَلَوْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ، | عِنْدَ الْإِلَهِ مُسَطَّرٌ تَسْطِيرًا |
| فَازْجُرْهُ هَوَاكَ عَنِ الْبِطَالَةِ ، لَا تَكُنْ | صَعْبَ الْقِيَادِ وَشَمْرَنَ تَشْمِيرًا |
| إِنَّ الْحُبَّ إِذَا أَحَبَّ إِلَهُهُ | طَارَ الْفَوَادُ وَالْهَيْمَ التَّفَكِيرًا |
| فَاسْأَلْ هِدَايَتِكَ الْإِلَهِ ، فَتَنَسَّدْ | فَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا |

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ)

[٥٥] (فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ)

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا عقاب الله بطاعته ، وأداء فرائضه ، واجتناب نواهيه ، « فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ » أى أنهار . واكتفى باسم الجنس المفرد لرعاية الفواصل . وقرئ بسكون الهاء ، وضم النون ، وقرئ بضمهما . « فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ » قال ابن جرير^(١) : أى في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم .

وقال الزمخشري : في مكان مرضى . قال شراحه : فالصدق مجاز مرسل في لازمه ،

(١) انظر الصفحة رقم ١١٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أو استعارة . وقيل : المراد صدق المَبشِّر به ، وهو الله ورسوله . أو المراد أنه ناله من ناله بصدقه وتصديقه للرسول ، فالإضافة لأدنى ملائسة .

« عِنْدَ مَلِيكَ » بمعنى ملك . قال الشهاب : وليس إشباعاً ، بل هي صيغة مبالغة كالمقتدر « مُقْتَدِرٍ » قال القاشاني : أي يقدر على تصرف جميع ما في ملكه على حكم مشيئته ، وتسخيره على مقتضى إرادته لا يمتنع عليه شيء .

وقال الشهاب : في تنكير الاسمين الكريمين إشارة إلى أن ملكه وقدرته لا تدرى الأفهام كنههما ، وأن قربهم منه بمنزلة من السعادة والكرامة ، بحيث لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، مما يجلب عن البيان ، وتكمل دونه الأذهان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٥ - سُورَةُ الرَّحْمَنِ

قال المهايي : سميت به لأنها مملوءة بذكر الآلاء الجليلة ، وهي راجعة إلى هذا الاسم .
وهي مكية ، على قول ابن عباس . وآيها ثمان وسبعون .
وقد روى الإمام أحمد أن أول مفصل ابن مسعود ، كان الرحمن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الرَّحْمَنُ)

[٢] (عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

« الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ » أى بصّر به ما فيه رضاء، وما فيه سخطه، برحمته ليطلع باتباع ما يرضيه، وعمل ما أمر به، وباجتناب ما نهى عنه، وأوعد عليه، فينال جزيل ثوابه، وينجى من أليم عقابه .

قال القاضى : لما كانت السورة مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والأخروية ، صدرها : (الرحمن) وقدم ماهو أصل النعم الدينية وأجلّها ، وهو إنعامه بالقرآن ، وتنزيله وتعليمه ، فإنه أساس الدين ، ومنشأ الشرع ، وأعظم الوحي ، وأعز الكتب ، إذ هو بإعجازه واشتماله على خلاصتها ، مصدق لنفسه ، ومصدق لها .
ثم أتبعه بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

[٤] (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » إيماء بأن خلق البشر ، وما تميز به عن سائر الحيوان من البيان - وهو التعبير عما فى الضمير ، وإفهام الغير - لما أدركه لتلقى الوحي ، وتعرف الحق ، وتعلم الشرع . أى فإذا كان خلقهم إنما هو فى الحقيقة لذلك ، اقتضى اتصاله بالقرآن ، وتنزيله الذى هو منبعه ، وأساس بنيانه .

قال الزمخشريّ : وإخلاؤها من العاطف لمحيئها على نمط التعديد ، كما تقول : زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد ، فما تنكر من إحسانه ؟ وهذا - كما قال الشهاب - مصحح . والمرجح الإشارة إلى أن كلامها نعمة مستقلة تقتضى الشكر . ففيه إيماء إلى تقصيرهم في أدائه . ولو عطفت مع شدة اتصالها وتناسبها ، ربما توهم أنها كلها نعمة واحدة .

وقال الأصفهانيّ في (الدررمة) : لما كان للنطق أشرف ما خص به الإنسان ، فإن صورته المعقولة التي بها باين سائر الحيوان . قال عز وجل (خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) ولم يقل (وعلمه) إذ جعل قوله (عَلَّمَهُ) تفسيراً لقوله (خَلَقَ الْإِنْسَانَ) تنبيهاً أن خلقه إياه هو تخصيصه بالبيان الذي لو توهم مرتفعاً لكانت الإنسانية مرفقة ، ولذلك قيل : ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة . وقيل : المرء مخبوء تحت لسانه . قال الشاعر (١) :

لسان الفتى نصفٌ ، ونصفٌ فؤادهُ فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدم -
أى إذا توهم ارتفاع النطق الذي هو باللسان ، والقوة الناطقة التي هي بالفؤاد ، لم يبق إلا صورة اللحم والدم . فإذا كان الإنسان هو اللسان فلا شك أن من كان أكثر منه حظاً كان أكثر منه إنسانية . والصمت من حيث ما هو صمت مذموم ؛ فذلك من صفات الجمادات ، فضلاً عن الحيوانات . وقد جعل الله تعالى بعض الحيوانات بلا صوت ، وجعل لبعضها صوتاً بلا تركيب . ومن مدح الصمت ، فاعتباراً بمن يسىء في الكلام ، فيقع منه جنایات عظيمة في أمور الدين والدنيا . فإذا ما اعتبراً بأنفسهما ، فبحال أن يقال في الصمت فضل ، فضلاً أن يخار بينهما وبين النطق . وسئل حكيم عن فضلها فقال : الصمت أفضل حتى يحتاج إلى النطق

(١) هو زهير بن أبي سلمى ، من معلقته التي مطلعها :

أَمِنْ أُمٍّ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةَ الدَّرَاجِ فَأَلْمَتُكَلِّمْ

وسئل آخر عن فضلها فقال : الصمت عن الحنا ، أفضل من الكلام بالخطا . وعنه أخذ الشاعر :

الصَّمْتُ أَلْيَقُ بِالْفَتَى من منطقٍ في غَيْرِ حِمْنِهِ

انتهى . وقد جوز - كما حكاه الشهاب - أن يكون (أَلْيَقُ) خبر محذوف ، أى الله الرحمن ، وما بعده مستأنف لتمدید نعمه . ثم قال : و (عَلَّمَ) من التعليم ، ومفعوله مقدر . أى علم الإنسان ، لا جبريل أو محمداً عليهما الصلاة والسلام . وليس (من العلامة من غير تقدير) كما قيل . أى جملة علامة وآية لمن اعتبر - لُبْعِدِهِ .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

[٦] (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)

[٧] (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

« الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ » أى يجران بحساب معلوم مقدر فى بروجهما ومنازلهما ، به تنسق أمور الكائنات السفلية ، وتختلف الفصول والأوقات ، ويعلم السنين والحساب . « وَالنَّجْمُ » أى النبات الذى ينبج ، أى يطلع من الأرض ولا ساق له . « وَالشَّجَرُ » أى الذى له ساق « يَسْجُدَانِ » أى يفقادان لله فيما يريد بهما طبعاً ، انقياد الساجد من المكلفين طوعاً . فهو استعارة مصرحة بعمية . شبه جريهما على مقتضى طبيعته ، بانقياد الساجد لخالقه والجملة - إن كانت خبراً عن الرحمن لعطفها على الخبر - فالرابط محذوف لوضوحه ، أى بحسبانها ويسجدان له . أو مستأنفة ، فالقطع لأنها مسوقة لغرض آخر . وإدخال العاطف بينهما ، لما أن الشمس والقمر سماويان ، والنجم والشجر أرضيان ، فبينهما مناسبة بالتقابل ، وبانقياد الشكل لإرادته . « وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا » أى خلقها مرفوعة . « وَوَضَعَ الْمِيزَانَ » أى العدل بين خلقه فى الأرض .

قال القاشاني : أى خفض ميزان العدل إلى أرض النفس والبدن ، فإن العدالة هيئة نفسانية ، لولاها لما حصلت الفضيلة الإنسانية . ومنه الاعتدال فى البدن الذى لو لم يكن ، لما وجد ، ولم يبق . ولما استقام أمر الدين والدنيا بالعدل ، واستتب كمال النفس والبدن به ، بحيث لولاه لفسد - أمر بمراعاته ومخافته قبل تعديد الأصول بتمامها ، لشدة العناية به ، وفطر الاهتمام بأمره . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ)

[٩] (وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)

« أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ » أى بالإفراط عن حد الفضيلة والاعتدال ، فيلزم الجور الموجب للفساد . و (أَنْ) مصدرية على تقدير الجار . أى لئلا تطفوا فيه ، أو مفسرة لما فى وضع الميزان من معنى القول ، لأنه بالوحي ، وإعلام الرسل . « وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ » أى بالاستقامة فى الطريقة ، وملازمة حد الفضيلة ، ونقطة الاعتدال فى جميع الأمور ، وكل القوى . « وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ » قال القاشاني : أى بالتفريط عن حد الفضيلة .

قال بعض الحكماء : العدل ميزان الله تعالى ، وضعه للخلق ، ونصبه للحق . انتهى . ومن فسر (الْمِيزَانَ) فى الآية بالعدل ، مجاهد ، وتبعه ابن جرير ، وكذا ابن كثير ، ونظر لذلك بآية^(١) (أَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) . وجوز أن يراد بالميزان ما يعرف به مقادير الأشياء من ميزان ومكيال ونحوها . ومنه قال السيوطى فى (الإكمال) : فيه وجوب العدل فى الوزن ، وتحريم البخس فيه . وعليه ، فوجه اتصال قوله (وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) بما قبله ، هو أنه لما وصف السماء

بالرفعة التي هي مصدر القضايا والأقدار ، أراد وصف الأرض بما فيها ، مما يظهر به التفاوت ، ويعرف به المقدار ، ويسوّى به الحقوق والمواجب - كذا ارتآه القاضي - والله أعلم .
وفي الحقيقة ، الثاني من أفراد الأول ، وأخذ اللفظ عاماً أولى وأفيد .
ومن اللطائف التي يتسع لها نظم الآية الكريمة قول الرازي : (أَلْمِيزَان) ذكر ثلاث مرات ، كل مرة بمعنى . فالأول : هو الآلة . والثاني : بمعنى المصدر . والثالث : للمفعول .
قال : وهو كالقرآن ، ذكر بمعنى المصدر في قوله تعالى ^(١) (فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ) ؛ وبمعنى المقروء في قوله ^(٢) (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ) ؛ وبمعنى الكتاب الذي فيه المقروء في قوله تعالى ^(٣) (وَلَوْ أَنْ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ أَجْبَالُ) ، فكأنه آله ومحل له ؛ وفي قوله تعالى ^(٤) (مَا أَنْتَ بِمُتَّبِعِينَ) سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانِ الْعَظِيمِ) . ثم قال : وبين القرآن والميزان مناسبة ، فإن القرآن فيه من العلم ما لا يوجد في غيره من الكتب . والميزان فيه من العدل ما لا يوجد في غيره من الآلات . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

[١١] (فِيهَا فُكِّهَتْهُ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ)

[١٢] (وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ)

[١٣] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ » أي مهتداً للخلق « فِيهَا فُكِّهَتْهُ » أي صنوف مما يتفككه به « وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ » أي أوعية الطلع ، وهو الذي يطلع فيه العنقود ،

(١) [٧٥ / القيامة / ١٨] . (٢) [٧٥ / القيامة / ١٧] .

(٣) [١٣ / الرعد / ٣١] . (٤) [١٥ / الحجر / ٨٧] .

ثم ينشقّ عن العقود فيكون بُسراً ، ثم رطباً . ثم ينضج ويتناهى نفعه واستواؤه . وإنما أفردا بالذكر ، لما فيها من الفوائد العظيمة ، على ما عرف من اتخاذ الظروف منها ، والانتفاع بجمارها وبالطلع والبسر والرطب وغير ذلك . فثمرتها في أوقات مختلفة كأنها ثمرات مختلفة ، فهي أتم نعمة بالنسبة إلى غيرها من الأشجار ، فلذا ذكر النخل باسمه ، وذكر الفاكهة دون أشجارها ، فإن فوائد أشجارها في عين ثمارها . « وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ » أى وفيها الحب . وهو حبّ البرّ والشعير ونحوها (ذُو الْعَصْفِ) أى الورق اليابس كالتين . « وَالرَّيْحَانُ » أى الورق الأخضر . تذكير بالنعمة به وبورقه في حالتيه . هذا على (قراءة) (الريحان) بالجرّ . وقرئ بالرفع ، وهو الزرع الأخضر مطلقاً ، سمي به تشبيهاً له بما فيه الروح ، لأن حياته النباتية في نضرة خضرته .

قال ابن عباس : الريحان خضر الزرع .

وقال القرطبي : الريحان ، إما فيعلان ، من (روح) ، فقلبت الواو ياءً ، وأدغم ثم خفف ، أو فعلان ، قلبت واؤه ياءً للتخفيف ، أو للفرق بينه وبين الروحان ، وهو ماله روح . « قَبَائِيءَ آلَاءِ رَبِّكُمْ كَذِبَانِ » قال أبو السعود : الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى ^(١) (لِلْإِنسَانِ) ، وسينطق به قوله تعالى ^(٢) (أَيُّهَا الثَّقَلَانِ) . والفاء لترتيب الإنكار ، والتوبيخ على ما فصل من فنون النعماء ، وصنوف الآلاء الموجبة للإيمان والشكر حمداً . والتعريض لعنوان الربوبية المنبثقة عن المالكية الكمية والتربية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير ، وتشديد التوبيخ . ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى ، كفرهم بها ، إما بإنكار كونه نعمة في نفسه ، كتعليم القرآن ، وما يستند إليه من النعم الدينية ، وإما بإنكار كونه من الله تعالى ، مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه ، كالنعم الدنيوية الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره تعالى استقلالاً ، أو اشتراكاً صريحاً ، أو دلالة ، فإن إشارتهم لآلهتهم به تعالى في العبادة

(١) [٥٥ / الرحمن / ١٠] . (٢) [٥٥ / الرحمن / ٣١] .

من دواعي إشراكهم لها به تعالى فيما يوجبها . والتمهير عن كفرهم المذكور بالتكذيب ، لما أن دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان والشكر ، شهادة منها بذلك . فكفرهم تكذيبها لاحالة . أى فإذا كان الأمر كما فصل ، فبأى فرد من أفراد آلاء مالكم كما ومرييتكما بتلك الآلاء تكذبان ، مع أن كلاً منها ناطق بالحق ، شاهد بالصدق . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ)

[١٥] (وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ)

[١٦] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ » قال أبو السعود: تمهيد للتوبيخ على إخلالهم بمواجب شكر النعمة المتعلقة بذاتى كل واحد من الثقلين . و (الصلصال) الطين اليابس الذى له صلصلة . و (الفخار) الخزف . وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب جعله طيناً ، ثم حمأ مسنوناً ، ثم صلصلاً . فلا تنافى بين الآية الناطقة بأحدها ، وبين ما نطق به بأحد الآخرين . « وَخَلَقَ الْجَانَّ » أى الجن ، أو أبا الجن ، « مِنْ مَّارِجٍ » أى لهب صاف « مِنْ نَّارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما أفاض عليكم فى تضاعيف خلقكم من سوانح النعم . ومما أظهره لكم بالقرآن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)

[١٨] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ » أى مشرقى الشتاء والصيف ومغربيهما أو مشرقى الشمس والقمر ومغربيهما « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما فيهما من النعم

والفوائد التي لا تحصى ، كاختلاف الفصول ، وحدث ما يناسب كل فصل فيه من الخيرات والبركات التي بها قوام العالم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ)

[٢٠] (بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ)

[٢١] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أى أرسلهما ، من (مَرَجَ فلان دابته) إذا خلّاها وتركها .
والمعنى : أرسل وأجرى البحر الملح ، والبحر العذب « يَلْتَقِيَانِ » أى يتجاوران « بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ » أى حاجز من قدرة الله تعالى وبديع صنعه « لَا يَبْغِيَانِ » أى لا يبغي أحدهما على الآخر بالمزجة ، وإبطال الخاصية .

قال الشهاب : يعنى أنهما إذا دخل أحدهما فى الآخر ، قد يجرى فيه فراسخ ، ولا يتلاشى ويضمحل ، حتى يغير أحدهما طعم الآخر ولونه ، كما نشاهده .

وقيل : المراد بجرى فارس والروم ، فإنهما يلتقيان فى البحر المحيط ، وبينهما برزخ من الأرض ، لا يتجاوزان حديهما بإغراق ما بينهما - وهو مروي عن قتادة والحسن - قال الشهاب : لكنه أورد عليه أنه لا يوافق قوله تعالى (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ...) الآية ^(١) . والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

واختار ابن جرير ^(٢) ما روى عن ابن عباس وغيره ؛ أنه عنى به بحر السماء وبحر الأرض . وذلك أن الله قال ^(٣) (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) واللؤلؤ والمرجان إنما يخرج من أصداف بحر الأرض عن قطر ماء السماء . معلوم أن ذلك بحر الأرض وبحر السماء . انتهى .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [٥٥ / الرحمن / ٢٢] .

وفيه ما في الذي قبله من عدم موافقته لتلك الآية . والأصل في الآي التشابه .
زاد ابن كثير : أن ما بين السماء والأرض لا يسمى برزخاً ، وحجراً محجوراً . فالأولى
هو الأول . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي مما في البحرين وخلقهما من الفوائد ،
وقد أشار إلى بعضها بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ)

[٢٣] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » أي كبار الدر وصغاره . أو (المرجان) الخرز
الأحمر المعروف . وإنما قيل (مِنْهُمَا) مع أنه يخرج من أحدها ، وهو الملح ، لأنه لا متراجهما
يكون خارجاً منهما حقيقة ، أو أنه نسب لهما ما هو لأحدهما ، كما يسند إلى الجماعة ما صدر
من واحد منهم . قال الناصر : وهذا هو الصواب . ومثله ^(١) (لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنَّ
عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ) وإنما أريد إحدى القريتين . وكما يقال : هو من أهل مصر ،
وإنما هو من محلة منها . انتهى .

قال الشهاب : ولا يخفى أن هذا ، وإن اشتهر ، خلاف الظاهر . فإما أن يكون ضمير
(مِنْهُمَا) لبحري فارس والروم ، أو يقال معنى خروجه منهما ليس أنه متسكون فيهما ،
بل أنهما يحصلان في جانب من البحار انصبت إليها المياه العذبة . انتهى . والخطب سهل .
ولما كان خروج هذين الصنفين نعمة على الناس ، لتحليتهم بهما ، كما تشير له آية ^(٢)
(وَمِنْ كُلِّ ثَأْنٍ كُلُونْ لَحْمًا طَرِبًا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) قال سبحانه « فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » وقوله تعالى :

(١) [٤٣ / الزخرف / ٣١] . (٢) [٣٥ / فاطر / ١٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)

[٢٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« وَلَهُ الْجَوَارِ » يعنى السفن ، جمع جارية « الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ » قرئ بكسر الشين ، بمعنى الظاهرات السير اللاتي تقبلن وتدبرن . وبفتحها بمعنى المرفوعات القلاع اللاتي تقبل بهن وتدبر . و (الأعلام) جمع علم ، وهو الجبل الطويل . ولما كانت من أعظم الأسباب للمتاجر والمكاسب المقولة من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ، مما فيه صلاح للناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع ، قال تعالى « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى نعمه التي أنعم بها في هذه الجوارى .

قال القاضى : أى من خلق موادها ، والإرشاد إلى أخذها ، وكيفية تركيبها وإجرائها في البحر بأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها غيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

[٢٧] (وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[٢٨] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ » أى : من على ظهر الأرض هالك « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ » أى ذاته الكريمة « ذُو الْجَلَالِ » أى العظمة والعلو والكبرياء « وَالْإِكْرَامِ » أى التفضل العام ، وهذه الآية كآية^(١) (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) .

(١) [٢٨ / القصص / ٨٨] .

ولما كان فناء الخلق سبباً لهممهم للنشأة الأخرى التي يظهر بها الحق من المبتطل، وينقلب الأول بالثواب ، ويؤم الآخرة بالعقاب ، وذلك من أعظم النعم التي يشمل فيها العدل الإلهي المكلفين - قال سبحانه « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » .
وقد أشار الرازي إلى ما في قوله تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) من الفوائد ، بقوله :
فيه فوائد :

منها - الحث على العبادة ، وصرف الزمان اليسير إلى الطاعة .
ومنها - المنع من الوثوق بما يكون للمرء . فلا يقول - إذا كان في نعمة - إنها لن تذهب فيترك الرجوع إلى الله ، معتمداً على ماله وملكه .
ومنها - الأمر بالصبر إن كان في ضرر ، فلا يكفر بالله معتمداً على أن الأمر ذاهب ، والضرر زائل .
ومنها - ترك اتخاذ الغير معبوداً ، والجزع عن الاعتراض بالقرب من الملوك ، وترك التقرب إلى الله تعالى . فإن أمرهم إلى الزوال قريب .
ومنها - حسن التوحيد، وترك الشرك الظاهر والخفي جميعاً، لأن الفاني لا يصاح لأن يعبد .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

[٣٠] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أي يدعوونه ويرغبون إليه ، ويرجون رحمته لفقرهم الذاتي ، وغناه المطلق . « كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » أي كل وقت يحدث أموراً ، ويجدد أحوالاً .

قال مجاهد : يعطى سائلاً ، ويفك عانيًا ، ويحبب داعيًا ، ويشفي سقيمًا .

وروى ابن جرير^(١) أن النبي ﷺ تلا هذه الآية . فقيل : يا رسول الله ! وما ذاك الشأن قال : يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع أقواماً ، ويضع آخرين .
وقال الفاشاني : المراد يسأله كل شيء ، فغاب العقلاء ، وأتى بالفظ (مَنْ) أي كل شيء يسأله بلسان الاستعداد والافتقار دائماً (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) بإفاضة ما يناسب كل استعداد ويستحقه ، فله كل وقت في كل خاق شأن ، بإفاضة ما يستحقه ويستأهله باستعداده . فمن استعد بالتصفية والتزكية للكمالات الخيرية والأنوار ، فيفيضها عليه مع حصول الاستعداد . ومن استعد بتكدير جوهر نفسه بالهيات المظلمة والذائل ، ولوث العقائد الفاسدة ، والخبائث ، للشروع والمكاره ، وأنواع الآلام والمصائب والعذاب والوبال : يفيضها عليه مع حصول الاستعداد . انتهى .

وقد أخذ الآية عامة من حيث السائلون خاصة بلسان الاستعداد وغيره - كابن كثير والقاضي - رآها خاصة بمن يعقل ، عامة بلسان الحال أو المقال . والأقرب هو ما يتبادر بآدى بدء إلى الفهم ، وهو ما ذكرناه أولاً « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي مما يسعف به سؤالكما ، ويخرج لكما من مخبأ قدره وخلقه آناً فآناً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ الثَّقَلَانِ)

[٣٢] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ الثَّقَلَانِ » قال القرطبي : يقال : فرغت من الشغل أفرغ فراغاً وفروغاً . وفرغت لكذا واستفرغت مجهودى في كذا أى بذلته . والله تعالى ليس له شغل يفرغ منه . وإنما المعنى : سنقصد لجازاتكم أو محاسبتكم ، فهو وعيد لهم وتهديد ، كقول القائل لمن يريد تهديده : إذا أفرغ لك ، أى أقصدك .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٥ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقال الزجاج : الفراغ في اللغة على ضربين : أحدهما الفراغ من الشغل ، والآخر القصد للشيء والإقبال عليه ، كما هنا . وهو تهديد ووعيد . تقول : قد فرغت مما كفت فيه ، أى قد زال شغلى به . وتقول : سأفرغ لفلان ، أى سأجمله قصدى . فهو على سبيل التمثيل . شبه تدبيره تعالى أمر الآخرة ، من الأخذ في الجزاء ، وإيصال الثواب والعقاب إلى المسكنين ، بعد تدبيره تعالى لأمر الدنيا بالأمر والنهي ، والإمانة والإحياء ، والمنع والإعطاء ، وأنه لا يشغله شأن عن شأن - بحال من إذا كان في شغل يشغله عن شغل آخر ، إذا فرغ من ذلك الشغل ، شرع في آخر . وجازت الاستمارة القصريحية أيضاً . وقد ألم به صاحب (المفتاح) حيث قال : الفراغ الخلاص عن المهام . والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ، وقع مستمراً للأخذ في الجزاء وحده .

اطيقة :

رسم (أَيْهَ) بغير ألف . وأما في النطق فقرأ أبو عمرو والكسائي (أيها) بالألف في الوقف ، ووقف الباقر على الرسم (أيه) بتسكين الهاء ، وفي الوصل قرأ ابن عامر (أَيْهَ) برفع الهاء ، والباقر بنصبها .

و (الثقلان) تشبيه (ثَقَل) بفتح حين ، فَعَلَ بمعنى مفعول ، لأنهما أثقلا الأرض ، أو بمعنى مفعول ، لأنهما أثقلا بالتسكليف . وقال الحسن : لثقلهما بالذنوب .

والخطاب في (لَكُمْ) قيل للمجرمين ، لكن ياباه قوله (أَيْهَ الثَّقَلَانِ) نعم ! المقصود بالتهديد هم . ولا مانع من تهديد الجميع - كما أفاده الشهاب - ولا يفهم من هذا أن اللفظ الكريم وعيد بحت ، بل هو حامل للوعد أيضاً ، لأن المعنى : سنفزع لحسابكم ، فنثيب أهل الطاعة ، ونعاقب العصاة ، وهو جلي . ولذا اعتد ذلك نعمة عليهم بقوله « فَيَأْتِيهِمْ آيَاتُ رَبِّهِمْ كَمَا تَكُنْ بَانَ » أى من ثوابه أهل طاعته ، وعقابه أهل معصيته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)
[٣٤] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »
أى تجوزوا أطراف السموات والأرض فتمجروا ربكم ، أى بخروجكم عن قهره وحمل سلطانه ومملكته حتى لا يقدر عليكم « فَانْفُذُوا » أى فجوزوا واخرجوا (لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)
أى بقوة وقهر وغلبة ، وأنى لكم ذلك ؟ ونحوه ^(١) (وَمَا أَنْتُمْ بِمُفْجِرِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) ويقال : معنى الآية : إن استطعتم أن تعلموا ما فى السموات والأرض فاعلموه ، وإن تعلموه إلا بسُلطان ، بمعنى : البينة من الله تعالى . والأول أظهر ، لأنه لما ذكر فى الآية الأولى أنه لا محالة مُجاز للعباد ، عقبه بقوله (إِنِ اسْتَطَعْتُمْ . . .) لبيان أنهم لا يقدرُونَ على الخلاص من جزائه وعقابه ، إذا أَرَادَهُ . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ »
قال ابن جرير ^(٢) : أى من التسوية بين جميعكم ، بأن جميعكم لا يقدرُونَ على خلاف أمر أَرَادَهُ بكم .

وقال القاضى : أى من التنبيه والتحذير والمساهلة والمغو مع كمال القدرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنَارٌ كَاَسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ)
[٣٦] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ » أى من لهب « مِّنْ نَّارٍ وَنَحَاسٌ » أى صُفْر مذاب يصب

(١) [٢٩ / المنكبات / ٢٢] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٣٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

على رؤوسهم « فَلَا تَنْتَصِرَانِ » أى تمتنعان وتنفذان منه . يعنى : إذا أصررتما على الكفر والطغيان وعصيان الرسول ، فما أمامكم فى الآخرة إلا هذا العذاب الأليم .
وقد ذهب ابن كثير إلى أن هذه الآية وما قبلها ، مما يخاطب به الكفرة فى الآخرة ،
وعبارته :

هذا فى مقام الحشر، والملائكة محذقة بالخلائق، فلا يقدر أحد على الذهاب إلا بسطان،
أى بأمر الله ^(١) (يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) وقال تعالى ^(٢) (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَيَتَرَهُمُ اللَّهُ، مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ، كَانَتْما أَغْشَيْتِ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ولهذا قال تعالى (يُرْسَلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئُ مِّنْ نَّارٍ وَنَحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ) والمعنى لو ذهبتم هارين يوم القيامة ، لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال
الله من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا . انتهى .

ثم رأيت قد سبقه إلى ذلك، الإمام ابن القيم رحمه الله، فقد قال رحمه الله فى أواخر كتابه
(طريق الهجرتين) فى تفسير هذه الآية ، بعد أن ذكر نحو ما قدمنا من الوجهين فى تأويل
قوله تعالى (إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا) مأمثاله :

وفى الآية تقرير آخر ، وهو أن يكون هذا الخطاب فى الآخرة ، إذا أحاطت الملائكة
بأقطار الأرض، وأحاط سرادق النار بالآفاق، فهرب الخلائق، فلا يجدون مهرباً ولا منفذاً،
كما قال تعالى ^(٣) (وَيَقُومُ إِنِّىْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُؤَلُّونَ مَذْبِرَيْنِ) قال مجاهد:
فارين غير معجزين . وقال الضحاك : إذا سمعوا زفير النار ندوا هرباً ، فلا يأتون قطراً من
الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً ، فيرجعون إلى المكان الذى كانوا فيه ، فذلك

(١) [٧٥ / القيامة / ١٠ - ١٢] : (٢) [١٠ / يونس / ٢٧] .

(٣) [٤٠ / غافر / ٣٢ و ٣٣] :

قوله^(١) (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا) وقوله^(٢) (يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ ..) الآية. وهذا القول أظهر - والله أعلم - فإذا بده الخلائق ولوا مدبرين ، يقال لهم : (إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض فتمجزوا ربكم حتى لا يقدر على عذابكم ، فافعلوا. وكأن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على هذا القول ، فإن قبلها (سَنَفْرُغُ أَيْكُمْ ...) الآية ، وهذا فى الآخرة ، وبعدها^(٣) (فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ ...) الآية ، وهذا فى الآخرة. وأيضاً فإن هذا خطاب لجميع الإنس. والجن فإنه أتى فيه بصيغة العموم ، وهى قوله (يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ) فلا بد أن يشترك الكل فى سماع هذا الخطاب ومضمونه ، وهذا إنما يكون إذا جمهم الله فى صعيد واحد ، يسمهم الداعى ، وينفذهم البصر. وقال تعالى (إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ) ولم يقل : إن استطعتم ، لإرادة الجماعة ، كما فى آية أخرى^(٤) (يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ) وقال^(٥) (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا) ولم يقل : يرسل عليكم ، لإرادة الصنفين ، أى لا يختص به صنف عن صنف ، بل يرسل ذلك على الصنفين معاً. وهذا ، وإن كان مراداً بقوله^(٦) (إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ) نخطاب الجماعة فى ذلك بلفظ الجمع أحسن . أى من استطاع منكم . وحسن الخطاب بالتثنية فى قوله (عَلَيْكُمَا) أمر آخر ، وهو موافقة رؤوس الآى ، فاتصلت التثنية بالتثنية. وفيه التسوية بين الصنفين فى العذاب بالتنصيص عليهما ، فلا يحتمل اللفظ إرادة أحدهما - والله أعلم - انتهى كلام ابن القيم .

وأنت ترى أن لاقربنة تخصص الآية بالقيامة ، وما استشهد به من الآيات لا يؤيده ، لأنه ليس من نظائره . فالوجه ما ذكرناه .

- | | |
|----------------------------|-----------------------------|
| (١) [٦٩ / الحاقة / ١٧] . | (٢) [٥٥ / الرحمن / ٣٣] . |
| (٣) [٥٥ / الرحمن / ٣٧] . | (٤) [٦ / الأنعام / ١٣٠] . |
| (٥) [٥٥ / الرحمن / ٣٥] . | (٦) [٥٥ / الرحمن / ٣٣] . |

« فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال القاضي : فإن التهديد لطف ، والتميز بين المطيع والمعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار ، من عداد الآلاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)

[٣٨] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ » أى انفطرت فاختل نظامها العلوى « فَكَانَتْ وَرْدَةً » أى كلون الورد الأحمر « كَالدِّهَانِ » أى كالدهن الذى هو الزيت ، كما قال ^(١) (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَمَلِ) وهو دردى الزيت ، يعنى فى لونه الكدر وذوبانه ، لصيرورتها إلى الفناء والزوال . « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما يحله بكم بعد ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ)

[٤٠] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ » أى لا يفتح له باب المذرة ، كقوله ^(٢) (وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) فى السؤال مجاز عن نفي سماع الاعتذار . فهو من باب نفي السبب لا تنقضاء السبب . وأخذ كثير السؤال على حقيقته ، وحاولوا الجمع بينه وبين ما قد يتنافيه .

قال القاشانى : وأما الوقف والسؤال المشار إليه فى قوله ^(٣) (وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) ونظائره ، فى مواطن آخر من اليوم الطويل الذى كان مقداره خمسين ألف سنة ، وقد يكون هذا الوطن قبل الوطن الأول فى ذلك اليوم ، وقد يكون بعده .

(١) [٧٠ / المارج / ٨] . (٢) [٧٧ / المرسلات / ٣٦] . (٣) [٣٧ / الصافات / ٢٤] .

وكذا قال ابن كثير: إن هذه الآية كقوله^(١) تعالى (هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ* وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَمْتَدُّونَ) فهذا في حال . وثمّ حال يسأل الخلائق عن جميع أعمالهم ، قال تعالى^(٢) (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * نَعَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وفي الآية تأويل آخر . قال مجاهد: لا يسأل الملائكة عن المجرم ، يعرفون بسيماهم .

وقال الإمام ابن القيم في (طريق الهجرتين) اختلف في هذا السؤال المنفي ، فقيل: هو وقت البعث والمصير إلى الموقف ، لا يسألون حينئذ ، ويسألون بعد إطالة الوقوف ، واستشفاعهم إلى الله أن يحاسبهم ، ويريجهم من مقامهم ذلك . وقيل المنفي سؤال الاستعلام والاستخبار ، لا سؤال المحاسبة والمجازاة . أى قد علم الله ذنوبهم ، فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها ، وإنما يحاسبهم عليها . انتهى .

« فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال ابن جرير^(٣): أى من عدله فيكم أنه لم يعاقب منكم إلا مجرمًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ)

[٤٢] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٤٣] (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ)

[٤٤] (يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ جَحِيمٍ إِنْ)

[٤٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ » أى بما يعلوهم من الكتابة والحزن والذلة . وقيل :

(١) [٧٧ / الرسائل / ٣٦ و ٣٥] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٢ و ٩٣] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

بسواد الوجوه ، وزرقة العيون « فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ » أى فتأخذهم الزبانية بنواصيهم وأقدامهم ، فتسحبهم إلى جهنم ، وتقذفهم فيها . والباء للآلة ، كأخذت بالخطام ، أو للتعديدية . و (الفاصية) مقدم الرأس . « فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ » قال ابن جرير^(١) : أى من تعريفه ملائكته ، أهل الإجمام من أهل الطاعة منكم ، حتى خصوا بالإذلال والإهانة ، المجرمين دون غيرهم « هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ » أى ماء حار « ءَانِ » أى انتهى حره ، واشتد غليانه . وكل شئ قد أدرك وبلغ فقد أُنِيَ . ومنه قوله^(٢) (غَيْرَ نَظِيرِينَ إِنَّهُ) يعنى إدراكه وبلوغه « فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ » أى من عقوبته أهل الكفر به ، وتكريمه أهل الإيمان به . ثم تأثر ما عدد عليهم من الآلاء الدينية ، والدينية بتعداد ما أفاض عليهم فى الآخرة ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ)

[٤٧] (فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ)

[٤٨] (ذَوَاتَا أَفْنَانٍ)

[٤٩] (فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ)

[٥٠] (فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ)

[٥١] (فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ)

[٥٢] (فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ)

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٥٣] .

- [٥٣] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
- [٥٤] (مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ)
- [٥٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
- [٥٦] (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ)
- [٥٧] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
- [٥٨] (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ)
- [٥٩] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » أى قيامه عند ربه للحساب ، فأطاعه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه . فإضافته للرب لأنه عنده ، فهو كقول العرب : ناقة رقاد الحب ، أى رقاد عند الحب . أو موقفه الذى يقف فيه العباد للحساب ، فإضافته للرب لامية لاختصاص الملك يومئذ به تعالى . أو هو كناية عن خوف الرب ، وإثبات خوفه له بطريق برهاني بليغ ، لأن من حصل له الخوف من مكان أحد ، يهابه وإن لم يكن فيه ، نخوفه منه بالطريق الأولى . وهذا كما يقول المترسلون : المقام العالى ، والمجلس السامى « جَنَّتَانِ » أى جنة لمن أطاع من الإنس ، وجنة لمن أطاع من الجن . أو هو كناية عن مضاعفة الثواب ، وإثبات التثنية للفاصلة « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى بإثباته المحسن ما وصف « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » أى أنواع من الأشجار والثمار . جمع (فن) بمعنى النوع ، أو أغصان لينة ، جمع (فَنَن) وهو مَادَقٌ ولان من الغصن « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ » وهو ما غلظ من الديباج .

نبه على شرف الظاهرة ، بشرف البطانة ، وهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى .

قال ابن مسعود : هذه البطائن ، فكيف لو رأيتم الظواهر ؟ !
« وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ » أى وثمرها المجنى داني القطوف « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَهِنُ قَهْرَتُ الْطَّرَفِ » أى منكسرات الجفن ، خافضات النظر ، غير متطلعات لما بعد ، ولا ناظرات لغير زوجها . أو معناه : إن طرف النظر لا يتجاوزها ، كقول المتنبي :

وخصر تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدق نطاقاً

فالمراد : قاصرات طرف غيرهن عن التجاوز لغيرهن . أو المعنى : شديداً بياض الطرف ، كما يقال : أحور الطرف وحوراؤه ، من قولهم : ثوب مقصور وحوارى .
وجلّى أن المعانى ههنا لا تتراحم لتحقيق مصداقها كلها . « لَمْ يَطْمِئْنُوهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ » أى لم يسهن . وأصله خروج الدم ، ولذلك يقال للحيض (طمث) ثم أطلق على جماع الأبكار ، لما فيه من خروج الدم . ثم عمّ كل جماع . وقد يقال : إن التعبير به للإشارة إلى أنها توجد بكرةً كلما جومت . ويستدل بالآية على أن الجن يطمئن ويدخلن الجنة .
« فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » أى فى الحسن والبهجة ، أوفى حمرة الوجة والوجه ، أدبا وحياء « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)

[٦١] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٦٢] (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ)

[٦٣] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٦٤] (مُدْهَمَّامَتَانِ)

- [٦٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٦٦] (فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ)
 [٦٧] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٦٨] (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ)
 [٦٩] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٧٠] (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ)
 [٧١] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٧٢] (حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ)
 [٧٣] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٧٤] (لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قُبُلُهُمْ وَلَا جَانٌ)
 [٧٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٧٦] (مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبَقَرٍ حِسَانٍ)
 [٧٧] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
 [٧٨] (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

« هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ » أى فى العمل « إِلَّا الْإِحْسَنُ » أى فى الثواب ، وهو الجنة
 « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِنْ دُونِهِمَا » أى دون تينك الجنة المفوه بهما
 « جَنَّاتٍ » أى بستتان آخران . إشارة إلى وفرة الجنان واتصالها وسعة امتداد الطرف
 فى مناظرها « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَمَّتَانِ » أى خضراوان من الرى ،

تضربان إلى السواد من شدة الخضرة . أو من كثرة أشجارها الممتدة لا إلى نهاية (فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ » أى فوارتان بالماء « فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَلَكُمَا وَنُحْلٌ وَرُمَّانٌ » وإنما أفردهما بالذكر بياناً لفضلهما، كأنهما، لما لهما من المزية ، جنسان آخران « فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ » جمع (خيرة) بالتشديد، إلا أنه خفف . وقد قرئ على الأصل . أى فضلات الأخلاق . وإيثار ضمير المؤنث على التثنية مراعاة للفظ المسند إليه بعده « حِسَانٌ » أى حسان الوجوه « فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ » الحور : جمع (حوراء) وهى البيضاء النقية . ومعنى (مَّقْصُورَاتٌ) قصرن أنفسهن على منازلهن ، لا يهمن إلا زينتهن ولهوهن . وفيه المعانى المتقدمة أيضاً . و (الْخِيَامِ) قال ابن جرير^(١) : يعنى بها البيوت . وقد يسمّى العرب هودج النساء خياماً ، ثم أنشده . « فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِئْنُوا أَنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ » يعنى بهنّ حورالجنّتين اللتين من دون الأولين . أو تكرير لما سبق ، للتقوية بهذا الوصف ، وكونه فى مقدمة المشتميات ، وطليلة اللذات : « فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَكِدِّينَ عَلَى رَفْرَفٍ » أى سرر أو مساند أو وسائد « خُضْرٌ وَعَبَقَرِيٌّ » أى طنافس وبُسُط « حِسَانٍ » أى جياذ . والصفة كاشفة ، ولذا قال ابن جبير : (العبقرى) عتاق الزرابى ، أى جياذها . « فَيَأْيِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى من إكرامه أهل طاعته منكماً هذا الإكرام . « تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ » أى ذى العظمة والكبرياء ، والتفضل بالآلاء و (الاسم) هنا كناية عن الذات العلية ، لأنه كثر اقتران الفعل المذكور معها ، كناية^(٢) (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا) ، وآية (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) ونحوها . وسر إيثار الاسم

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٦١] . (٣) [٦٧ / الملك / ١] .

التنبيه على أنه لا يُعرف منه تعالى إلا أَسْمَاؤُهُ الحسنى ، لاستحالة اكتفاء الذات المقدسة . فما عرف الله إلا الله . هذا هو التحقيق .

وقيل : لفظ (اسم) مقحم ، كقوله ^(١) :

* إلى الحول ، ثم اسمُ السلام عليكما *

وذهب ابن حزم إلى بقاء الاسم على حقيقة . وردّ من استدلّ بأن الاسم هو المسمى

بما مثاله :

لا حجة فيما احتجوا به . أما قول الله عز وجل (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) فحق . ومعنى (تَبَارَكَ) تفاعل من البركة ، والبركة واجبة لاسم الله عز وجل الذى هو كلمة مؤلفة من حروف الهجاء . ونحن نتبرك بالذكر له وبتَعْظِيمِهِ ونَجْلَهُ ونُكْرَمِهِ ، فله التبرك وله الإجلال منا ومن الله تعالى ، وله الإكرام من الله تعالى ومنا ، حينما كان من قرطاس ، أو فى شيء منقوش فيه ، أو مذكور بالأسنة . ومن لم يحل اسم الله عز وجل

(١) وعجزه : * وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَدْ اعْتَدَرَ *

وقائله لبید بن ربیعة .

والشعر يقوله لبنتيه ، إذ قال :

تَمَنَّى ابْنَتَايَ أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُمَا وهل أنا إلا من ربیعة أو مُضَرّ

ثم أمرهما بأمره ، فقال قبل بيت الشاهد :

فَقُومَا فَقُولَا بِالَّذِي قَدْ عَلِمَا وَلَا تَخْمِشَا وَجْهًا وَلَا تَحْلِقَا شَعْرَ

وقولا : هو المرء الذى لا خلیله ، أضاع ، ولا خان الصديق ، ولا غدر

فقوله (إلى الحول) أى أفعلا ذلك إلى أن يحول الحول . والحول : السنة كاملة بأسرها .

وقوله (اعتذر) هنا بمعنى أعذر . أى بلغ أقصى الغاية فى العذر .

(تفسير الطبرى ، طبعة المعارف ، ج ١ ص ١١٩) (فى الحاشية) .

كذلك ولا أكرمه ، فهو كافر بلا شك . فالآية على ظاهرها دون تأويل ، فبطل تعلّقهم بها . انتهى كلامه رحمه الله .

فائدة

فيما قاله الأئمة في سر تكرير (فَبَيَّـمُ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (١) .

قال السيوطي في (الإتقان) في بحث التكرير :

قد يكون التكرير غير تأكيد صناعة ، وإن كان مفيداً للتأكيد معنى . ومنه ما وقع فيه الفصل بين المكررين ، فإن التأكيد لا يفصل بينه وبين مؤكده .

ثم قال : وجعل منه قوله (فَبَيَّـمُ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فإنها ، وإن تكررت نيفاً وثلاثين مرة ، فكل واحدة تتعلق بما قبلها ، ولذلك زادت على ثلاثة ، ولو كان الجميع عائداً إلى شيء واحد لما زاد على ثلاثة ، لأن التأكيد لا يزيد عليها - قاله ابن عبد السلام وغيره - انتهى .

وفي (عروس الأفراح) : فإن قلت : إذا كان المراد بكل ما قبله فليس ذلك بإطناب ، بل هي ألفاظ كل ما أريد به غير ما أريد به الآخر .

قلت : إذا قلنا : العبرة بعموم اللفظ ، فشكل واحد أريد به ما أريد بالآخر ، ولكن كرر ليكون نصاً فيما يليه ، ظاهراً في غيره .

فإن قلت : يلزم التأكيد ؟

قلت : والأمر كذلك ، ولا يرد عليه أن التأكيد لا يزيد به عن ثلاثة ، لأن ذاك في التأكيد الذي هو تابع . أما ذكر الشيء في مقامات متعددة أكثر من ثلاثة ، فلا يمتنع . انتهى .

وقال العز بن عبد السلام في آخر كتابه (الإشارة إلى الإيجاز) وأما قوله (فَبَيَّـمُ

(١) راجع الجزء الأول صفحة ٢٥٧ من هذا الكتاب .

ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فيجوز أن تكون مكررة على جميع أنعمه ، ويجوز أن يراد بكل واحدة منهن ما وقع بينها وبين التي قبلها من نعمة ويجوز أن يراد بالأولى ما تقدمها من النعم ، وبالثانية ما تقدمها ، وبالثالثة ما تقدم على الأولى والثانية والرابعة ما تقدم على الأولى والثانية والثالثة ، وهكذا إلى آخر السورة .

فإن قيل : كيف يكون قوله (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ) نعمة ، وقوله (يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ) نعمة ، وكذلك قوله (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ) وقوله (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ) وقوله (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ) .

قلنا : هذه كلها نعم جسام ، لأن الله هدّد العباد بها استصلاحاً لهم ، ليخرجوا من حيز الكفر والطغيان والفسوق والعصيان إلى حيز الطاعة والإيمان ، والانتقياد والإذعان . فإن من حذر من طريق الردى ، وبين ما فيها من الأذى ، وحث على طريق السلامة ، الموصلة إلى المثوبة والكرامة ، كان منعماً غاية الإنعام ، ومحسناً غاية الإحسان . ومثل ذلك قوله ^(١) هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ) وعلى هذا تصلح فيه مناسبة الربط ، بذكر صفة الرحمة في ذلك المقام . وأما قوله ^(٢) (كُلُّ مَنَ عَلَيْهِمَا فَاَنٍ) فإنه تذكير بالموت والفناء ، للترغيب في الإقبال على العمل لدار البقاء ، وفي الإعراض عن دار الفناء . انتهى .

وقال البغوي : كررت هذه الآية في أحد وثلاثين موضعاً تقريراً للنعمة ، وتأكيذاً للتذكير بها . ثم عدد على الخلق آلاءه ، وفصل بين كل نعمتين بما نبههم عليه ، ليفهمهم النعم ويقرّهم بها . كقول الرجل لمن أحسن إليه ، وتابع إليه بالأبادي ، وهو ينكرها ويكفرها : ألم تكن فقيراً فأغنيتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن عرياناً فكسوتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن حاملاً فعرزتك ، أفتنكر هذا ؟ ومثل هذا الكلام شائع في كلام العرب . انتهى .

(١) [٣٦ / يس / ٥٢] . (٢) [٥٥ / الرحمن / ٢٦] .

وقال السيد مرتضى في (الدرر والغرر) : التكرار في سورة الرحمن ، إنما حسن للتقرير بالنعم المختلفة المعددة ، فكلما ذكر نعمة أنعم بها ، ويتج على التكذيب ، كما يقول الرجل لنيره : ألم أحسن إليك بأن خولتك في الأموال ؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا ؟ فيحسن فيه التكرير ، لاختلاف ما يقرر به ، وهو كثير في كلام العرب وأشعارهم ، كقول مهلهل يرثي كليباً^(١) :

| | |
|---------------------------|-------------------------------------|
| على أن ليس عدلاً من كليبٍ | إذا ماضٍمَ جيرانُ المَجِيرِ |
| على أن ليس عدلاً من كليبٍ | إذا رجف العِضَاءُ من الدَّيُورِ |
| على أن ليس عدلاً من كليبٍ | إذا خَرَجَتْ مُحَبَّاةُ الخُدُورِ |
| على أن ليس عدلاً من كليبٍ | إذا ما أُعْلِنَتْ نَجْوَى الأُمُورِ |
| على أن ليس عدلاً من كليبٍ | إذا خيفَ المَخُوفُ من الثُّغُورِ |
| على أن ليس عدلاً من كليبٍ | غداة تَلَا تِلَ الأَمْرِ الكَبِيرِ |
| على أن ليس عدلاً من كليبٍ | إذا ما خَارَ جَارُ المُسْتَجِيرِ |

ثم أنشد قصائد أخرى على هذا النمط ، وهو من لطائف العرب ، فاعرفه .

وقال شيخ الإسلام في (متشابه القرآن) : ذكرت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة ، ثمانية منها ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله ، وبدائع صنعه ، ومبدأ الخلق ومعادهم . ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها ، بعدد أبواب جهنم ، وحسن ذكر الآلاء عقبها ، لأن من جملة الآلاء ، رفع البلاء ، وتأخير العقاب . وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنتين وأهلها ، بعدد أبواب الجنة ، وثمانية أخرى بعدها في الجنتين اللتين هادون الجنتين الأولين ، أخذاً من قوله (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) . فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق هاتين الثمانيتين من الله ، ووقاه السبعة السابقة . انتهى .

اللهم زدنا اطلاعاً على لطائف قرآنك الكريم ، وغوصاً على لآلى فرقانك العظيم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٤ من الجزء الأول من أمالي المرتضى (طبعتنا) .

تمّ الجزء الخامس عشر . ويليه ، إن شاء الله ، الجزء السادس عشر ، وفيه تفسير :

٥٦ - سورة الواقعة ، ٥٧ - سورة الحديد ، ٥٨ - سورة المجادلة ، ٥٩ - سورة الحشر ،
 ٦٠ - سورة المتحنة ، ٦١ - سورة الصف ، ٦٢ - سورة الجمعة ، ٦٣ - سورة المنافقين ،
 ٦٤ - سورة التغابن ، ٦٥ - سورة الطلاق ، ٦٦ - سورة التحريم ، ٦٧ - سورة الملك ،
 ٦٨ - سورة القلم ، ٦٩ - سورة الحاقة ، ٧٠ - سورة المعارج ، ٧١ - سورة نوح ،
 ٧٢ - سورة الجن ، ٧٣ - سورة المزمل ، ٧٤ - سورة المدثر ، ٧٥ - سورة القيامة .

فهرس السور المفسرة في هذا الجزء

| رقم الصفحة | رقم السورة واسمها |
|------------|--------------------|
| ٥٣٢٦ | ٤٦ - سورة الأحقاف |
| ٥٣٧١ | ٤٧ - سورة محمد ﷺ |
| ٥٣٩٤ | ٤٨ - سورة الفتح |
| ٥٤٣٧ | ٤٩ - سورة الحجرات |
| ٥٤٨٠ | ٥٠ - سورة ق |
| ٥٥١٩ | ٥١ - سورة الذاريات |
| ٥٥٤٠ | ٥٢ - سورة الطور |
| ٥٥٥٣ | ٥٣ - سورة النجم |
| ٥٥٩١ | ٥٥ - سورة القمر |
| ٥٦١٠ | ٥٥ - سورة الرحمن |

رقم الإيداع بدار الكتب رقم ١٩٧٠/٤٢٤٠

